دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

النذل

ROGUE



اقرأ أيضاً لدانيال ستيل











ISBN 978-9953-87-717-4

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت

www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ROGUE

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلفة

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينها وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-9953-87-717-4

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الفصل الأول

حلّقت طائرة السيسنا كارافان الصغيرة ذات المحرك الواحد بطريقة منذرة بالخطر فوق مستنقعات غرب ميامي. كانت الطائرة على علوٍّ كافٍ عن المنظر الطبيعي في الأسفل لالتقاط صورة رائعة له، لكن الرياح التي تدافعت عبر الكوّة المفتوحة، صرفت انتباه المرأة الشابة المتمسكة بحزام الأمان بحيث استطاعت فقط رؤية السماء الواسعة أمامها. طلب منها الرجل الواقف خلفها القفز.

سألت وهي تلقي نظرة عليه من فوق كتفها، وقد بدا عليها الذعر بوضوح: «ماذا لو لم تفتح مظلتي؟». إنها امرأة طويلة القامة، وشقراء، وجميلة ذات جسم رائع ووجه ساحر. امتلأت عيناها بالذعر.

قال بلايك ويليامز وقد علت وجهه نظرة موحية بالثقة التامة: «ثقي بي، بليندا، ستفتح». القفز هو أحد الهوايات المتعددة التي يمارسها منذ أعوام طويلة، ولطالما أحب مشاركة متعة هذه الهواية مع شخص آخر.

وافقت بليندا على فعل ذلك خلال الأسبوع الفائت، بعد تناول المشروب في نادٍ ليلي خاص وفخم جداً في ساوث بيتش. في اليوم التالي، دفع بلايك أجرة ثماني ساعات تعليم لها مع قفزة اختبار بإشراف مدربين. أصبحت بليندا جاهزة الآن. إنه لقاؤهما الثالث فقط، ونجح بلايك في جعل القفز يبدو مغرياً جداً، بحيث وافقت وهي تضحك على دعوته إياها للقفز معه بعد ثاني لقاء لهما. لم تستوعب المغامرة التي تتورط فيها، إنها تبدو عصبية المزاج الآن، وتساءلت كيف أقنعها بذلك. فالمرة الأولى التي قفزت فيها، مع المدرّبين اللذين خصصهما لها، كانت مخيفة حتى الموت، وإنما مثيرة أيضاً. القفز مع بلايك سيكون ذروة التجربة. بالكاد تستطيع الانتظار. كان ساحراً جداً، ووسيماً جداً، وخيالياً جداً، ومرحاً جداً لدرجة أنها مستعدة

للحاق به، وتجربة أي شيء تقريباً برفقته، بما في ذلك القفز من الطائرة، بالرغم من أنها بالكاد تعرفه. لكنها شعرت الآن بالذعر مجدداً، فيما جذب وجهها صوبه وقبّلها. الإثارة المطلقة للتواجد معه جعلت القفز أسهل عليها، تماماً مثلما تعلّمت في درسها، قفزت من الطائرة.

لحق بها بلايك بعد ثوانٍ قليلة. أغمضت عينيها، وصرخت بصوت مرتفع فيما حلّقا بحرية لدقيقة، ثم فتحت عينيها، وشاهدته يشير إليها لشدّ الحبل في مظلتها، مثلما علّمها الأستاذان. فجأة، هبطا ببطء نحو الأرض فيما ابتسم لها، ورفع لها إبهامه بفخر. لا تصدّق أنها فعلت ذلك مرتين خلال أسبوع واحد، لكنه شخص فذّ. يستطيع بلايك جعل الأشخاص يفعلون أي شيء يريده تقريباً.

بليندا في الثانية والعشرين من عمرها، وهي عارضة أزياء مشهورة في باريس ولندن ونيويورك. التقت ببلايك في أثناء زيارة أصدقاء في ميامي. جاء من منزله في سان بارتس للقاء زميل له، ووصل في طائرته الجديدة من طراز 737. استأجر طائرة أصغر حجماً وطياراً ليقفزا في الهواء.

بدا بلايك ويليامز خبيراً في كل شيء يفعله. إنه متزلج على الجليد من المستوى الأولمبي، وهو كذلك منذ كان في الجامعة، وتعلّم قيادة طائرته الخاصة، مع وجود طيار مساعد له، نظراً إلى حجم طائرته وتعقيدها. كما أنه بدأ يقفز بالمظلة منذ أعوام. يتمتّع بمعرفة مذهلة في الفن، ويملك إحدى أشهر مجموعات الفن المعاصر والقديم للولايات المتحدة. إنه خبير في الشراب الفرنسي، والهندسة المعمارية، والإبحار، والنساء. يحب الأشياء الراقية في الحياة، ويستمتع بمشاركتها مع النساء اللواتي يخرج برفقتهن. يحمل شهادة ماجستير في إدارة الأعمال من جامعة هارفارد، تخرّج من برينستون. إنه في السادسة والأربعين من عمره، وتقاعد من العمل حين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وكرّس حياته كلها للأهواء الذاتية والمتعة، ومشاركة ذلك مع من هم حوله. إنه كريم على نحو يفوق التصور، حسبما قال أصدقاء بليندا لها. إنه الرجل الذي ترغب كل امرأة بأن

تكون معه؛ فهو غني، وذكي، وحسن المظهر ويكرّس نفسه للمتعة. بالرغم من نجاحه الكبير قبل أن يتقاعد، لم يكن يوماً وضيعاً في تصرفه. كان لقطة القرن، وبالرغم من أن معظم علاقاته في الأعوام الخمسة الأخيرة كانت وجيزة وسطحية، فإنها لم تنتهِ أبداً بطريقة سيئة. فالنساء أحببنه حتى عند انتهاء علاقاتهن السريعة معه. فيما هبطا ببطء فوق جزء مختار بعناية من شاطئ غير مأهول، نظرت إليه بليندا بعينين مليئتين بالإعجاب. لا تستطيع التصديق أنها قفزت من الطائرة معه، لكن هذا هو الشيء الأكثر إثارة الذي فعلته في حياتها. لا تظن أنها ستفعل ذلك مجدداً، لكن فيما أمسكا بيدي بعضهما في الهواء، والسماء الزرقاء حولهما، عرفت أنها ستتذكر بلايك وهذه اللحظة لبقية حياتها.

«هذا ممتع، أليس كذلك؟»، صرخ لها وأومأت له برأسها. لا تزال مرتبكة جداً للتكلم. فقفزتها مع بلايك كانت أكثر إثارة من تلك التي قامت بها مع الأستاذين قبل أيام. بالكاد تستطيع الانتظار لإخبار كل من تعرفه بما فعلته، وخصوصاً مع مَن قامت بذلك.

كان بلايك ويليامز مطابقاً لكل ما قاله الناس عنه. فهو ذو سحر كافٍ لحكم بلاد، كما أنه يملك المال الكافي لفعل ذلك. بالرغم من خوفها الأولي، كانت بليندا تبتسم حين لامست قدماها الأرض بعد دقائق قليلة، وقام الأستاذان بفك مظلتها، فيما هبط بلايك على مسافة بضع أقدام عنها. ما إن تحررا من مظلتيهما، حتى أمسكها بين ذراعيه، وقبّلها مجدداً. كانت قبلاته ساحرة مثل كل شيء آخر فيه.

«كنت مذهلة!»، قال لها، ورفعها عن الأرض، فيما ابتسمت له وضحكت بين ذراعيه. إنه الرجل الأكثر إثارة الذي التقت به في حياتها.

«لا، أنت المذهل! لم أظن أبداً أنني سأفعل شيئاً مثل هذا. إنه الأمر الأكثر جنوناً في حياتي». إنها تعرفه منذ أسبوع واحد فقط.

أخبرها أصدقاؤها قبلاً بعدم التخطيط لإقامة علاقة جدية معه. بلايك ويليامز يخرج مع النساء الجميلات في كل أنحاء العالم. والالتزام بعلاقة

واحدة ليس من صفاته، بالرغم من أنه فعل ذلك ذات مرة. لديه ثلاثة أولاد، وزوجة سابقة يقول إنه مجنون بها، وطائرة، ويخت، ونصف دزينة من المنازل الرائعة. يريد فقط تمضية وقت جيد، من دون الادعاء أنه يرغب بالاستقرار، منذ طلاقه. في الوقت الحاضر على أي حال، لا يريد شيئاً سوى اللهو. نجاحه الباهر في عالم الإنترنت والتكنولوجيا كان أسطورياً، تماماً مثلما كان نجاح الشركات التي استثمر فيها. يملك بلايك ويليامز كل ما يريده، وأصبحت كل أحلامه حقيقة. بينما مشيا بعيداً عن الشاطئ حيث هبطا، نحو سيارة جيب في انتظارهما، وضع بلايك ذراعاً حول بليندا، ودفعها بالقرب منه، ومنحها قبلة طويلة وقوية. إنه يوم ووقت أدركت بليندا أنهما سيبقيان محفورين في ذاكرتها إلى الأبد. ما هو عدد النساء اللواتي يستطعن التبجح بأنهن قفزن من طائرة مع بلايك ويليامز؟ ربما أكثر مما تعرف، بالرغم من أن النساء اللواتي خرجن معه لم يكنّ كلهنّ شجاعات مثل بليندا.

انهمر المطر على نوافذ عيادة ماكسين ويليامز في الشارع 79 الشرقي في نيويورك. إنه أغزر هطول للمطر في نيويورك لشهر نوفمبر منذ أكثر من خمسين عاماً، مع طقس بارد وعاصف وقارس في الخارج، لكن الجو دافئ في العيادة حيث تمضي ماكسين عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة يومياً. الجدران مطلية بالأصفر الباهت، وقد علّقت على الجدران لوحات تجريدية هادئة بألوان باهتة. الغرفة مرحة وجميلة، كما أنّ الكراسي الكبيرة المحشوة بإفراط التي تجلس عليها للتحدث إلى مرضاها بدت مريحة وجميلة. المكتب عصري وعملي، ومنظّم بطريقة فائقة بحيث يبدو وكأنه في وسعك إجراء عملية جراحية فيه. كل شيء في مكتب ماكسين مرتب وشديد الدقة، كانت هي نفسها مرتبة المظهر من دون شعرة واحدة في غير مكانها. تسيطر ماكسين بشكل كامل على كل عالمها. عملت معها سكرتيرتها الموثوقة والفعالة، فيليسيا، لتسعة أعوام تقريباً. تكره ماكسين الفوضى، والاضطراب من أي نوع، والتغيير. كل شيء فيها، وفي حياتها، ناعم ومنظم ومرتب.

الشهادة المعلقة على جدارها تفيد بأنها ذهبت إلى كلية الطب في هارفارد، وتخرجت منها بدرجة امتياز. إنها طبيبة نفسية، وواحدة من أشهر خبراء الصدمات عند الأولاد والمراهقين. لديها خبرة كبيرة في مسائل المراهقين المصابين بانفصام الشخصية والشخصية ثنائية القطبين، وكان انتحار المراهقين أحد اختصاصاتها الفرعية. إنها تعمل معهم ومع عائلاتهم، وتحقق نتائج ممتازة في أغلب الأحيان. ألفت كتابين لقيا نجاحاً باهراً عن تأثير الصدمة في الأولاد الصغار. تتم دعوتها غالباً إلى مدن ودول أخرى لاستشارتها بعد حصول كوارث طبيعية أو مآسٍ من صنع البشر. كانت عضواً في الفريق الاستشاري للأولاد في كولومبين بعد حادثة إطلاق النار في المدرسة، وكتبت مقالات عدة عن تأثيرات 11 سبتمبر، وقدمت النصائح للمدارس الرسمية في نيويورك. في عمر الثانية والأربعين، تعتبر خبيرة في مجالها، وهي محط إعجاب وتقدير من قبل زملائها. اعتذرت عن إلقاء خطابات أكثر مما قبلت. فبين مرضاها، والمشورة التي تقدمها للوكالات المحلية والوطنية والدولية، وعائلتها الخاصة، تبدو أيامها وروزنامتها مليئة.

لطالما حرصت بشكل كبير على تمضية الوقت مع أولادها - دافني ابنة الثالثة عشر ربيعاً، وجاك وهو في الثانية عشرة من عمره، وسام في السادسة من عمره. نظراً إلى كونها أماً مطلقة، واجهت المعضلة نفسها مثل أي أم عاملة، وهي التوفيق بين مسؤوليات عائلتها وعملها. وهي لا تحصل على أي مساعدة تقريباً من زوجها السابق، الذي يظهر عادة مثل قوس قزح، من دون إنذار مسبق ولفترة وجيزة، ليعود ويختفي مجدداً. كل المسؤوليات المرتبطة بأولادها تقع على عاتقها، وعليها وحدها.

جلست تحدق إلى النافذة، وهي تفكر فيهم، منتظرة وصول المريض التالي، حين رنّ الهاتف الداخلي على مكتبها. توقعت ماكسين أن تقول لها فيليسيا إن مريضها، وهو شاب في الخامسة عشرة من عمره، يدخل عبر الباب. إلا أنها قالت لها بدلاً من ذلك إن زوجها على الهاتف. عبست ماكسين عند سماعها العبارة.

«زوجي السابق»، ذكّرتها. تعيش ماكسين مع أولادها لوحدهم منذ خمسة أعوام، وهم يبلون بلاءً حسناً برأيها.

«آسفة، يقول دوماً إنه زوجك... أنسى...». كان ودوداً وساحراً جداً، ويسألها دوماً عن صديقها وحيوانها الأليف. إنه واحد من أولئك الأشخاص الذين لا تستطيع إلا أن تحبهم.

«لا تقلقي، هو ينسى ذلك أيضاً»، علّقت ماكسين بطريقة جافة، وابتسمت فيما رفعت سماعة الهاتف. تساءلت أين هو الآن. لا يمكن التأكد أبداً مع بلايك. مضت أربعة أشهر على رؤيته الأولاد. أخذهم لزيارة أصدقاء في اليونان في شهر يوليو، وهو يعير دوماً ماكسين وأولادهما يخته كل صيف. يحب الأولاد والدهم، لكنهم يعرفون أيضاً أنهم يستطيعون الاعتماد على أمهم، ويعرفون أن والدهم يأتي ويذهب مثل الريح. كانت ماكسين مدركة تماماً أن لديهم قدرة غير محدودة على مسامحته على أخطائه، وكذلك كانت هي، طوال عشرة أعوام. إلا أن انغماسه الكلي في الملذات وافتقاره إلى المسؤولية أضعفاه بالرغم من سحره. «مرحبا بلايك»، قالت له عبر الهاتف، واسترخت على كرسيها. المسافة المحترفة التي تضعها بينها وبينه والسلوك الذي تعتمده عموماً يختفيان فوراً حين تتحدث إليه. فبالرغم من طلاقهما، لا يزالان صديقين جيدين، وبقيا قريبين جداً من بعضهما. «أين أنت الآن؟».

«في واشنطن العاصمة. وصلت من ميامي اليوم. كنت في سان بارتس لمدة أسبوعين». خطرت فوراً في بالها صورة منزلهما هناك. لم تزره منذ خمسة أعوام. إنه أحد الممتلكات العديدة التي تخلّت عنها له طوعاً بعد الطلاق.

«هل ستأتي إلى نيويورك لرؤية الأولاد؟». لا تريد أن تقول له إنه يجدر به فعل ذلك. يعرف الأمر جيداً مثلما تعرفه هي، لكن يبدو دوماً وكأن لديه شيئاً آخر للقيام به. معظم الوقت على أي حال. فبقدر ما يحبهم كثيراً، ولطالما فعل ذلك، يغفرون له ذنوبه، وهم يعرفون ذلك أيضاً. كلهم يحبونه، وهي أيضاً تحبه بطريقتها الخاصة. بدا وكأنه لا يوجد شخص

في العالم لا يحبه، أو على الأقل يستلطفه. ليس لبلايك أعداء، وإنما فقط أصدقاء.

قال باعتذار: «أتمنى لو أنني أستطيع المجيء لرؤيتهم، سأغادر إلى لندن الليلة. لديّ اجتماع هناك غداً مع مهندس معماري. أنا أغيّر هندسة المنزل». ثم أضاف، وهو يبدو مثل ولد صغير ماكر، «اشتريت للتو مسكناً مذهلاً في مراكش. سأطير إلى هناك الأسبوع المقبل. إنه قصر مذهل ورائع».

قالت وهي تهزّ برأسها: «هذا ما تحتاج إليه». إنه غريب. يشتري المنازل أينما ذهب. يغيّر ديكورها بمساعدة مهندسين ومصممين مشهورين، ويحولها إلى متاحف، ثم يشتري شيئاً آخر. يحب بلايك المشروع أكثر مما يحب النتيجة النهائية.

يملك منزلاً في لندن، وآخر في سان بارتس، وواحداً في أسبن، والجزء العلوي من قصر في البندقية، ومنزلاً كبيراً في نيويورك، والآن اشترى منزلاً في مراكش على ما يبدو. تتساءل ماكسين دوماً عما سيفعله في كل ذلك. لكن مهما فعل، عرفت أنه سيكون مذهلاً مثل أي شيء آخر يلمسه. فهو يتمتّع بذوق رفيع، وأفكار جريئة في التصميم. كل منازله رائعة، وهو يملك أحد أكبر اليخوت في العالم، بالرغم من أنه يستعمله لأسابيع قليلة فقط في السنة، ويعيره إلى الأصدقاء كلما استطاع ذلك. في بقية الوقت، يطير حول العالم، أو يقوم برحلات سافاري في أفريقيا، أو يقوم بغزو لمعارض الفنون في آسيا. سافر إلى القارة القطبية الجنوبية مرتين، وعاد مع صور مذهلة للكتل الجليدية والبطارق. لقد تفوّق عالمه منذ وقت طويل على عالمها. إنها راضية بحياتها العادية والمنظمة في نيويورك، بين عيادتها وشقتها المريحة حيث تعيش مع أولادها الثلاثة، في بارك أفنيو والشارع 84 شرقي. تعود من مكتبها إلى منزلها سيراً على القدمين كل ليلة، حتى في يوم كهذا. فالنزهة القصيرة تنعشها بعد الأمور الصعبة التي تستمع إليها طوال اليوم، والأولاد أصحاب المشاكل الذين تعالجهم. يقوم أطباء نفسيون آخرون بتحويل مرضاهم المعرضين

للانتحار إليها في أغلب الأحيان. فالتعاطي مع الحالات الصعبة هو طريقتها في مساعدة العالم، وهي تحب عملها.

«إذاً، ماكس، كيف حالك؟ كيف حال الأولاد؟»، سأل بلايك وهو يبدو مرتاحاً.

قالت بفخر: «إنهم بخير. عاد جاك للعب كرة القدم مجدداً هذه السنة، وهو يبلي بلاءً حسناً». الأمر أشبه بإخبار بلايك عن أولاد شخص آخر. فهو أشبه بعمهم المفضل وليس والدهم. المشكلة أنه كان زوجاً بهذه الطريقة أيضاً. تصعب مقاومته في أي طريقة، لكنه ليس موجوداً أبداً عند وجود شيء صعب لفعله.

في البداية، كان بلايك يؤسس عمله، وبعد كسبه غير المتوقع، لم يعد متواجداً أبداً. إنه موجود دوماً في مكان ما يستمتع بوقته. أرادها أن تتخلى عن مهنتها، لكن ماكسين لم تستطع فعل ذلك. عملت بكدٍّ كبير لتصل إلى حيث هي الآن. لا تستطيع تخيل نفسها بعيداً عن مهنتها، ولا تريد ذلك، بالرغم من أن زوجها أصبح غنياً فجأة. لم تستطع حتى تقبّل كل المال الذي جناه. في النهاية، بالرغم من أنها أحبته، لم يعد في وسعها فعل المزيد. إنهما متناقضان في كل النواحي، فدقّتها الكبيرة تتناقض بشكل واضح مع الفوضى التي يخلّفها. أينما يجلس، تكون هناك كومة كبيرة من المجلات، والكتب، والأوراق، والطعام الذي لم يتم أكله إلا جزئياً، والمشروبات المراقة، وأغشية الفول السوداني، وقشر الموز، وقناني المشروبات الغازية التي لم يتم شربها إلا جزئياً، وأكياس الوجبات السريعة التي نسي أن يرميها. يحمل معه دوماً النسخ النهائية لتصميم منزله الأخير، وتمتلئ جيوبه بالملاحظات بشأن الاتصالات الهاتفية التي يجدر به القيام بها ولا يفعل ذلك أبداً. في النهاية، تضيع الملاحظات. يتصل الناس دوماً وهم يتساءلون أين يكون. إنه لامع جداً في العمل، لكن حياته فوضوية كثيراً. إنه رجل ساحر ورائع ومحبوب. سئمت أن تكون الشخص الناضج الوحيد، خصوصاً بعدما رزقا بالأولاد. بسبب حضوره العرض الأول لفيلم سينمائي، سافر إلى لوس أنجلوس، وفوّت على نفسه ذكرى ميلاد سام. حين قامت مربية أطفال

بترك سام يتدحرج عن طاولة تغيير الحفاضات بعد ثمانية أشهر، وكسر ترقوة وذراعاً، وتعرض لصدمة كبيرة على الرأس، استحال العثور على بلايك في أي مكان. فمن دون إخبار أحد، سافر إلى كابو سان لوكاس لرؤية منزل معروض للبيع، بناه مهندس معماري مكسيكي شهير يحب تصاميمه. أضاع هاتفه الخلوي على الطريق، واحتاج إلى يومين للعثور عليه مجدداً. في النهاية، أصبح سام بخير، لكن ماكسين طلبت الطلاق من بلايك حين عاد إلى نيويورك.

لم تعد الأمور على ما يرام منذ أن جنى بلايك ماله. احتاجت ماكس إلى رجل له صفات أكثر إنسانية، يكون متواجداً معها، لبعض الوقت على الأقل. لكن بلايك لم يكن موجوداً أبداً. قررت ماكسين أنها تستطيع البقاء لوحدها، بدلاً من الصراخ عليه طوال الوقت كلما اتصل، وتمضية ساعات طويلة وهي تحاول تعقّبه حين يحدث خطب معها أو مع الأولاد. أصيب بالذهول حين أخبرته أنها تريد الطلاق، وبكيا. حاول إقناعها بالعدول عن رأيها، لكنها اتخذت قرارها. إنهما يحبان بعضهما، لكن ماكسين أصرّت على أن الزواج ليس ناجحاً معها. لم يعد كذلك. لم يعودا يريدان الأشياء نفسها. كل ما يريده هو اللهو، فيما تحب هي التواجد هنا من أجل أولادها ومن أجل عملها. إنهما مختلفان كثيراً في العديد من النواحي. كان الأمر ممتعاً حين كانا شابين، لكنها نضجت ولم ينضج هو.

«سأحضر إحدى مباريات جاك حين أعود»، وعد بلايك، فيما راقبت ماكسين المطر الغزير المنهمر على نوافذ مكتبها. ومتى سيكون ذلك؟ قالت لنفسها، لكنها لم تلفظ الكلمات. أجاب عن سؤالها غير المطروح. إنه يعرفها جيداً، أفضل من أي شخص آخر في هذا العالم. كان هذا أصعب شيء في فراقهما. كانا مرتاحين جداً مع بعضهما، ويحبان بعضهما كثيراً. ولا يزالان يفعلان ذلك، في العديد من النواحي. بلايك هو عائلتها، وسيكون دوماً كذلك، وأب أولادها. هذا موضوع غير قابل للنقاش بالنسبة إليها. قال لها: «سآتي خلال مناسبة الشكر، بعد أسبوعين»، فتنهدت ماكسين.

«هل يجدر بي إخبار الأولاد أم أنتظر؟». لم تشأ تخييب أملهم. فهو

يبدّل خططه بلمح البصر، ويتركهم مهزومين مثلما فعل معها. ينصرف انتباهه بسهولة. هذا هو الشيء الوحيد الذي تكرهه فيه، خصوصاً حين يؤثر الأمر في أولادهما. لم يكن بحاجة إلى رؤية النظرة في عيونهم حين قالت لهم إن بابا لن يعود أبداً.

لا يتذكر سام أنهم عاشوا كعائلة واحدة، لكنه يحب والده على أي حال. كان عمره سنة واحدة حين تطلقا. اعتاد على الحياة بهذه الطريقة، وهو يعتمد على أمه في كل شيء. أما جاك ودافني فيعرفان والدهما بصورة أفضل، بالرغم من أن ذكرياتهما عن الأيام القديمة أصبحت مشوشة.

«يمكنك إخبارهم بأنني سأكون موجوداً، ماكس. لن أفوّت المناسبة»، وعدها بصوت رقيق. «ماذا عنك؟ هل أنت بخير؟ ألم يظهر فارس الأحلام بعد؟». ابتسمت على السؤال الذي يطرحه دوماً. هناك الكثير من النساء في حياته، لكن ما من واحدة جدية، ومعظمهن صغيرات السن جداً. ولا يوجد رجال أبداً في حياتها. فهي لا تملك الاهتمام أو الوقت.

«لم أواعد رجلاً منذ سنة»، قالت بصدق. لطالما كانت صادقة معه. إنه بمثابة شقيق لها الآن. لا تخفي أسراراً عن بلايك، ولم يعد هو يخفي الأسرار عن أحد لأن معظم ما يقوم به يظهر في الصحافة. إنه موجود دوماً في أعمدة الأقاويل والأخبار الاجتماعية والفنية مع عارضات أزياء، وممثلات، ونجمات روك، ووريثات غنيات، وكل امرأة تصل إليه. واعد أميرة مشهورة لوقت قصير، الأمر الذي أكّد ما اعتقدت به ماكس طوال سنوات. إنه بعيد جداً جداً عن عالمها، يعيش وكأنه على كوكب مختلف عن الكوكب الذي تعيش عليه. إنها الأرض وهو النار.

«لن يقودك ذلك إلى أي مكان»، وبخها. «أنت تعملين بكدّ. لطالما فعلت ذلك».

قالت ببساطة: «أحب ما أقوم به». لم يكن هذا جديداً بالنسبة إليه. لطالما فعلت ذلك. بالكاد استطاع إقناعها لتأخذ يوم إجازة في أيامهما الأولى معاً، وليست أفضل حالاً الآن، بالرغم من أنها تمضي عطلات

نهاية الأسبوع مع الأولاد. هذا تحسن على الأقل. ذهبوا إلى المنزل في ساوثامبتون الذي اشترته هي وبلايك حين تزوجا. تركه لها بعد الطلاق. إنه منزل جميل، لكنه أصبح بسيطاً وعادياً جداً بالنسبة إليه الآن. إنه يلائم ماكسين والأولاد تماماً. إنه منزل عائلي قديم وكبير، قرب الشاطئ.

«هل أستطيع اصطحاب الأولاد لتناول عشاء مناسبة الشكر؟»، سألها بحذر. لطالما احترم مشاريعها، ولم يظهر أبداً ليختفي مع الأولاد. يعرف مقدار الجهد الذي تبذله لتوفير حياة آمنة لهم. إن ماكسين تحب التخطيط مسبقاً.

«لا بأس. سآخذهم إلى منزل أهلي لتناول الغداء». كان والد ماكسين طبيباً أيضاً، جراح عظام، وكان دقيقاً جداً بقدرها. تأثرت فيه بصدق وكان مثالاً رائعاً لها، وهو فخور جداً بعملها. ماكسين هي ابنته الوحيدة، ولم تعمل أمها أبداً. كانت طفولتها مختلفة تماماً عن طفولة بلايك. فقد كانت حياته سلسلة من ضربات الحظ منذ البداية.

فقد تم التكفل ببلايك عند الولادة من قبل زوجين متقدمين في العمر. علم لاحقاً بعد إجراء بعض الأبحاث أن أمه البيولوجية هي فتاة من أيوا كان عمرها خمسة عشر عاماً حين ولدته. كانت متزوجة بشرطي حين ذهب للقائها، وأنجبت أربعة أولاد آخرين. كانت مذهولة قليلاً حين التقت ببلايك. ما من شيء مشترك بينهما، وشعر بالأسف عليها. عاشت حياة صعبة، من دون مال، مع زوج يبقى في حالة يرثى لها. أخبرته أن والده البيولوجي هو رجل وسيم وجذاب، كان عمره سبعة عشر عاماً حين ولد بلايك. قالت إن والده مات في حادث سيارة بعد شهرين من تخرجه، لكنه لم يكن ينوي الزواج بها على أي حال. لذا، قام أجداد بلايك المتشددون بإجبار أمه على عرض الطفل للتكفل بعدما أمضت أشهر حملها في بلدة أخرى. أما والداه بالتكفل فكانا لطيفين وطيّبين. عمل الرجل كمحامي ضرائب في وول ستريت في نيويورك، وعلّم بلايك مبادئ الاستثمار السليم. حرص على إرسال بلايك إلى برينستون ومن ثم إلى هارفارد لنيل شهادة الماجستير في إدارة الأعمال. أما المرأة التي ربّته فقد أنجزت عملاً تطوعياً وعلّمته

أهمية ردّ الجميل للعالم. تعلّم هذين الدرسين جيداً، وها هي مؤسسته تدعم العديد من الجمعيات الخيرية. يحرّر بلايك الشيكات للجمعيات بالرغم من أنه لا يعرف أسماء معظمها.

دعمه أهله بالتكفل بقوة لكنهما ماتا مباشرة بعد زواجه بماكسين. أسف بلايك لأنهما لم يعرفا أولاده أبداً. كانا شخصين رائعين، وحنونين، ومخلصين. لم يبقيا أيضاً على قيد الحياة لرؤية تجاحه الصاروخي. يتساءل أحياناً كيف كانا سيتفاعلان مع طريقة عيشه الحالية، ويقلق بين الحين والآخر، في وقت متأخر من الليل، من عدم موافقتهما على هذا النمط من الحياة. إنه يدرك تماماً كم هو محظوظ، وكم دلل نفسه، لكنه يستمتع بكل شيء يقوم به، ويصعب عليه الآن العودة إلى الخلف. فقد اعتمد طريقة عيش تمنحه المتعة والسرور، وهو لا يؤذي أحداً. يرغب برؤية أولاده أكثر، لكن يبدو نوعاً ما أنه لا يوجد وقت كافٍ لذلك. إنه يعوّض عليهم حين يراهم، بطريقته الخاصة، يصبح والدهم الحلم أمامهم. يستطيعون فعل أي شيء يريدونه، وهو قادر على تدليلهم وتلبية كل رغباتهم بطريقة يعجز عنها أي شخص آخر. ماكسين هي الأم الصارمة والمرتبة التي يعتمدون عليها، فيما هو الغرابة والمرح. كان هكذا بالنسبة إلى ماكسين أيضاً نوعاً ما، حين كانا شابين. لكن كل شيء تغير حين نضجا. أو بالأحرى، هي نضجت بينما بقي هو عديم المسؤولية.

من ثم سأل ماكس عن حال أهلها. لطالما كان مولعاً بوالدها. كان رجلاً جدياً ويعمل بكدّ، كما أنه صاحب قيم جيدة وأخلاق رزنية، بالرغم من أنه يفتقر إلى المخيلة. إنه بطريقة ما نسخة أكثر صرامة عن ماكسين. بالرغم من الاختلاف الكبير في أسلوبهما وفلسفتهما بشأن الحياة، اتفق جيداً مع بلايك. لطالما مازح والدها بلايك بالقول عنه إنه نذل. يحب بلايك ذلك حين يناديه بهذه الطريقة. يبدو له هذا جذاباً ومثيراً جداً. لكن خاب أمل والد ماكس في الأعوام الأخيرة لأن بلايك لم يعد يرى أولاده، بالرغم من إدراكه أن ابنته تعوّض جيداً عن ذلك حين يقصّر بلايك، وأسف لأنها تتحمل مسؤولية كل شيء لوحدها.

«إذاً، أراك ليلة مناسبة الشكر»، قال بلايك فيما أنهى الاتصال. «سأتصل بك صباح ذلك اليوم وأخبرك عن وقت وصولي. سأطلب من اختصاصي في تحضير الطعام القدوم لتحضير العشاء. يمكنك الانضمام إلينا»، قال بكرم وأمل أن تفعل ذلك. لا يزال يستمتع بصحبتها. لم يتغير أي شيء، ولا يزال يعتبرها امرأة مذهلة. تمنى فقط أن تسترخي وتستمتع أكثر. رأى أنها أفرطت في الالتزام بمبدأ العمل المتزمت.

رنّ جرس هاتفها الداخلي على الخط الثاني فيما كانت تودع بلايك عبر الهاتف. لقد وصل مريض الساعة الرابعة، وهو شاب في الخامسة عشرة من عمره. أقفلت السماعة، وفتحت باب مكتبها، فيما دخل مريضها. جلس على أحد الكرسيين الكبيرين قبل أن ينظر إليها مباشرة ويقول لها مرحباً.

قالت بارتياح: «مرحباً، تيد، كيف الحال؟». هزّ كتفيه فيما أغلقت الباب، وبدأت جلستهما. لقد حاول شنق نفسه مرتين. أدخلته المستشفى لمدة ثلاثة أشهر، وأصبح أفضل حالاً بعد مرور أسبوعين على وجوده في المنزل. بدأ يكشف عن ملامح شخصية ثنائية القطبين حين كان في الثالثة عشرة من عمره. إنها تعاينه ثلاث مرات أسبوعياً، ويذهب مرة في الأسبوع للانضمام إلى مجموعة مراهقين حاولوا الانتحار قبلاً. إنه يبلي بلاءً حسناً، وأقامت ماكسين علاقة جيدة معه. يحبها مرضاها كثيراً. لديها طريقة رائعة في التعاطي معهم، وهي تهتم لأمرهم كثيراً. إنها طبيبة جيدة وإنسانة طيبة.

دامت الجلسة خمسين دقيقة، استراحت بعدها لعشر دقائق، نجحت خلالها في إجراء اتصالين هاتفيين، وبدأت جلستها الأخيرة لليوم مع فتاة في السادسة عشرة من عمرها تعاني من الأنوركسيا. إنه كالمعتاد يوم طويل وشاق ومثير، يتطلّب الكثير من التركيز. أجرت بعد ذلك بقية اتصالاتها، وعند الساعة السادسة والنصف كانت تعود سيراً على القدمين إلى المنزل تحت المطر وهي تفكّر في بلايك. سُرّت لأنه سيأتي خلال مناسبة الشكر، وعرفت أن أولادهما سيتحمسون كثيراً. تساءلت ما إذا كان ذلك يعني عدم

قدومه لرؤيتهم خلال عطلة الميلاد. قد يرغب باللقاء بهم في أسبن. فهو يمضي نهاية العام هناك عادة. مع كل خياراته ومنازله الجميلة، تصعب معرفة أين سيكون في أي وقت. الآن، مع إضافة المغرب إلى اللائحة، قد يصعب تعقبه أو تقفي أثره. لا تعارضه في ذلك، فهذه هي طريقته، حتى لو كانت تغيظها أحياناً. ما من خبث لديه، ولكن ما من حس للمسؤولية أيضاً. يرفض بلايك النضوج. من الممتع التواجد معه، طالما أنك لا تتوقع أبداً الكثير. يفاجئهم بين الحين والآخر، وينجز شيئاً رائعاً فعلاً، ثم يعود للاختفاء مجدداً. تساءلت ما إذا كانت الأمور ستختلف لو أنه لم يجنِ الثروة التي جناها في عمر الثانية والثلاثين. فقد غيّر ذلك حياته وحياتهم إلى الأبد. تمنت تقريباً لو أنه لم يجنِ كل هذا المال من عمله في مجال الإنترنت. كانت حياتهما حلوة معاً قبلاً. لكن، تبدّل كل شيء مع المال.

التقت ماكسين ببلايك حين كانت طبيبة مناوبة في مستشفى ستانفورد. كان يعمل في سيليكون فالي، في عالم الاستثمارات التكنولوجية. كان يخطط لتأسيس شركته الخاصة حينها، ولم تفهم الأمر جيداً أبداً، لكنها ذهلت بطاقته الكبيرة وشغفه بالأفكار التي يطورها. التقيا في حفلة لم تكن ترغب بالذهاب إليها، لكن صديقتها أصرّت على اصطحابها معها. كانت تعمل في قسم الصدمات لمدة يومين متتاليين، وكانت نصف نائمة ليلة التقيا. أيقظها بلايك بضربة قوية. أخذها في اليوم التالي للتحليق في طائرة مروحية، وحلّقا فوق الخليج، وتحت جسر غولدن غيت. كان التواجد معه حماسياً كثيراً، واشتعلت علاقتهما بعد ذلك مثل نار الغابة في الرياح القوية. تزوجا خلال أقل من سنة. كانت في السابعة والعشرين من عمرها حين تزوجا، وكانت سنة عاصفة جداً. فبعد عشرة أشهر من زواجهما، باع بلايك شركته بثروة طائلة. البقية تاريخ. كسب المزيد من المال، من دون أي جهد ظاهر. أراد المجازفة في كل شيء، وكان عبقرياً فعلاً في ما يقوم به. ذهلت ماكسين ببصيرته القوية، وبراعته، وذكائه الحاد.

حين ولدت دافني، بعد سنتين من زواجهما، جنى بلايك مقداراً غير مسبوق من المال، وأراد أن تتخلى ماكس عن مهنتها. لكنها أصبحت

بدلاً من ذلك رئيسة قسم في وحدة الطب النفسي للمراهقين، وأما لدافني، ووجدت نفسها متزوجة بأحد أغنى الرجال في العالم. هذا كثير لاستيعابه والتكيف معه. نتيجة إنكارها أو ثقتها المفرطة بقدرة إرضاع طفلتها على الحؤول دون حملها، حملت بجاك بعد ستة أسابيع من ولادة دافني. وحين ولد الطفل الثاني، كان بلايك قد اشترى المنزل في لندن وواحداً آخر في أسبن، وطلب اليخت، وانتقلوا للعيش في نيويورك. تقاعد من العمل بعد فترة وجيزة. وحتى بعد ولادة جاك، لم تتخلَّ ماكسين عن مهنتها. كانت إجازة الأمومة أقصر من رحلات بلايك، علماً أنه كان يسافر إلى كل أرجاء العالم حينها. استخدموا مربية للعيش معهم، وعادت ماكسين إلى العمل.

كان غريباً أن تعمل هي فيما بلايك لا يعمل، لكن الحياة التي عاشها أخافتها. فقد كانت سريعة وجريئة ومتهورة بالنسبة إليها. وفيما فتحت ماكسين عيادتها الخاصة، ووقّعت على مشروع أبحاث مهم حول صدمات الطفولة، استخدم بلايك أهم مهندس ديكور في لندن لتنسيق منزلهم، ومهندساً آخر للاهتمام بمنزل أسبن، واشترى منزلاً في سان بارتس كهدية لها في الميلاد، وطائرة لنفسه. رأت ماكسين أن الأمور تحصل بسرعة كبيرة جداً، وبعد ذلك، لم تتباطأ الوتيرة أبداً. أصبح لديهما منازل، وطفلان، وثروة هائلة، وكان بلايك على أغلفة مجلتي نيوزويك وتايم. استمر في القيام بالاستثمارات، التي استمرت في زيادة أمواله أضعافاً وأضعافاً، لكنه لم يعد أبداً للعمل بطريقة منطقية. فمهما فعل، كان يتدبّر أموره عبر الكمبيوتر والهاتف. في النهاية، بدا أن زواجهما وحياتهما أصبحا يتمّان عبر الهاتف أيضاً. كان بلايك محباً كثيراً في أثناء تواجدهما مع بعضهما، لكنه لم يكن موجوداً معظم الوقت.

في مرحلة ما، فكّرت ماكسين في التخلي عن العمل، وتحدثت إلى والدها بشأن ذلك. لكنها استنتجت في النهاية أنه لا جدوى من ذلك. ماذا ستفعل حينها؟ التحليق معه من منزل إلى آخر، والمكوث في فنادق في المدن الأخرى التي لا يملكون فيها منازل، أو الذهاب معه في العطلات المذهلة التي يقوم بها، في رحلات سافاري إلى أفريقيا، أو تسلق الجبال

فـي الهيمالايـا، أو تمويـل حفريات علماء الآثار، أو سباق اليخوت؟ ما من شيء يعجز بلايك عن القيام به، أو بالأحرى يخشى القيام به. يريد فعل، وتجربـة، وتـذوق وامتـلاك كل شيء. لم تتخيل نفسهـا وهي تجرّ طفلين معهـا إلـى معظـم الأماكن التي يذهب إليها، ولذلـك بقيت معظم الوقت مع الولديـن فـي نيويورك، ولم تستطع أبـداً إقناع نفسها بضرورة التخلي عن العمل. فكل ولد حاول الانتحار، أوكل طفل تعرض للصدمة، أقنعها بوجود حاجة إلى ما تقوم به. فازت بجائزتين مهمتين على أبحاثها، وشعرت أحياناً أنها مصابة بالفصام وهي تحاول التوفيق بين زوجها في حياته المتنقلة بين البندقية، وسردينيا، وسان موريتز، وبين دار الحضانة لاصطحاب ولديها في نيويورك، وبين العمل على مشاريع أبحاث نفسية وإلقاء المحاضرات. كانـت مسؤولـة عن حياة ثلاثـة أشخاص دفعة واحدة. وفي النهاية، توقف بلايـك عـن توسلهـا للذهاب معه، وأذعن لفكرة السفر لوحده. لم يعد قادراً علـى الجلوس ساكناً، وأصبح العالم رهن إشارته، وغير كبير كفاية ليتسع لـه. أصبـح زوجـاً ووالداً غائباً بيـن ليلة وضحاها، فيمـا حاولت ماكسين الإسهام في تحسين حياة المراهقين والأولاد الصغار الذين حاولوا الانتحار وتعرضـوا للصدمـات، وحياة ولديهما. أصبحت حياتها بعيدة جداً عن حياة بلايك. مهما أحبا بعضهما قبلاً، بقي ولداهما الجسر الوحيد الرابط بينهما.

فـي السنـوات الخمس التالية، عاشا حياتين منفصلتين، والتقيا لفترات وجيزة في أنحاء العالم، متى وأينما يلائم بلايك، ثم حملت بالصغير سام. كان ذلـك قـد حصـل حين التقيا خلال عطلـة نهاية أسبوع في هونغ كونغ، مباشـرة بعـد لقاء بلايك بأصدقائه فـي النيبال. كانت ماكسين قد فازت للتو بمنحـة لبحث جديد حـول الأنوركسيا عند الفتيات الصغيرات. اكتشفت أنها حامـل، ولـم تتحمس هذه المـرة على عكس المرتيـن السابقتين. إنه شيء إضافـي عليهـا التعايـش معه، طفل إضافي لتعتني به لوحدها، قطعة إضافية مـن أحجيـة معقـدة جداً وكبيرة جداً. لكن بلايـك كان مسروراً كثيراً. قال إنه يريد نصف دزينة من الأولاد، وهذا غير منطقي بالنسبة إلى ماكسين. فهـو بالـكاد يرى الولديـن اللذين أنجبهما. كان جاك في السادسة من عمره

ودافنـي فـي السابعة حين ولد سام. فـوّت بلايك حضور الولادة، ووصل في اليوم التالي مع علبة من هاري وينستون في يده. أهدى ماكسين خاتماً زمرديـاً 30 قيراطـاً، وكان مذهـلاً، لكن لم يكن هذا ما تريده منه. فضلت بدلاً من ذلك تمضية المزيد من الوقت معه. اشتاقت إلى أيامهما الأولى في كاليفورنيا، حين كانا يعملان وكانا سعيدين، قبل أن يحقق أرباحاً طائلة في مجال الإنترنت الذي غيّر حياتهما بطريقة جذرية.

حيـن وقـع سام عن طاولة تبديل الحفاضات بعد ثمانية أشهر، وكسر ذراعـه وأصـاب رأسه، لم تستطع العثور على والده طوال يومين. وحين عثـرت عليـه أخيـراً، فـي كابو، كان فـي طريقه إلى البندقيـة للبحث عن قصور ومحاولة شراء واحد كمفاجأة. في تلك المرحلة، سئمت المفاجآت، والمنـازل، والمهندسيـن، والمزيد من المنازل التي يعجزون عن زيارتها كلهـا. لطالمـا أراد بلايك لقاء أشخاص جدد، أو الذهاب إلى أمكنة جديدة، أو اكتسـاب أعمـال جديـدة أو الاستثمار فيها، أو مغامرات جديدة للشروع فيهـا. أصبحـت حياتاهمـا منفصلتين جداً في ذلك الحيـن، لدرجة أنه عندما عـاد بلايـك بعدمـا أخبرته عـن حادثة سام، انفجرت في البـكاء حين رأته وقالـت إنهـا تريـد الطلاق. هذا كثير. بكت بقوة بين ذراعيه وقالت إنها لم تعد تستطيع تحمّل المزيد.

اقتـرح عليهـا بهدوء «لماذا لا تتوقفين عن العمل؟ أنت تعملين كثيراً. ركّـزي فقـط علـيّ وعلى الأولاد. لمَ لا نحصل على المزيد من المساعدة، وتستطيعيـن أنـت السفـر معي». لم يأخذ طلبها للطلاق على محمل الجد في البداية. إنهما يحبان بعضهما. لمَ يريدان الطلاق؟

قالـت بيأس وهي تدفن رأسها في صدره: «إذا فعلت ذلك، فلن أرى أبـداً أولادي، مثلمـا تفعـل أنـت الآن. متى جئت إلـى المنزل لآخر مرة وأمضيـت فيـه أكثـر مـن أسبوعين؟». فكّر في الأمر وبـدا بلا تعبير. إنها محقة، بالرغم من أنه شعر بالإحراج من الاعتراف بذلك.

«ماكس، لا أعرف. لم أفكّر أبداً بهذه الطريقة».

«أعرف أنك لا تفعل». بكت أكثر ومسحت أنفها. «لم أعد أعرف أين تكون. لم أستطع العثور عليك طوال أيام حين تعرض سام للحادث. ماذا لو مات؟ أو متّ أنا؟ لا يمكنك أن تعرف».

«آسف صغيرتي، سأحاول البقاء على اتصال بكم. تصوّرت فقط أنك تسيطرين على كل شيء». كان مسروراً بتحميلها كل المسؤولية فيما هو يلهو.

«أنا أسيطر فعلاً. لكنني سئمت من فعل ذلك لوحدي. بدلاً من أن تطلب مني التخلي عن مهنتي، لِمَ لا تتوقف أنت عن السفر كثيراً وتبقى في المنزل؟». لم تأمل كثيراً في ذلك، لكنها حاولت.

«نملك الكثير من المنازل الرائعة، وهناك الكثير من الأمور التي أريد أن أقوم بها». لقد وفّر للتو الدعم لمسرحية في لندن، ألفها كاتب شاب دعمه طوال عامين. أحب أن يكون عرّاباً للفنون، أكثر من المكوث في المنزل. أحب زوجته وعشق أولاده، لكنه يسأم من البقاء في نيويورك. نجحت ماكسين طوال ثمانية أعوام في التكيف مع التبدلات في ظروفهما، لكنها لم تعد تستطيع تحمل المزيد. أرادت الاستقرار والحياة الثابتة التي بات بلايك يكرهها الآن. يحب هو دفع الأطراف الخارجية للظرف حتى لا يبقى أي ظرف على الإطلاق. حدد مصطلح الروح الحرة بطرائق لم تتوقعها ماكسين أبداً. وبما أنه لم يعد موجوداً أبداً، ولا تسمع عنه شيئاً معظم الوقت، تصورت أنها تستطيع القيام بالأمر لوحدها. بات يصعب عليها أكثر فأكثر إقناع نفسها بأنها متزوجة، وتستطيع الاعتماد عليه في كل شيء. لكنها أدركت أخيراً أنها لا تستطيع ذلك. أحبها بلايك، لكنه كان غائباً بنسبة خمسة وتسعين بالمئة من الوقت. لديه حياته، واهتماماته، ومشاريعه الخاصة التي لم يعد لها أي مكان فيها.

هكذا، تطلّقت وبلايك قبل خمسة أعوام، بدموع وندم، وإنما بطريقة حضارية. أعطاها الشقة في نيويورك والمنزل في ساوثامبتون، وكان ليعطيها منازل أكثر لو أرادت، لكنها لم ترد ذلك، وعرض عليها مبلغاً يصدم أي شخص. شعر بالذنب لأنه كان زوجاً ووالداً غائباً خلال الأعوام

الأخيرة، لكن توجب عليه الاعتراف أن الأمر يلائمه تماماً. كره الاعتراف بذلك، لكنه شعر وكأنه مسجون داخل علبة كبريت، ويكتفي بالحياة التي تعيشها ماكسين في نيويورك.

رفضت المبلغ المالي، واكتفت بأخذ المبلغ المخصص لأولادهما. تجني ماكسين أكثر مما يلزم من مهنتها لتعيل نفسها، ولذلك لا تريد أي شيء منه. وهي تعتبر أن هذا هو مال بلايك وليس مالها. لم يصدق أحد من أصدقائه أنها كانت عادلة إلى هذا الحد. لم يجريا اتفاقاً قبل الزواج لحماية أصوله، لأنه لم يكن يملك شيئاً حين التقيا. لا تريد أن تأخذ أي شيء منه، لأنها أحبته وتريد الأفضل له وتتمنى له الخير. كل هذه العوامل جعلته يحبها أكثر في النهاية، وبقيا صديقين حميمين. لطالما قالت ماكسين إنه مثل شقيقها التائه، وبعد صدمتها إزاء مسألة خروجه برفقة فتيات، ومعظمهن في نصف عمره، أو عمرها، أصبحت تنظر إلى المسألة من منطلق فلسفي. همها الوحيد أن يكنّ لطيفات مع أولادها.

لم تتورط ماكسين في أي علاقة جدية منذ تركته. فمعظم الأطباء والأطباء النفسيين الذين التقت بهم كانوا متزوجين، واقتصرت حياتها الاجتماعية على أولادها. خلال الأعوام الخمسة الماضية، كانت منهمكة جداً بأمور عائلتها وبعملها. واعدت رجالاً التقت بهم بين الحين والآخر، لكنها لم تغرم بأحد بعد بلايك. كان نموذجاً صعباً. إنه والد غير مسؤول، وغير موثوق به، وغير منظم، وغير ملائم بالرغم من كل نواياه الجيدة، وهو زوج خسيس في النهاية، لكن ما من رجل على الأرض، برأيها، أكثر لطافة واحتراماً وطيبة ومرحاً منه. تمنت غالباً أن تكون لديها الشجاعة لتتصرف بحرية مثله. لكنها احتاجت إلى النظام، والأساس المتين، والحياة المنظمة، ولم تكن لديها الميول نفسها، أو الجنون نفسه، مثل بلايك لتحقق أحلامها الأكثر غرابة. كانت تحسده أحياناً على ذلك.

ما من شيء في العمل أو الحياة محفوفاً بالكثير من المخاطر بالنسبة إلى بلايك، ولهذا السبب حقق نجاحاً كبيراً. لا بد من امتلاك الشجاعة لفعل ذلك، وامتلك بلايك وبلايامز ما يكفي منها. شعرت ماكسين أنها أشبه

بفأرة مقارنة به. فبالرغم من أنها كانت امرأة مميزة هي الأخرى، كانت إنسانة أكثر واقعية. من المؤسف أن زواجهما لم ينجح. كانت ماكسين مسرورة كثيراً لأنهما أنجبا الأولاد. إنهم متعة حياتها ومحورها، وكل ما تحتاج إليه في الوقت الحاضر. في الثانية والأربعين من عمرها، لم تكن متحمسة للعثور على رجل آخر. لديها عمل جيد، ومرضى تهتم لأمرهم كثيراً، وأولاد رائعون. هذا كافٍ في الوقت الحاضر، لا بل أكثر من كافٍ أحياناً.

رفع الحارس قبعته فيما دخلت ماكسين المبنى في بارك أفنيو، على بُعد خمسة مبانٍ من عيادتها. إنه مبنى قديم مع غرف كبيرة، تم تشييده قبل الحرب العالمية الثانية. كانت مبللة من رأسها حتى أخمص قدميها من المطر. فالرياح قلبت مظلتها رأساً على عقب ومزقتها بعد عشر خطوات من مكتبها، ورمتها بعيداً. كان معطفها مبللاً، وشعرها الأشقر الطويل، الذي تربطه إلى الخلف في جديلة مرتبة حين تعمل، كان ملتصقاً برأسها. لم تتبرّج في ذلك اليوم فبدا وجهها نضراً وشاباً ونظيفاً. هي طويلة القامة ونحيلة، وتبدو أصغر من عمرها، ولطالما أشار بلايك إلى أنها صاحبة ساقين مذهلتين، بالرغم من أنها نادراً ما تكشف عنهما بارتداء التنانير القصيرة، فهي ترتدي عادة السراويل خلال العمل والجينز في عطلات نهاية الأسبوع. لم تكن امرأة انتهازية تعتمد على جمال جسدها لتعجب الآخرين. كانت رزينة ومحتشمة، ولطالما مازحها بلايك بالقول إنها تذكّره بلويس لاين. كان ينزع عن عينيها النظارة التي تضعها حين تجلس أمام الكمبيوتر، ويرخي شعرها الطويل بلون القمح، فتبدو فوراً جذابة رغماً عنها. ماكسين امرأة جميلة، أنجبت من بلايك ثلاثة أولاد وسيمين. شعر بلايك داكن فيما شعرها فاتح، وعيناه زرقاوان تماماً مثل عينيها. بالرغم من أنها طويلة القامة، بطول ست أقدام وأربعة إنشات، فهو أطول منها بكثير. كانا ثنائياً لافتاً للنظر. ورث كل من دافني وجاك الشعر الأسود عن والدهما والعينين الزرقاوين عنهما معاً، فيما شعر سام أشقر مثل شعر أمه، وهو ذو عينين خضراوين مثل عيني جده. إنه ولد جميل، ولا يزال

صغيراً كفاية ليرغب الجميع بمعانقته ولا سيما أمه.

دخلت ماكسين المصعد، وقطرات الماء على قدميها. وصلت إلى الشقة، واحدة من شقتين فقط في الطابق. تقاعد مالكو الشقة الأخرى وانتقلوا إلى فلوريدا قبل أعوام، ولا يأتون إلى هنا أبداً، ولذلك لا تحتاج ماكسين والأولاد إلى القلق كثيراً بشأن الضجيج، وهذا أمر جيد، مع ثلاثة أولاد تحت سقف واحد، بينهما صبيان.

استطاعت سماع الموسيقى العالية تصدح فيما خلعت معطفها في الردهة الأمامية، ولفّته حول حامل المظلات. خلعت حذاءها هناك أيضاً، وكانت قدماها مبللتين، وضحكت حين شاهدت صورتها في المرآة. بدت مثل جرذ مبلل، مع وجنتين ورديتين من شدة البرد.

«ماذا فعلت؟ سبحت في المنزل؟»، سألتها زيلدا، المربية، حين شاهدتها في الردهة. كانت تحمل كدسة من الغسيل النظيف بين ذراعيها. إنها معهم منذ ولادة سام وهي بمثابة هدية بالنسبة إليهم جميعاً. «لماذا لم تستقلّي سيارة أجرة؟».

قالت ماكسين، وهي تبتسم لها: «كنت بحاجة إلى الهواء». لزيلدا وجه دائري وممتلئ، وتصفف شعرها في ضفيرة غليظة، وهي بعمر ماكسين تقريباً. لم تتزوج أبداً، وعملت كمربية منذ كانت في الثامنة عشرة من عمرها. لحقتها ماكسين إلى المطبخ، حيث كان سام يرسم على طاولة المطبخ، وهو يرتدي ثياب نوم نظيفة بعد الاستحمام. أعطتها زيلدا بسرعة كوب شاي. تشعر دوماً بالارتياح عند العودة إلى المنزل، والتأكد من أن كل شيء تحت السيطرة. تماماً مثل ماكس، كانت تهتم للنظافة بطريقة مهووسة، وأمضت حياتها وهي تنظف وراء الأولاد، وتطهو لهم، وتأخذهم بالسيارة إلى كل مكان حين تكون أمهم في العمل. تتولى ماكسين المهمة خلال عطلات نهاية الأسبوع. تكون زيلدا في إجازة مبدئياً، وتحب الذهاب إلى المسرح حين تستطيع ذلك، لكنها تبقى عادة في غرفتها، تسترخي وتقرأ. إنها مخلصة تماماً للأولاد وأمهم. إنها مربيتهم منذ اثني عشر عاماً وأصبحت جزءاً من العائلة. لا تهتم كثيراً لبلايك الذي تعتبره

وسيماً ومدللاً، ووالداً خسيساً للأولاد. لطالما شعرت أنهم يستحقون منه أفضل مما حصلوا عليه، ولا تستطيع ماكسين القول لها إنها غير محقة. لقد أحبته. لكن زيلدا لم تفعل.

كان المطبخ مزخرفاً بالأخشاب المبيّضة، مع رفوف من الغرانيت قشدية اللون وأرضية من الخشب المتين. إنها غرفة حميمة يجتمعون كلهم فيها، وفيها أريكة وتلفاز، حيث تشاهد زيلدا المسلسلات والبرامج الحوارية. وهي تقتبس بعض العبارات منها، كلما أتيحت لها الفرصة.

قال سام: «مرحبا أمي»، وهو منكبّ على العمل مع قلم أرجواني، فيما نظر إلى أمه وهي تدخل.

«مرحبا حبيبي. كيف كان يومك؟». قبّلت أعلى رأسه، وعبثت بشعره.

«جيد. تقيأت ستيفي في المدرسة»، قال بطريقة بديهية وهو يستبدل القلم الأرجواني بآخر أخضر. كان يرسم منزلاً، وراعي بقر وقوس قزح. لم تلاحظ ماكسين أي شيء في الرسم، وكان ولداً طبيعياً وسعيداً. اشتاق إلى والده أقل من الآخرين، لأنه لم يعش أبداً معه. كان أخوه وأخته أكثر إدراكاً لخسارتهما.

«هذا مؤسف»، علّقت ماكسين على المسكينة ستيفي. أملت أن يكون السبب شيئاً تناولته، وليس نوعاً جديداً من الانفلونزا يتفشى في المدرسة. «هل أنت بخير؟».

«نعم»، أومأ سام برأسه، فيما نظرت زيلدا إلى الفرن، وتحققت من العشاء، ودخلت دافني المطبخ. إنها في الثالثة عشرة من عمرها، وبدأ جسمها ينضج ويكشف عن منحنيات جديدة، وقد أصبحت في الصف الثامن. إنهم يدرسون جميعاً في دالتون، وأحبت ماكسين المدرسة.

«هل أستطيع استعارة كنزتك السوداء؟»، سألت دافني، وأخذت قطعة من تفاحة كان سام يأكلها.

«أي واحدة؟». نظرت إليها ماكسين بحذر.

«تلك التي يوجد فرو أبيض عليها؟ تقيم إيما حفلة الليلة»، قالت دافني بطريقة لامبالية، وهي تحاول أن تبدو وكأنها لا تهتم، لكن بدا جلياً لأمها أنها تهتم كثيراً. إنه يوم الجمعة، وباتت هناك حفلات في كل عطلة نهاية أسبوع تقريباً في الآونة الأخيرة.

«إنها كنزة مبالغ فيها قليلاً بالنسبة إلى حفلة عند إيما. أي نوع من الحفلات هي؟ شباب؟».

«ممم... نعم... ربما...»، قالت دافني وابتسمت ماكسين. «ربما»، برأيي، قالت لنفسها. تدرك تماماً أن دافني تعرف كل التفاصيل. وهي تحاول التأثير في أحدهم، وهو على الأرجح شاب في الصف الثامن، عبر استعارة كنزة فالنتينو الجديدة الخاصة بماكسين.

«ألا تظنين أن هذه الكنزة كبيرة جداً عليك؟ ما رأيك بشيء آخر؟». فهي لم ترتدِ هذه الكنزة بعد. كانت تقدم لها الاقتراحات حين دخل جاك وهو لا يزال ينتعل حافظات النعل. صرخت زيلدا لحظة رأتهما وأشارت إلى قدميه.

«أبعدها عن الأرض. انزعها الآن!»، أمرته، فيما جلس على الأرض ونزعها مبتسماً ابتسامة عريضة. تبقيهم زيلدا جميعاً في مظهر مرتب، ولا داعي أبداً للقلق بشأن ذلك.

«لم تلعب اليوم، أليس كذلك؟»، سألت ماكسين فيما انحنت لتقبيل ابنها. فهو يمارس الرياضة أو يتسمّر أمام الكمبيوتر. إنه خبير الكمبيوتر في العائلة، ويساعد دوماً ماكسين وأخويه في ذلك. ما من مشكلة ترهبه، ويستطيع حلها كلها بسهولة.

«لقد ألغوا المباراة بسبب المطر».

«تصورت أنهم سيفعلون ذلك». وبما أنهم كانوا موجودين جميعاً، أخبرتهم عن مشاريع بلايك لمناسبة الشكر. «يريدكم جميعاً أن تتناولوا العشاء معه ليلة مناسبة الشكر. أظن أنه سيأتي إلى هنا لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. يمكنكم البقاء عنده إذا أردتم»، قالت بطريقة عفوية. حضّر

لهم بلايك غرفاً رائعة في منزله الواقع في الطابق الخمسين، ذي الطابع الزاخر بالفن العصري المذهل وأحدث معدات الستيريو والفيديو. تطلّ غرفهم على منظر رائع للمدينة، مع قاعة سينما منزلية حيث يستطيعون مشاهدة الأفلام، وغرفة ألعاب مع طاولة بلياردو وكل أنواع الألعاب الإلكترونية. فهم يحبون البقاء عنده.

«هل ستأتين أنت أيضاً؟»، سأل سام وهو ينظر إليها. فهو يفضل الأمر أكثر حين تكون موجودة. والده غريب بالنسبة إليه في نواحٍ عدة، وهو يسعد عند وجود أمه بقربه. نادراً ما يمضي الليل عند والده، بالرغم من أن جاك ودافني يفعلان ذلك.

«قد أذهب لتناول العشاء، إذا أردتني أن أفعل ذلك. سنذهب لتناول الغداء عند الجدة والجد، ولذلك سأكون متخمة من الديك الرومي. ستمضي وقتاً جميلاً مع والدك».

«هل سيحضر معه صديقة؟»، سأل سام، وأدركت ماكسين أنْ لا فكرة لديها عن هذا الأمر. غالباً ما تكون هناك نساء برفقة بلايك حين يرى الأولاد. إنهن دوماً نساء شابات، ويستمتع الأولاد أحياناً بصحبتهن، بالرغم من أنها تعرف تماماً أنهم يجدون مجموعته من النساء متطفلة، ولا سيما دافني، التي تحب أن تكون الأنثى الأكثر أهمية في حياة والدها. تراه رائعاً فعلاً. وهي لا تتفق كثيراً مع أمها هذه الأيام، وهو أمر طبيعي بالنسبة إلى فتاة في مثل عمرها. فقد رأت ماكسين فتيات مراهقات كرهن أمهاتهن. يختفي هذا الشعور مع الوقت، ولذلك ليست قلقة بشأنه بعد.

«لا أعرف إذا كان سيحضر أحداً أم لا»، قالت ماكسين، فيما أصدرت زيلدا صوتاً ينمّ عن عدم الموافقة من أمام الفرن.

«آخر امرأة كانت تافهة حقيقية»، قالت دافني، ثم غادرت المطبخ، وتوجهت إلى خزانة ملابس أمها. غرفهم جميعاً قريبة من بعضها على طول الرواق، وتحب ماكسين الأمر بهذه الطريقة. إنها سعيدة لوجودها بقربهم، ويأتي سام غالباً إلى سريرها خلال الليل مدّعياً أنه قد راودته أحلام

مزعجة. يستمتع في أغلب الوقت بمعانقتها، أياً كان العذر.

بالإضافة إلى ذلك، لديهم غرفة جلوس جميلة، وغرفة طعام كبيرة جداً، وغرفة مكتب صغيرة حيث تكتب ماكسين المقالات، أو تحضّر المحاضرات، أو تجري الأبحاث. لا يمكن مقارنة شقتهم بالترف الواضح في شقة بلايك، التي تبدو مثل مركبة فضائية معلّقة فوق العالم. شقة ماكسين حميمة ودافئة، وتبدو مثل منزل حقيقي.

حين ذهبت إلى غرفتها لتجفيف شعرها، وجدت دافني تبحث بحماسة في خزانتها. خرجت من غرفتها حاملة كنزة من الكاشمير الأبيض وزوجاً من الأحذية عالية الكعب، من الجلد الأسود مانولو بلاهنيك، مع مقدمة مستدقة وكعب رفيع، نادراً ما تنتعله أمها. ماكسين طويلة كفاية، واستطاعت انتعال أحذية بهذا العلو حين كانت متزوجة ببلايك.

حذرتها ماكسين «الكعب عالٍ جداً عليك، كدت أقتل نفسي آخر مرة انتعلته فيها. ماذا عن الأحذية الأخرى؟».

«أمممممممي»، تأوهت دافني. «سأكون بخير بانتعالي هذا الحذاء». ترى ماكسين أن هذا الحذاء يبدو متكلفاً جداً بالنسبة إلى فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، لكن دافني تبدو مثل شابة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر، ولذلك تستطيع انتعال هذا الحذاء. إنها فتاة جميلة، ورثت قسمات وجه أمها وبشرتها القشدية، وشعر والدها الأسود.

قالت ماكسين مبتسمة ابتسامة عريضة: «لا بد أن السهرة مميزة في منزل أبيك الليلة، شباب رائعون، أليس كذلك؟». حرّكت دافني عينيها خجلاً، وخرجت من الغرفة، مما يؤكد لأمها الكلام الذي قالته للتو. كانت ماكسين قلقة قليلاً بشأن كيفية تبدّل الحياة عند دخول الشباب إلى الساحة. من السهل التعاطي مع الأولاد حتّى الآن، لكنها تعرف أفضل من أي شخص آخر أن الحال لن تستمر هكذا إلى الأبد. وإذا واجهت المشاكل، عرفت أنه يجدر بها حلها لوحدها. لطالما فعلت ذلك.

أخذت ماكسين حماماً ساخناً، وارتدت ثوباً من النسيج الوبري. وبعد

نصف ساعة، جلست مع أولادها في المطبخ فيما قدّمت لهم زيلدا عشاء مؤلفاً من الدجاج والبطاطا المشويين والسلطة. إنها تطهو وجبات جيدة وكاملة، ويجمعون كلهم على أنها تعدّ أفضل البراونيز والفطائر في العالم. لطالما فكّرت ماكسين بحزن في أن زيلدا كانت لتصبح أماً رائعة، لكن ما من رجل في حياتها، وهي كذلك منذ أعوام. في عمر الثانية والأربعين، على الأرجح، لقد فاتها القطار على ما يبدو. لديها أولاد ماكسين لتحبهم بدلاً من ذلك.

خلال العشاء، أعلن جاك أنه ذاهب لحضور فيلم سينما مع صديق له. ثمة فيلم رعب جديد يعرض في الصالات ويريد رؤيته، ويقال إنه مخيف جداً. يريد أن توصله أمه ثم تذهب لإحضاره. أما سام فسيذهب كي ينام عند صديق في اليوم التالي، وينوي مشاهدة فيلم دي في دي هذه الليلة، في غرفتها، وتناول الفوشار وهو مستلقٍ على سريرها. ستأخذ ماكسين معها دافني إلى منزل إيما في طريقها لإيصال جاك إلى السينما. عليها القيام ببعض الجولات في اليوم التالي، وتمضية عطلة نهاية الأسبوع، كالعادة، كيفما اتفق، بحسب خطط الأولاد واحتياجاتهم.

كانت تتصفح مجلة بيبول في وقت متأخر من تلك الليلة، وهي تنتظر اتصالاً من دافني لتذهب لإحضارها، فوجدت صورة لبلايك خلال حفلة للرولينغ ستونز في لندن. ثمة نجمة روك مشهورة جداً معه، وهي فتاة رائعة الجمال، فيما وقف بلايك بقربها وابتسم ابتسامة عريضة. حدّقت ماكسين إلى الصورة لدقيقة، وهي تحاول أن تقرر إذا ماكانت هذه الصورة قد أزعجتها، ثم أكدت لنفسها أنها لم تنزعج، فيما شخر سام بصوت خفيف بقربها، ووضع رأسه على وسادتها، ووعاء الفوشار الفارغ بقربه ودبه الصغير المفضل بين ذراعيه.

فيما نظرت إلى الصورة في المجلة، حاولت أن تتذكر كيف كان زواجها به. كانت هناك أيام رائعة في البداية، وأيام شعرت خلالها أنها وحيدة وغاضبة في النهاية. لم يعد الأمر مهماً الآن. قررت أن رؤيته مع النجمات، والعارضات، ونجمات الروك، والأميرات لا تزعجها أبداً. إنه

وجه من ماضيها البعيد، وفي النهاية، مهما كان لطيفاً، يبقى والدها محقاً؛ إنه ليس زوجاً بل هو نذل. قبّلت سام برفق على وجنته الناعمة، وفكّرت مجدداً في أنها تحب حياتها كما هي.

الفصل الثاني

خلال الليل، تحول المطر الغزير إلى ثلج. انخفضت درجة الحرارة كثيراً، وبات كل شيء مغطى باللون الأبيض حين استيقظوا. إنه أول ثلج حقيقي هذه السنة. ألقى سام نظرة عليه، وصفّق بسرور.

«هل نستطيع الذهاب إلى الحديقة العامة، ماما؟ يمكننا أخذ أطباق بلاستيكية للتزحلق». لا يزال الثلج يتساقط، وبدا المشهد في الخارج مثل بطاقة ميلادية، لكن ماكسين عرفت أن المشهد سيتحول إلى فوضى عارمة في اليوم التالي.

«طبعاً حبيبي». وحين فكّرت في الأمر، أدركت، كما هي الحال دوماً، أنّ بلايك يفوّت أفضل جزء من حياة أطفاله وحياة العائلة. لقد استبدل كل ذلك بحفلات صاخبة وأشخاص من كل أرجاء العالم. لكن برأي ماكسين، أفضل ما في الحياة موجود هنا.

جاءت دافني لتناول الفطور فيما هاتفها الخلوي ملتصق بأذنها. غادرت الطاولة مرات عدة، وهي تهمس إلى صديقة، فيما حرّك جاك عينيه، وتناول التوست الفرنسي الذي أعدّته ماكسين. إنه أحد الأشياء القليلة التي تعدّها جيداً، وتفعل ذلك غالباً. سكب لنفسه مقداراً كبيراً من شراب القيقب، وعلّق على مدى غباء دافني وصديقاتها بشأن الشباب هذه الأيام.

«ماذا عنك؟»، سألته أمه باهتمام. «أليس لديك صديقة بعد؟». ذهب إلى صف رقص، ومدرسة مختلطة، ولديه الكثير من الفرص للقاء الفتيات، لكنه غير مهتم بهنّ بعد. اهتمامه الأساسي ينصبّ على الرياضة حتى الآن. يحب كرة القدم أكثر من أي شيء، وكذلك ولوج الإنترنت وألعاب الفيديو.

«آه»، كان جوابه، فيما التهم قطعة أخرى من التوست الفرنسي. كان سام مستلقياً على الأريكة، يشاهد أفلام الرسوم المتحركة. لقد تناول الفطور قبل ساعة حين استيقظ. يتصرف كل شخص على هواه صباح السبت، وتعدّ لهم ماكسين الطعام فور وصولهم. إنها تحب الجانب العائلي من حياتهم، والذي ليس من وقت كافٍ له خلال الأسبوع، حين تكون مستعجلة لرؤية مرضاها في المستشفى قبل أن تذهب إلى عيادتها. تخرج من المنزل عادة قبل الثامنة، حين يغادر الأولاد إلى المدرسة. لكن مع بعض الاستثناءات النادرة، تحرص على تناول العشاء معهم كل ليلة.

ذكّرت سام أنه سينام عند صديقه هذه الليلة، وقاطع جاك الحديث للقول إنه سيفعل ذلك هو أيضاً. قالت دافني إن ثلاثاً من صديقاتها سيأتين لمشاهدة فيلم، وقد يأتي شابان أيضاً.

«هذا فصل جديد الآن»، علّقت ماكسين مع نظرة اهتمام. «هل من أحد أعرفه؟». هزّت دافني رأسها بعصبية، وخرجت من الغرفة. بدا واضحاً لها أن السؤال لا يستحق جواباً.

غسلت ماكسين الصحون، ووضعتها في آلة غسيل الصحون، وتوجهت بعد ساعة مع أولادها الثلاثة إلى الحديقة العامة. قرر الولدان الكبيران الذهاب معها في الدقيقة الأخيرة. تملك فقط طبقين بلاستيكيين للتزحلق، فيما لفّت هي ودافني أكياس نفايات حول مؤخرتيهما، وانزلقتا على الهضاب مع الفتيين وأولاد آخرين بفرح كبير. لا يزال الثلج يتساقط، ولا تزال هي وأولادها شباباً كفاية للتصرف مثل أولاد صغار بين الحين والآخر، بدلاً من التصرف كأشخاص ناضجين، مثلما يريدون أن يكونوا. مكثوا هناك حتى الساعة الثالثة، ثم عادوا مشياً إلى المنزل. كان الأمر ممتعاً، وحضرت لهم الشوكولاته الساخنة مع الكريما المخفوقة حين عادوا إلى المنزل. من الجيد أنهم لم يكبروا كثيراً، ولا يزالون يستمتعون بهوايات الطفولة نفسها مثلما فعلوا دوماً.

أوصلت سام إلى بيت صديقه في تمام الخامسة، في الشارع 89 شرقي، وجاك إلى الفيلاج عند الساعة السادسة، وعادت إلى الشقة في

الوقت المناسب حين وصلت صديقات دافني مع مجموعة من الأفلام المستأجرة. في النهاية، وصلت فتاتان أخريان. طلبت لهن البيتزا في تمام الثامنة، واتصل سام عند الساعة التاسعة «للاطمئنان عليها»، وهذا يعني بحسب خبرتها عدم رغبته بتمضية الليلة في منزل صديقه. يعجز أحياناً عن تقبل الأمر، ويعود إلى المنزل للنوم في غرفتها أو في سريره الخاص. أخبرته أنها بخير، وقال لها إنه هو كذلك. كانت تبتسم حين أقفلت الخط واستطاعت سماع الضحك من غرفة دافني. ثمة شيء جعلها تشعر أنهنّ يتكلمن عن الشباب، ولم تكن على خطأ.

وصل شابان في الثالثة عشرة من العمر، بمظهر غير مريح البتة، في تمام الساعة العاشرة. كانا أقصر من الفتيات ببضعة إنشات، من دون أي علامات بلوغ، والتهما ما بقي من البيتزا. غادرا بعد دقائق قليلة مع أعذار غير مفهومة. لم ينتقلا من المطبخ إلى غرفة دافني، وقالا إن عليهما العودة إلى المنزل. كان عدد الفتيات يفوقهم بنسبة ثلاث فتيات مقابل كل شاب، لكنهما غادرا باكراً على أي حال. المشهد غير متكافئ على الإطلاق. بدت الفتيات أكثر نضجاً، وأسرعن في العودة إلى غرفة دافني لمناقشة الأمر ما إن غادر الشابان. كانت ماكسين تبتسم لنفسها، وتصغي إلى ضحك الفتيات، حين رنّ الهاتف عند الساعة الحادية عشرة. تصوّرت أنه سام يريد العودة إلى المنزل، وكانت تبتسم حين أجابت، متوقعة سماع صوت ابنها الصغير.

لكنها كانت ممرضة من غرفة الطوارئ في مستشفى لينوكس هيل، تتصل بشأن أحد مرضاها. قطّبت ماكسين حاجبيها، وجلست فوراً مع انتباه كبير، وراحت تطرح أسئلة وثيقة الصلة بالموضوع. جايسون وكسلير شاب في السادسة عشرة من عمره، توفي والده فجأة إثر نوبة قلبية قبل ستة أشهر، وماتت أخته الكبرى في حادث سيارة قبل عشرة أعوام. تناول مجموعة من الحبوب المنوّمة الخاصة بأمه. عانى من الاكتئاب، وحاول فعل ذلك قبلاً، ولكن ليس مباشرة بعد موت والده. حصل جدال رهيب بينه وبين والده ليلة مات هذا الأخير، وكان جايسون مقتنعاً بأن النوبة القلبية

التي تعرّض لها والده وموته حصلا بسببه.

قالت الممرضة إن أمه في حالة هستيرية في غرفة الانتظار، وجايسون مستيقظ، وقد بدأوا يجرون له غسيل معدة. يعتقدون أنه سيكون بخير، لكنه كان على شفير الموت. عثرت عليه أمه، واتصلت بالإسعاف. لقد تناول الكثير من الحبوب المنوّمة، لو لم تعثر عليه في الوقت الملائم، لكان مات. أصغت ماكسين بعناية. تبعد المستشفى مسافة ثمانية مجمعات أبنية عن منزلها، وتستطيع الذهاب مشياً إلى هناك، بالرغم من أن الإنشات الستة من الثلج المتساقط تحوّلت إلى وحل على الأرض، ثم تجمدت في بقع جليدية مع حلول الليل. إذ يكون السير على القدمين خطراً حين يحصل ذلك.

قالت للممرضة بسرعة: «سأصل في غضون عشر دقائق، شكراً على اتصالك». أعطت ماكسين والدة جايسون رقمي منزلها وهاتفها الخلوي قبل أشهر عدة. بالرغم من أن مجموعة الاتصالات تغطي اتصالاتها معظم عطلات نهاية الأسبوع، أرادت أن تكون موجودة بنفسها من أجل جايسون وأمه إذا احتاجا إليها. أملت ألا يحتاجا إليها أبداً، ولم تسرّ أبداً لسماع محاولته الانتحار للمرة الثانية. عرفت أن أمه منزعجة جداً. فبعد خسارة زوجها وابنتها، أصبح جايسون كل ما لديها.

طرقت ماكسين على باب غرفة زيلدا، ولاحظت أنها نائمة. أرادت إبلاغها بأنها ذاهبة لرؤية مريض، وأرادت أيضاً أن تطلب منها الانتباه إلى الفتيات في حال حصل شيء. لكنها لم تشأ إيقاظها، ولذلك أغلقت الباب بهدوء من دون إصدار أي صوت. إنه يوم عطلتها في النهاية. دخلت ماكسين بعدها غرفة دافني فيما مررت كنزة سميكة عبر رأسها. كانت ترتدي الجينز أصلاً.

«عليّ الذهاب لرؤية مريض»، شرحت لها. عرفت دافني، كما الفتيات الأخريات، أن أمها تذهب لرؤية مرضى بحالات خاصة، حتى في عطلات نهاية الأسبوع، فنظرت إليها وأومأت برأسها. إنهن يشاهدن أفلام الدي في دي وأصبحن أكثر هدوءاً مع تقدم الليل. «زيلدا موجودة هنا إذا احتجت إلى أي شيء، يمكنك الطلب منها. لكن لا تصدري الكثير

من الضجيج في المطبخ لأنها نائمة». أومأت دافني برأسها مجددا؛ وعادت عيناها لتتجها صوب الشاشة. نامت اثنتان من صديقاتها على سريرها، فيما كانت فتاة أخرى تضع الطلاء على أظافرها. أما بقية الفتيات فكنّ يشاهدن الفيلم بحماسة. «سأعود بعد قليل». عرفت دافني أنها ربما محاولة انتحار. لا تتحدث أمها كثيراً عن الموضوع، لكن هذا هو سبب خروجها ليلاً عادة. يستطيع بقية مرضاها الانتظار حتى اليوم التالي.

انتعلت ماكسين الجزمة ذات النعل المطاطي، وارتدت معطف التزلج، وحملت حقيبتها، وخرجت من الباب بسرعة. أصبحت في الشارع بعد دقائق قليلة، وهي تمشي في أثناء هبوب رياح قارسة، تتجه صوب جنوب بارك أفنيو، نحو مستشفى لينوكس هيل. كانت تشعر بوخز مؤلم في وجهها، وعيناها تدمعان حين وصلت إلى هناك، ودخلت غرفة الطوارئ. تحقّقت من مكتب الاستعلامات وأخبروها عن الحجرة التي وضعوا فيها جايسون. قرروا أنه لا يحتاج إلى وحدة العناية الفائقة. إنه متوعك ولكن ليس في مرحلة الخطر، وهم ينتظرونها لإدخاله رسمياً إلى المستشفى وتقرير الباقي. قفزت هيلين وكسلير عليها لحظة دخلت الغرفة، وتشبثت بها، وبدأت تبكي بقوة.

«كاد يموت...»، قالت، وهي تبدو في حالة هستيرية بين ذراعيّ ماكسين، فيما أخرجتها ماكسين برفق من الغرفة، وألقت نظرة خاطفة على المعرضة. كان جايسون يشخر في الغرفة ولم يتحرك أبداً. لا يزال مخدّرا بقوة نتيجة رواسب الحبوب التي تناولها، لكن لم يعد يوجد في جسمه ما يهدد حياته، وإنما فقط ما يكفي لمساعدته على النوم لوقت طويل. استمرت أمه في القول إنه كاد يموت. أبعدتها ماكسين عن الغرفة عبر الممشى الطويل، في حال استيقظ ابنها.

قالت ماكسين بهدوء: «لكنه لم يمت، هيلين. سيكون على ما يرام، أنت محظوظة لأنك وجدته. سيكون بخير». حتى المرة المقبلة، هذه هي مهمة ماكسين الواجب حلها، ولن تكون هناك مرة ثالثة. لكن عند محاولة الانتحار، من قبل أي مريض، يصبح الخطر الإحصائي للمحاولة مجدداً

أكبر بكثير، وتزداد احتمالات النجاح في كل مرة. لم تكن ماكسين مسرورة بمحاولته الانتحار مرة ثانية.

ساعدت ماكسين والدة جايسون على الجلوس على أحد الكراسي وأخذ نفس عميق. وأخيراً، نجحت في التحدث بهدوء عن الموضوع. قالت ماكسين إنه يجب إبقاء جايسون في المستشفى لفترة أطول هذه المرة. اقترحت مدة شهر، ليروا بعدها كيف تصبح حاله، واقترحت عليها مكاناً كانت تعمل فيه غالباً في لونغ آيلند. طمأنت هيلين وكسلير بأنهم هناك ماهرون في التعاطي مع المراهقين. بدت هيلين مذعورة.

«شهر؟ يعني ذلك أنه لن يكون في المنزل في مناسبة الشكر. لا يمكنك فعل ذلك»، قالت وهي تبكي مجدداً. «لا أستطيع تركه بعيداً في فترة الاحتفالات. مات والده مؤخراً وهذه أول مناسبة شكر لنا من دونه»، أصرّت، كما لو أن هذا يحدث فرقاً الآن، فيما ابنها معرض لمحاولة انتحار ثالثة. من المذهل ما يفعله الإنكار للعقل، وما يتشبث به الإنسان، لعدم مواجهة حقائق الوضع. إذا نجح جايسون في محاولة ثالثة، لن يشارك في أي مناسبة شكر على الإطلاق. لذا، من المجدي التضحية بالاحتفال بهذه المناسبة هذه السنة. إلا أن أمه لا تريد سماع ذلك، وحاولت ماكسين أن تكون صارمة وإنما حنونة ورقيقة، كما هي حالها دوماً.

«أظن أنه يحتاج في الوقت الحاضر إلى الحماية والدعم. لا أريد إعادته إلى المنزل باكراً جداً، وستكون فترة الاحتفالات صعبة عليه من دون والده أيضاً. أظن فعلاً أنه من الأفضل له أن يكون في سيلفر باينز. يمكنك تمضية مناسبة الشكر معه هناك». بكت هيلين أكثر هذه المرة.

كانت ماكسين قلقة وأرادت رؤية مريضها. أخبرت هيلين أنهما ستتحدثان عن الأمر لاحقاً، لكنهما اتفقتا على ضرورة تمضية الليلة في لينوكس هيل. ما من خيار آخر، إذ إنه ليس في وضع ملائم ليعود إلى المنزل. وافقت هيلين تماماً على ذلك، ولكن ليس على البقية. كرهت فكرة سيلفر باينز. قالت إنه يبدو مثل مقبرة بالنسبة إليها.

اطمأنت ماكسين على جايسون بهدوء فيما كان نائماً، وقرأت جدوله، وذعرت لمقدار الدواء الذي تناوله. أخذ أكثر من جرعة قاتلة، على عكس المرة الأخيرة حين أخذ جرعة تكفي بالكاد لقتله. المحاولة كانت أكثر جدية هذه المرة، وتساءلت عن سببها. ستمضي الوقت مع جايسُون في صباح اليوم التالي حين يستيقظ. لا أمل للتحدث إليه الآن.

دوّنت بعض الملاحظات على جدول جايسون لتحديد ما تريده، سينقلونه إلى غرفة خاصة لاحقاً هذه الليلة، وأمرت بوضع ممرضة معه لمراقبته. لا بد من وجود شخص معه لمراقبته حتى قبل أن يستيقظ. أخبرت الممرضة أنها ستعود في صباح اليوم التالي عند الساعة التاسعة، وإذا احتاجوا إليها قبل ذلك، فيمكنهم الاتصال بها. تركت لهم رقمي منزلها وهاتفها الخلوي، وجلست مجدداً مع والدة جايسون في الخارج. بدت هيلين محطّمة أكثر من قبل، بعد أن بدأت تستوعب الحقيقة. كادت تخسر ابنها بسهولة تلك الليلة، وكانت ستصبح وحيدة في العالم. مجرد التفكير في ذلك كان يدفعها للجنون. عرضت عليها ماكسين الاتصال بطبيبها، في حال أرادت حبوباً منوّمة، أو مُسكّناً خفيفاً، لم تشأ ماكسين وصفه بنفسها. هيلين ليست مريضتها ولا تعرف ماكسين تاريخها أو الأدوية الأخرى التي تتناولها.

قالت هيلين إنها اتصلت قبلاً بالطبيب. يفترض به الاتصال بها مجدداً، لكنه خارج المدينة. قالت إن جايسون استعمل كل حبوبها المنومة، ولم يعد لديها أي شيء في المنزل. بدأت تبكي أكثر حين قالت ذلك، ولم تشأ بوضوح العودة إلى المنزل لوحدها.

«أستطيع أن أطلب منهم أن يضعوا لك سريراً نقالاً في غرفة جايسون إذا أردت»، قالت ماكسين بلطافة، «إلا إذا كان الأمر يزعجك». في هذه الحالة، عليها العودة إلى المنزل.

«أودّ ذلك»، قالت ماكسين بهدوء، واتسعت عيناها فيما نظرت إلى ماكسين. «هل سيموت؟»، همست حينها، مذعورة من معرفة الجواب، وإنما محاولة تحضير نفسها للأسوأ.

قالت ماكسين وهي تهزّ رأسها بحزن: «هذه المرة؟ لا، لكن علينا التأكد قدر الإمكان من أنه لن تكون هناك مرة ثالثة. إنها مسألة جدية. لقد تناول الكثير من الحبوب. لهذا السبب، أريده أن يبقى في سيلفر باينز لفترة».

لم تشأ ماكسين إخبار والدة الشاب الآن بأنها تريده البقاء هناك لأكثر من شهر. إنها تفكر في فترة شهرين أو ثلاثة أشهر، ليدخل بعدها إلى مرفق إصلاحي، إذا رأت أنه بحاجة إلى ذلك. يستطيعون توفير المال لحسن الحظ، لكن ليست هذه المشكلة. رأت في عيني هيلين أنها تريد عودة جايسون إلى المنزل، وأنها ستعارض مكوثه الطويل في المستشفى. إنه موقف أحمق بالنسبة إليها، لكن ماكسين واجهت مثل هذه الحالة قبلاً. إذا تم إرسال جايسون إلى مستشفى للأمراض النفسية، فعليهم الإدراك أن المسألة لم تكن مجرد هفوة بسيطة وإنما هو مريض فعلاً. لم تشكّ ماكسين أبداً في أنه ميال إلى الانتحار ومكتئب كثيراً سريرياً. أصبح على هذه الحال بعد موت والده. هذا أكثر مما تريد أمه مواجهته، لكنها لا تملك أي خيار في هذه المرحلة. إذا أخذته معها إلى المنزل في اليوم التالي، فستخالف بذلك رغبات الأطباء، وعليها التوقيع على ورقة تحمّلها المسؤولية. أملت ماكسين ألا تصل الأمور إلى هذا. أملت أن تهدأ في اليوم التالي، وأن تفعل الشيء الأنسب لابنها. لا تريد ماكسين إبقاءه في المستشفى أيضاً، لكنها تدرك تماماً كم أن الأمر مهم بالنسبة إليه. حياته على المحك.

طلبت ماكسين من الممرضات وضع سرير نقال لهيلين في غرفة ابنها، بعد نقله من غرفة الطوارئ. تركتها مع لمسة دافئة على الكتف، واطمأنّت على جايسون مجدداً قبل أن تغادر. إنه بخير. في الوقت الحاضر، ثمة ممرضة معه سترافقه إلى غرفته. لن يبقى لوحده مجدداً. ما من جناح مقفل في لينوكس هيل، لكن ماكسين رأت أنه سيكون بخير مع وجود ممرضة بقربه، وأمه أيضاً. وستمضي ساعات عدة قبل أن يستيقظ.

عادت إلى الشقة سيراً على القدمين في البرد القارس. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل حين وصلت إلى المنزل. ألقت نظرة

سريعة على غرفة دافني، وبدا كل شيء مسالماً هناك. نامت كل الفتيات، اثنتان منهنّ في أكياس نوم، والبقية على سرير دافني. لا يزال الفيلم قيد العرض، ولا تزال الفتيات مرتديات ملابسهن، ثم نظرت إليهنّ ولاحظت رائحة غريبة. لم تلاحظ أبداً هذه الرائحة في غرفة دافني قبلاً. لا تعرف السبب، لكنها توجهت إلى خزانتها وفتحت الباب، وذهلت عند رؤية دزينة قناني فارغة من الشراب. نظرت إلى الفتيات مجدداً وأدركت أنهن لسن نائمات فقط، وإنما في حالة يرثى لها أيضاً. يبدون صغيرات قليلاً على الشراب برأيها، لكن الأمر ليس مستغرباً في هذا العمر. لم تكن واثقة ما إذا كان يجدر بها البكاء أو الضحك. لم تعرف متى بدأ ذلك، لكنهن استفدن تماماً من ذهابها إلى المستشفى. تكره فعل ذلك، لكن عليها توبيخ دافني في اليوم التالي. وضعت القناني الفارغة على منضدتها، بشكل مرتب، بحيث تراها الفتيات عند استيقاظهنّ. نجحت كل منهن في شرب قنينتين، وهذا كثير بالنسبة إلى فتيات في هذا العمر. إذاً، همست لنفسها، بدأت المراهقة. استلقت على السرير بعد ذلك، وهي تفكر في الأمر، واشتاقت إلى بلايك لبرهة. من الجميل مشاركة اللحظة مع شخص آخر. لكنها كالمعتاد ستضطر إلى التحلي بالرصانة في اليوم التالي، ووضع قناع خيبة الأمل حين تتلو بيان الشغب أمام ابنتها، وتتحدث إليها عن المعنى الأعمق للثقة. إلا أن ماكسين فهمت جيداً أن ابنتها مراهقة وستكون هناك العديد من الليالي في المستقبل، حيث يرتكب فيها أحد أولادها أمراً أحمق، أو يستفيد أولادها أو أولاد آخرون من وضع معين، أو يجربون المشروبات، وربما أموراً أخرى. ولا شك في أنها لن تكون المرة الأخيرة التي يكون فيها أحد أولادها في حالة يرثى لها. عرفت ماكسين أنها ستكون محظوظة إذا لم تتطور الأمور إلى الأسوأ. وعرفت أيضاً أنه عليها اتخاذ موقف صارم بشأن الموضوع في اليوم التالي. كانت تفكر في المسألة حين نامت. وحين نهضت في الصباح، كانت الفتيات لا يزلن نائمات.

تلقت اتصالاً من المستشفى بينما كانت ترتدي ثيابها. لقد استفاق جايسون وهو يتحدث. قالت الممرضة إن أمه معه، وهي غاضبة جداً.

اتصلت هيلين وكسلير بطبيبها الخاص، وبحسب الممرضة، بدلاً من أن يطمئنها، أثار أعصابها أكثر. قالت لها ماكسين إنها ستتصل بعد برهة، وأقفلت السماعة. سمعت زيلدا تتحرّك في المطبخ حينها، وذهبت لتسكب لنفسها كوب قهوة. كانت زيلدا تجلس أمام طاولة المطبخ، مع كوب من القهوة الساخنة، ومجلة الصنداي تايمز. نظرت إلى الأعلى حين شاهدت ماكسين تدخل وابتسمت.

«ليلة هادئة؟»، سألت زيلدا، فيما جلست ماكسين أمام الطاولة مع تنهيدة. تشعر أحياناً وكأن زيلدا هي مصدر دعمها الوحيد في تربية الأولاد. لم يقدّم لها أهلها أبداً الكثير من النصائح، بالرغم من أن نواياهم جيدة. ولم يكن بلايك موجوداً في حياتهم. زيلدا هي البديل.

قالت ماكسين مبتسمة ابتسامة حزينة: «ليس تماماً، أظن أننا عثرنا على معلم تاريخي الليلة الماضية».

«أكبر كمية من البيتزا في تاريخ العالم تتناولها ست فتيات مراهقات؟».

«لا»، قالت ماكسين بنبرة رزينة والضحك بادٍ في عينيها. «المرة الأولى التي يكون فيها أحد أولادي في حالة يرثى لها بسبب الشراب». ابتسمت ونظرت إليها زيلدا بعينين كبيرتين.

«هل تمزحين؟».

«لا. عثرت على دزينة قناني فارغة من الشراب في خزانة دافني حين تحققت من الغرفة. لم يكن الأمر جميلاً. شاهدت أجساداً بكامل أناقتها مرمية في كل مكان حين دخلت الغرفة، وكنّ جميعهنّ نائمات، أو بالأحرى مغمى عليهنّ لأكون دقيقة في التعبير».

«أين كنتِ حين فعلنَ ذلك؟». تفاجأت زيلدا بأن تكون دافني قد تجرّأت على تناول الشراب فيما أمها موجودة في الغرفة التالية. وضحكت قليلاً على الأمر بالرغم من أن أياً من المرأتين لم تشعر بالسرور. إنها بداية مشهد جديد تماماً لا تتطلعان إليه. أهلاً بسنوات المراهقة. الأسوأ سيأتي لاحقاً.

«توجب عليّ الذهاب لرؤية مريض الليلة الفائتة. غبت من الحادية عشرة حتى الواحدة. لا بد من أن إحداهنّ أحضرت معها الشراب في حقيبة ظهرها. لم أفكر أبداً في ذلك من قبل».

«أظن أنه علينا التحقق من الآن وصاعداً»، قالت زيلدا بطريقة بديهية، من دون أن تشعر بأي إحراج في تحدي دافني وصديقاتها. لن تسمح أبداً لأي كان في أن يكون بحالة يرثى لها أمامها، وعرفت أن هذا هو رأي ماكسين أيضاً. قبل أن يدرك أحد، سيدخل جاك هذا العالم أيضاً، وكذلك سام في يوم ما. يا لها من فكرة. لا تتطلع زيلدا إلى أي من ذلك، لكنها تنوي المراقبة الحثيثة. إنها تحب العائلة وكذلك عملها.

ثرثرت المرأتان لدقائق قليلة، ثم قالت إنه عليها العودة إلى لينوكس هيل لرؤية مريضها. زيلدا في إجازة، لكنها لن تذهب إلى أي مكان. قالت إنها ستنتبه إلى الفتيات، وأملت أن يشعرن بالانزعاج حين يستيقظن. ضحكت ماكسين على الفكرة.

«تركت القناني الفارغة على منضدتها، ليعرفن جميعاً أنني لست غبية مثلما أبدو».

«سيرتجفن حين يرين ذلك»، قالت زيلدا بمرح.

«يفترض بهن ذلك. كان هذا عملاً حقيراً، وإساءة لثقتي وضيافتي...». نظرت إلى زيلدا مبتسمة ابتسامة عريضة. «أستعد لإلقاء وعظة أمامها. كيف أبدو؟».

«جيدة. توبيخها وقطع المصروف عنها قد يفيدان أيضاً». أومأت ماكسين برأسها. لطالما تشاركت هي وزيلدا الكثير من وجهات النظر المماثلة. زيلدا صارمة وإنما منطقية، لطيفة وإنما واعية، وغير متزمتة كثيراً. ليست مستبدة لكنها ليست متساهلة أيضاً. تثق ماكسين ثقة كاملة بها، وبحكمها السليم، حين لا تكون هي موجودة. «ما الذي أخرجك الليلة الماضية؟ انتحار؟»، سألت زيلدا. أومأت ماكسين برأسها، وقد أصبحت جادة مجدداً. «كم عمره؟». تحترمها زيلدا كثيراً على العمل الذي تؤديه.

«ستة عشر عاماً». لم تعطها ماكسين أي تفاصيل. لا تفعل ذلك أبداً. أومأت زيلدا برأسها. والأسوأ من ذلك، تستطيع دوماً ملاحظة الأمر في عيني ماكسين حين يموت أحدهم. ينفطر قلب زيلدا على الأهل والولد على حدٍّ سواء. انتحار المراهقين هو أمر مريع. ونسبة إلى مدى انهماك ماكسين في عملها، يتضح أن هناك الكثير من حالات الانتحار في صفوف المراهقين في نيويورك، وفي كل مكان آخر. مقارنة مع ذلك، لا يبدو شرب دزينة من قناني الشراب من قبل ست فتيات في الثالثة عشرة من العمر أمراً مأساوياً. لكن ما تتعاطى معه ماكسين كل يوم هو المأساوي.

غادرت ماكسين بعد دقائق قليلة، ومشت المسافة القصيرة المؤدية إلى مستشفى لينوكس هيل، مثلما تفعل دوماً. كان الطقس بارداً وكثير الرياح، لكن الشمس أشرقت، وكان يوماً جميلاً. لا تزال تفكر في ابنتها وحيلتها الليلة الفائتة. لا شك في أنها بداية مرحلة جديدة بالنسبة إليهم جميعاً، وهي ممتنة لمساعدة زيلدا. ستراقبان دافني وصديقاتها عن كثب. ستذكر الأمر أمام بلايك حين يأتي إلى المدينة أيضاً، ليكون على اطّلاع. لم يعد في وسعهم الثقة بها بعد الآن، ولن يتمكنوا من فعل ذلك طوال سنوات ربما. من المريع التفكير في ذلك. كانت الأمور سهلة جداً حين كانت وجاك في عمر سام. وكم مضى الوقت بسرعة. سيصبحون سريعاً مراهقين كلهم، وعرضة للأذى من كل الأنواع. لكن في الوقت الحاضر على الأقل، تبدو الأمور طبيعية.

حين دخلت غرفة جايسون في المستشفى، كان يجلس على السرير. بدا مترنحاً ومرهقاً وشاحباً. كانت أمه تجلس عل كرسي، وتتحدث إليه، وتبكي، وتمسح أنفها. لا يبدو المشهد جميلاً. كانت الممرضة المراقبة تجلس بهدوء على كرسيّ في الجانب الآخر من السرير، محاولة التكتم وعدم التطفل. نظروا جميعهم إلى الأعلى حين دخلت ماكسين.

«كيف حالك اليوم، جايسون؟». ألقت ماكسين نظرة سريعة على الممرضة، وأومأت برأسها، وتركت المرأة الغرفة بهدوء.

«بخير، حسبما أظن». بدا مكتئباً، وهذا ردّ فعل طبيعي على الجرعة

المفرطة من العقاقير التي تناولها، وكان بلا شك مكتئباً قبل ذلك أيضاً. بدت أمه مكتئبة هي الأخرى، كما لو أنها لم تنم أبداً، مع هالات داكنة حول عينيها. كانت تحاول أخذ وعد منه بعدم تكرار ذلك مجدداً، حين دخلت ماكسين، ووافق جايسون على مضض.

«يقول إنه لن يفعلها مجدداً»، شرحت هيلين، فيما نظرت ماكسين مباشرة في عينيه. لكن ما رأته فيهما أقلقها.

«أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً»، قالت ماكسين وهي غير مقتنعة تماماً.

«هل أستطيع العودة إلى المنزل اليوم؟»، سأل جايسون وهو يبدو فاتراً. لم يحب فكرة وجود ممرضة في الغرفة معه، وشرحت له أنها لا تستطيع مغادرة الغرفة إلا إذا تم استبدالها بممرضة أخرى. شعر وكأنه في سجن.

قالت ماكسين، وهي تقف على طرف السرير: «أظن أنه علينا التحدث بشأن ذلك». كانت ترتدي كنزة وردية وسروال جينز، وبدت هي الأخرى صغيرة. قالت بصراحة: «لا أظن أن هذه فكرة جيدة»، لا تكذب أبداً على مرضاها. من المهم أن تقول لهم الحقيقة مثلما تراها، وهم يثقون بها بسبب ذلك. «تناولت الكثير من الحبوب الليلة الماضية، جايسون. وأعني فعلاً الكثير. لم تكن تمزح هذه المرة». نظرت إليه، وأومأ برأسه، ثم نظر بعيداً. أصبح محرجاً الآن وهو تحت الضوء.

قال وهو يحاول تهوين الأمر: «كنت في حالة يرثى لها نوعاً ما. لم أدرك عواقب ما فعلته».

قالت ماكسين بهدوء: «أظن أنك تدركها تماماً، تناولت حبوباً أكثر من المرة الماضية. أظن أنك تحتاج إلى بعض الراحة الآن والتفكير في الأمر، والعمل عليه، والانخراط في مجموعات. أظن أنه من المهم معالجة ذلك، وأنا واثقة من أن الأمر صعب الآن مع حلول موسم الاحتفالات، وقد خسرت والدك هذه السنة». وضعت إصبعها على الجرح مباشرة،

وحدقت إليها أمه مذعورة. بدت وكأنها على وشك الخروج من ملابسها. كانت قلقة كثيراً، وهي تعاني المشاعر نفسها مثل ابنها، باستثناء أنها لا تشعر بالذنب. كان جايسون مقتنعاً بأنه قتل والده وهذا ما سبب مشكلة له. بشكل خطير جداً. «أود أن تذهب إلى مكان معين حيث عملتُ مع أولاد قبلاً. إنه مكان جميل. تتراوح أعمار الأولاد فيه بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة. تستطيع أمك زيارتك كل يوم. لكنني أظن أننا بحاجة إلى معالجة ما يحصل الآن. لا أرتاح لفكرة إرسالك إلى المنزل الآن».

«لكم من الوقت؟»، سأل بنبرة تنمّ عن عدم التزام ورضى، وقد حاول أن يبدو مرتاحاً، لكنها لاحظت الخوف في عينيه. إنها فكرة مخيفة بالنسبة إليه. لكن محاولته الثانية للانتحار أخافتها أكثر. لديها التزام لمدى العمر بعدم السماح بحصول ذلك مجدداً، إذا استطاعت ذلك. وهي تنجح في أغلب الأحيان. تريد أن تنجح هذه المرة أيضاً، وأن تتفادي المأساة قبل حصولها مجدداً. لقد عانيا ما يكفي.

«دعنا نجرب لمدة شهر. ثم نتحدث بعدها، ونرى ما هو رأيك وما هو شعورك إزاء هذه التجربة. لا أظن أنك ستحب ذلك، لكنني أعتقد أنك سترتاح هناك». ثم أضافت مبتسمة، «المركز مختلط». لم يبتسم رداً عليها. كان مكتئباً جداً للتفكير في الفتيات في الوقت الحاضر.

«ماذا لو كرهت المكان ولم أشأ المكوث فيه؟». نظر إليها مباشرة في عينيها.

« حينها نتحدث في الأمر». في حالة الضرورة القصوى، يمكنهم طلب وضعه تحت الإقامة الجبرية، إذ أثبت للتو أنه مصدر خطر على حياته، لكن هذا سيشكل صدمة له ولأمه. تفضل ماكسين الدخول الطوعي عند الإمكان. تحدثت حينها والدة جايسون.

«حضرة الطبيبة، هل تظنين فعلاً... كنت أتحدث إلى طبيبي هذا الصباح، وقال إنه علينا منح جايسون فرصة أخرى... يقول إنه كان في حالة يرثى لها، ولم يعرف ماذا يفعل، ووعدني للتو بأنه لن يفعل ذلك

مجدداً». عرفت ماكسين أفضل من أي شخص آخر أن هذا الوعد لا يعني شيئاً. وعرف جايسون ذلك أيضاً. أرادت أمه شيئاً تستطيع الاعتماد عليه، لكنها لم تستطع. لا شك في أن حياة ابنها في خطر.

قالت ماكسين ببساطة: «لا أظن أننا نستطيع الاعتماد على ذلك، أريدك أن تثقي بي في هذا»، أضافت بهدوء. ولاحظت أن جايسون لم يجادلها، وإنما أمه. «أظن أن أمك غاضبة لأنك لن تكون في المنزل خلال مناسبة الشكر، جايسون. أخبرتها أنها تستطيع تمضية مناسبة الشكر معك. فالزيارات مسموحة هناك».

«ستكون مناسبة الشكر مقرفة هذه السنة على أي حال، من دون أبي. لا أبالي». أغمض عينيه وأرجع رأسه إلى الخلف على وسادته، وأسكتهما. أشارت ماكسين إلى أمه كي تلحق بها إلى الخارج، وما إن غادرتا الغرفة، حتى عادت الممرضة الخاصة لتجلس معه. يمكن مراقبته عن كثب في سيلفر باينز أيضاً. وفي سيلفر باينز، تكون الأجنحة مقفلة، وهذا ما يحتاج إليه جايسون برأي ماكسين. في الوقت الحاضر على أي حال، وربما لبعض الوقت.

«أظن أن هذا ما يجب فعله»، شرحت لها ماكسين، فيما انهمرت الدموع على وجنتي هيلين. «أنصح كثيراً بذلك. يعود الأمر إليك، لكنني لا أظن أنك تستطيعين حمايته كما يجب في المنزل. لا يمكنك منعه من تكرار الأمر مجدداً».

«هل تظنين فعلاً أنه سيحاول الانتحار مجدداً؟». بدت أمه مذعورة.

قالت ماكسين بوضوح: «نعم، أنا واثقة تماماً من ذلك. لا يزال مقتنعاً بأنه قتل والده. يحتاج إلى الوقت ليتخطى هذه الفكرة. وفي غضون ذلك، عليه التواجد في مرفق حيث يكون آمناً. لن تنامي لحظة واحدة إذا بقي في المنزل»، أضافت وأومأت أمه برأسها.

«يظن طبيبي أننا نستطيع منحه فرصة أخرى. يقول إن الشبّان في

عمره يفعلون ذلك غالباً للفت الانتباه». إنها تكرر نفسها، كما لو أنها تأمل في إقناع ماكسين، التي تفهم الوضع أكثر منها.

«كان يقصد ذلك، هيلين. يعرف تماماً ماذا فعل. أخذ ثلاثة أضعاف الجرعة القاتلة من دوائك. هل تريدين المجازفة بذلك مجدداً، أو جعله يقفز من النافذة؟ يستطيع مفاجأتك وفعل ذلك برمشة عين. لا تستطيعين منحه ما يحتاج إليه الآن في المنزل». لم تكن تبالغ أبداً، وأومأت أمه برأسها ببطء، بدأت تبكي أكثر. فهي لا تستطيع تحمل فكرة خسارة ابنها.

قالت بهدوء: «حسناً، متى يجدر به الذهاب؟».

«سأتأكد إذا كانوا يملكون سريراً له اليوم أو غداً. أود إخراجه من هنا بأسرع ما يمكن. لا يستطيعون حمايته كما يجب هنا أيضاً. ليست هذه مستشفى للأمراض النفسية. عليه التواجد في مكان مثل سيلفر باينز. ليس المكان سيئاً مثلما تظنين، وهو المكان المناسب له في الوقت الحاضر، على الأقل حتى يخرج من الأزمة، وربما بعد فترة الاحتفالات».

«تقصدين الميلاد أيضاً؟». بدت هيلين وكسلير مذعورة.

«سنرى. سنناقش الأمر لاحقاً، حين نرى كيف أصبحت حاله. يحتاج إلى بعض الوقت لتخطي أزمته». أومأت أمه برأسها، ثم عادت إلى غرفته، فيما ذهبت ماكسين للاتصال بسيلفر باينز. بعد خمس دقائق، تم ترتيب كل شيء. لديهم غرفة له لحسن الحظ. ورتّبت ماكسين نقله بسيارة الإسعاف عند الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم. تستطيع أمه الذهاب معه لمساعدته على الدخول، لكنها لا تستطيع تمضية الليل معه.

شرحت ماكسين كل شيء لهما، وقالت إنها ستذهب لزيارة جايسون هناك في اليوم التالي. عليها تغيير مواعيد بعض المرضى لتتمكن من فعل ذلك، لكنه يوم جيد لفعل ذلك. عرفت أنه ما من شيء مهم على جدول أعمالها خلال فترة بعد الظهر، وتم حجز موعدي الحالتين المهمتين قبل الظهر. بدا راضياً للذهاب إلى هناك، وكانت ماكسين لا تزال تتحدث إليهما حين دخلت ممرضة وقالت إن الدكتور ويست يتصل بها عبر الهاتف.

بدت ماكسين متعجبة «الدكتور ويست؟ هل يطلب مني إدخال مريض له؟». يفعل الأطباء ذلك طوال الوقت، لكنها لم تتعرف إلى اسمه. وبدت فجأة والدة جايسون محرجة.

«إنه طبيبي. طلبت منه الاتصال بك لأنه يظن أنه باستطاعة جايسون العودة إلى المنزل. لكنني أفهم... أظن... أنا آسفة... هل تمانعين التحدث إليه على أي حال؟ لا أريده أن يشعر أنني طلبت منه الاتصال من أجل لا شيء. سنرسل جايسون إلى سيلفر باينز، ويمكنك إخبار الدكتور ويست ربما بأنه تم ترتيب كل شيء». بدت هيلين محرجة، وطلبت منها ماكسين عدم القلق بشأن ذلك. فهي تتحدث إلى أطباء آخرين طوال الوقت. سألت إذا كان طبيباً نفسياً، وقالت هيلين إنه طبيب الأمراض الداخلية الذي يعالجها. غادرت ماكسين الغرفة لتلقّي الاتصال من غرفة الممرضات. لا تريد إجراء المحادثة على مسمع جايسون. الأمر مجرد مجاملات الآن على أي حال. رفعت السماعة وهي تبتسم، متوقعة التحدث إلى طبيب ودود وساذج، غير معتاد على التعاطي مع انتحار المراهقين بشكل يومي، مثلها هي.

قالت ماكسين وهي تبدو شابة وفعالة وممتعة: «دكتور ويست؟ أنا الطبيبة ويليامز، الطبيبة النفسية لجايسون»، شرحت له.

قال لها: «أعرف»، وبدا مكتفياً بهذه الكلمة الوحيدة. «طلبت مني أمه الاتصال بك».

«أفهم. لقد انتهينا للتو من إجراء الترتيبات اللازمة لإدخاله إلى سيلفر باينز بعد ظهر اليوم. أظن أنه المكان المناسب له في الوقت الحاضر. لقد أخذ جرعة قاتلة من حبوب أمه المنومة في الليلة الماضية».

«من الغريب ما يفعله الأبناء في سن المراهقة للفت الانتباه، أليس كذلك؟». أصغت إليه ماكسين وهي غير مصدّقة. لا يحاول فقط معاملتها بتنازل، وإنما يبدو مثل أحمق تام.

«هذه محاولته الثانية. ولا أظن أن أخذ ثلاثة أضعاف الجرعة القاتلة

هي للفت الانتباه فقط. إنه يقول لنا بوضوح إنه يريد الموت. علينا التعاطي مع ذلك بطريقة جدية».

«أظن فعلاً أنه من الأفضل وجود الشاب في المنزل مع أمه»، قال الدكتور ويست كما لو أنه يتحدث إلى فتاة صغيرة، أو ممرضة شابة جداً.

قالت ماكسين بحزم: «أنا طبيبته النفسية، ورأيي المحترف هو أنه إذا ذهب إلى المنزل مع أمه، فسيكون ميتاً خلال أسبوع، أو ربما خلال أربع وعشرين ساعة». كانت فظة قدر المستطاع، ولم تقل ذلك لوالدة جايسون. لكنها لن تتهاون مع الدكتور ويست الفظ جداً.

قال وهو يبدو منزعجاً هذه المرة: «يبدو هذا هستيرياً قليلاً بالنسبة إلي».

«وافقت أمه على إدخاله المستشفى. لا أظن أننا نملك خياراً آخر. عليه التواجد في جناح مغلق، تحت مراقبة مشدّدة. ما من طريقة لتوفير ذلك بطريقة آمنة في المنزل».

«هل تحجزين كل مرضاك، دكتورة ويليامز؟». إنه يهينها بشكل مباشر، وبدأت ماكسين تصاب بالجنون. من يظن نفسه بحق الله؟.

«فقط الذين يهددون بقتل أنفسهم، دكتور ويست، ولا أظن أن مريضتك ستكون في حال جيدة إذا خسرت ابنها. ماذا سيكون تقييمك لهذا؟».

قال وهو يبدو مغتاظاً: «أظن أنه عليك ترك تقييم حالة مرضاي لي».

«بالضبط. نقطة جيدة، وأقترح عليك ترك مرضاي لي. جايسون وكسلير هو مريضي، وأنا أعاينه منذ أول محاولة انتحار له، ولم يعجبني ما رأيته على الإطلاق، أو ما أسمعه منك، بطبيعة الحال. إذا أردت الاطّلاع على معلوماتي عبر الإنترنت، يمكنك زيارة موقعي. والآن، اعذرني، عليّ العودة إلى مريضي. شكراً على الاتصال». كان يتبجح حين أقفلت

الخط، وتوجب عليها إخفاء انزعاجها حين عادت إلى غرفة جايسون. ليست مشكلة أحد إذا تنافرت هي وطبيب هيلين عبر الهاتف. إنه رجل أخرق يهدد حياة الأشخاص، برأي ماكسين، وهو بمثابة تهديد حقيقي إذ يستهين بخطورة الأزمة التي يعيشها جايسون. يحتاج إلى أن يكون في مستشفى للأمراض النفسية مثل سيلفر باينز. المجنون دكتور ويست.

«هل جرى كل شيء على ما يرام؟». نظرت إليها هيلين بقلق، وأملت ماكسين ألا تلاحظ كم هي غاضبة. أخفت غضبها بابتسامة.

«كان جيداً». قامت ماكسين بعدها بفحص جايسون، وبقيت معه لمدة نصف ساعة إضافية وهي تشرح له كيف ستكون سيلفر باينز. زعم أنه لا يبالي أو يخاف، لكن ماكسين عرفت أنه خائف. عليه أن يكون كذلك. إنه وقت عصيب بالنسبة إليه. في البداية كاد يموت، وعليه الآن مواجهة الحياة مجدداً. وبرأيه، هذا أسوأ ما في العالمين.

تركتهما وطمأنت هيلين بأنها ستكون قادرة طوال اليوم وهذه الليلة وفي اليوم التالي على تلقّي الاتصالات. بعد التوقيع على أوراق خروجه، غادرت المستشفى، وعادت إلى المنزل. كانت تفكّر في ذلك الطبيب الأحمق، تشارلز ويست، وهي تسير في بارك أفنيو، وكانت دافني وصديقاتها لا يزلن نائمات حين عادت إلى المنزل. لقد حلّ الظهر حينها.

هذه المرة، دخلت ماكسين غرفة ابنتها، ورفعت الستائر. دخل نور الشمس الساطع الغرفة، وصرخت بصوت عالٍ مطالبة إياهن بالاستيقاظ. لم تكن أي منهن في حال جيدة حين تأوهن واستيقظن. بعد ذلك، وفيما نهضت دافني من السرير، لاحظت صف القناني الفارغة على منضدتها ولاحظت النظرة في عيني أمها.

قالت بهدوء: «آه، اللعنة»، وهي تلقي نظرة سريعة على صديقاتها. بدَون جميعاً خائفات.

قالت ماكسين ببرود: «يمكنك قول ذلك»، وهي تلقي نظرة على

الأخريات. «شكراً لحضوركن أيتها الفتيات. ارتدين ثيابكن وضبن أغراضكن. انتهت الحفلة. وبالنسبة إليك»- التفتت إلى دافني مجدداً- «أنت محجوزة طوال الشهر. ومن يحضر أي نوع من المشروبات إلى هنا مجدداً، لن يُسمح له بالعودة. لقد خرقتن جميعاً قوانين ضيافتي، وخنتنّ ثقتي. سأتحدث إليك لاحقاً»، قالت لدافني، التي بدت مذعورة. بدأت الفتيات يتهامسن بعصبية ما إن غادرت ماكسين الغرفة. ارتدين ثيابهنّ بسرعة، وكل ما أردن فعله الآن هو المغادرة. تلألأت الدموع في عيني دافني.

قالت إحدى الفتيات: «أخبرتك أنها فكرة غبية».

تذمرت دافني: «ظننت أنك أخفيت القناني في الخزانة».

«لقد فعلت». بدأن جميعاً بالبكاء. إنها المرة الأولى التي يفعلن فيها شيئاً مثل هذا، لكنها لن تكون طبعاً المرة الأخيرة. تعرف ماكسين ذلك أفضل منهن.

«لا بد من أنها فتشت الخزانة».

ارتدت الفتيات ملابسهن، وغادرن في أقل من عشر دقائق، وذهبت دافني للبحث عن أمها. عثرت عليها في المطبخ، تتحدث بهدوء إلى زيلدا، التي نظرت إلى دافني مع عدم موافقة صارمة ولم تتفوه بكلمة. يعود لماكسين أن تختار طريقة التعاطي مع ذلك.

قالت دافني وهي تنفجر في البكاء: «أنا آسفة، أمي».

«وأنا أيضاً. وثقت بك داف. لطالما فعلت. لا أريد لأي شيء أن يفسد ذلك. فما نتبادله من ثقة نفيس جداً».

«أعرف... لم أكن أقصد ذلك... ظننا فقط... أنا...».

قالت بصرامة: «أنت محجوزة لفترة شهر. لا اتصالات هاتفية في الأسبوع الأول. لا حياة اجتماعية طوال شهر. لا ذهاب إلى أي مكان لوحدك. ولا مصروف جيب. ولا تدعي ذلك يحصل مجدداً».

أومأت دافني برأسها بصمت، وعادت إلى غرفتها. سمعنا الباب ينغلق

بهدوء وراءها. كانت ماكسين واثقة من أنها تبكي، لكنها تريد تركها لوحدها الآن.

قالت زيلدا باكتئاب: «هذه هي البداية فقط»، ثم ضحكت المرأتان. لا تبدو هذه نهاية العالم بالنسبة إلى أي منهما، لكن ماكسين أرادت ترك انطباع قوي لدى ابنتها كي لا يحصل الأمر مجدداً في القريب العاجل.

بقيت دافني في غرفتها بقية فترة بعد الظهر، بعدما سلّمت هاتفها الخلوي لأمها. كان الهاتف بمثابة وقود حياتها، ويعتبر إعطاؤها إياه تضحية كبيرة.

أحضرت ماكسين الصبيين في تمام الخامسة، وحين وصلوا إلى المنزل، أخبرت دافني جاك بما حصل. ذُهل لكنه تأثر، وأخبرها بما باتت تعرفه، وهو أن ما فعلته دافني أمر أحمق، وأن أمهما ستكتشف الأمر حتماً. برأي جاك، تعرف أمهما كل شيء، ولديها رادار من نوع ما، وجهاز لصور أشعة إكس في رأسها. إنه جزء من مجموعة الخيارات التي تأتي مع الأمهات.

تناولوا عشاء هادئاً في المطبخ تلك الليلة، وتوجهوا جميعاً إلى أسرّتهم في وقت مبكر، لأنه ينبغي عليهم الاستيقاظ باكراً للذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. كانت ماكسين نائمة في تمام الثانية عشرة عند منتصف الليل حين اتصلت بها الممرضة من سيلفر باينز. قام جايسون وكسلير بمحاولة انتحار أخرى تلك الليلة. إنه في حال جيدة ومستقرة، لقد نزع ملابس نومه، وحاول شنق نفسه بها، لكن الممرضة المسؤولة عنه عثرت عليه وأنعشته. أدركت ماكسين أنهم أخرجوه من لينوكس هيل في الوقت المناسب، وحمدت الله لأن أمه لم تستمع إلى نصيحة ذلك الدكتور ويست الغبي والمتبجح. أخبرت الممرضة أنها ستأتي لزيارة جايسون بعد ظهر اليوم التالي، واستطاعت تخيل كيفية تقبل أمه للخبر. كانت ماكسين ممتنة لأنه على قيد الحياة.

فيما استلقت على السرير بعد ذلك، أدركت كم كانت عطلة نهاية

الأسبوع زاخرة بالأحداث. فقد كانت ابنتها في حالة يرثى لها بسبب تناولها الشراب للمرة الأولى، وحاول أحد مرضاها الانتحار مرتين، وعند أخذ كل الأمور في الاعتبار، كان يحتمل أن تصبح المسائل أسوأ بكثير. فكان يمكن لجايسون وكسلير أن يموت. شعرت بالارتياح لأنه لم يمت، بالرغم من أنها كانت تود أن تثبت لتشارلز ويست صحة تفكيرها. إنه حقاً أحمق. سعدت ماكسين لأن والدة جايسون لم تستمع إليه، وأنها وثقت بها. كل ما يهم الآن هو أن جايسون على قيد الحياة. أملت فقط أن يبقى على هذه الحال. فمع كل محاولة، يصبح معرضاً أكثر للخطر. مقارنة مع ذلك، تبدو حفلة ابنتها الصغيرة التي أقامتها ليلة السبت مثل لعبة أولاد، وهذه هي الحقيقة على أي حال. كانت لا تزال تفكّر في الأمر حين دخل سام غرفتها في الظلام وجاء ليقف قرب سريرها.

سأل بحزن «هل أستطيع النوم في سريرك أمي، أظن أن هناك غوريلا في خزانتي».

«طبعاً حبيبي». تحركت في السرير، وأفسحت له المجال، فيما عانقها ونام بقربها. تساءلت ما إذا كان يجدر بها أن تشرح له عدم وجود غوريلا في خزانته، أم تتجاهل الأمر.

«أمي؟»، كان يهمس بقربها وهو يشعر بالدفء معها.

«نعم؟».

«بالنسبة إلى الغوريلا... إنها من اختراعي».

«أعرف». ابتسمت له في الظلام، وقبّلت وجنته، وبعد برهة، ناما.

الفصل الثالث

كانت ماكسين في عيادتها في تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. عاينت المرضى، الواحد تلو الآخر، حتى فترة الظهر ثم توجهت إلى لونغ آيلند لرؤية جايسون وكسلير في سيلفر باينز، ووصلت إلى هناك عند الساعة الواحدة والنصف. الشيء الوحيد الذي أكلته هو نصف موزة في أثناء القيادة، وردّت على الاتصالات الهاتفية وهي تقود. أنجزت كل شيء، وكانت مرتاحة لجدول مواعيدها حين وصلت إلى هناك.

أمضت ساعة بمفردها مع جايسون، والتقت بالطبيب النفسي المناوب الذي شهد أحداث الليلة الماضية، وتحدثت إلى والدة جايسون لنصف ساعة. كانوا جميعاً ممتنين لوجوده في سيلفر باينز، ولأن محاولته الثالثة للانتحار أخفقت. أسرعت هيلين إلى الإطراء على ماكسين، وقالت لها إنها محقة. ارتعدت لمجرد التفكير في ما كان ليحصل لو أصرّت على اصطحابه إلى المنزل. ثمة احتمال كبير أنه كان سينجح في الانتحار هذه المرة. على عكس ما اقترح طبيب هيلين، لم تكن هذه التصرفات للفت الانتباه. أراد جايسون الموت. كان مقتنعاً تماماً أنه قتل والده، كانت تنتابه مشاعر متناقضة حياله طوال حياته، ونظراً إلى المناقشة الحادة التي حصلت بينهما في الليلة السابقة لموت والده، بقي جايسون مقتنعاً أن تظافر كل هذه الظروف هو ما قتله. سيحتاج الأمر إلى أشهر، أو حتى إلى سنوات، لإفهامه عكس ذلك لتبديد شعوره بالذنب. عرفت هيلين وماكسين أن فترة التعافي ستكون طويلة مع جايسون. وعلى عكس الآمال الأولية لأمه، لن يعود إلى المنزل خلال الميلاد. تأمل ماكسين الآن أن تتمكن من إبقائه هنا لمدة تتراوح بين ستة أشهر إلى سنة، بالرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً لقول ذلك لأمه. إنها مصدومة كثيراً من فكرة نجاحه تقريباً في شنق نفسه

الليلة الفائتة. لقد أخبر أمه هذا الصباح أنه إذا أراد قتل نفسه، فسيفعل. ما من شيء سيردعه. المحزن أن ماكسين أدركت من تجربتها أنه محق. ما عليهم فعله الآن هو شفاء روحه المجروحة، وسيستغرق ذلك بعض الوقت.

كانت ماكسين مجدداً على الطريق السريعة عند الساعة الرابعة، ووصلت إلى عيادتها بعد الخامسة بقليل نتيجة ازدحام السير على الجسر. لديها موعد مع مريض عند الخامسة والنصف، وكانت تتحقق من كدسة الرسائل حين تلقّت اتصالاً من طبيب هيلين، الدكتور ويست. فكّرت في عدم الرد على الاتصال، مفترضة أنه اتصل لأجل الموضوع نفسه الذي سمعته منه في اليوم السابق، ولم تكن في مزاج جيد. وبالرغم من أنها تبقى دوماً محترفة في تعاطيها مع مرضاها، وتحتفظ بحدود جيدة، حزنت كثيراً لأجل جايسون وأمه. إنه شاب ودود، وقد عانى من المشاكل ما يكفي لحياة كاملة. ردت على الاتصال على مضض، وحضرت نفسها لسماع صوته المتعجرف.

«نعم؟ الدكتورة ويليامز تتكلم».

«أنا تشارلز ويست». على عكسها هي، لم يعرّف عن نفسه بلقبه، ولاحظت من صوته أنه يبدو حزيناً، وهذا ما لم تكن تتوقعه. كان الصوت ناعماً وبارداً، وبالكاد بشرياً فيما تابع الكلام. «تلقيت اتصالاً من هيلين وكسلير هذا الصباح بشأن جايسون. كيف حاله؟».

بقيت ماكسين متحفّظة وبعيدة. فهي لا تثق به. سيجد على الأرجح خطأً في شيء فعلته، ويصرّ على إعادة جايسون إلى المنزل، بالرغم من حماقة ذلك، لكنها رأت أنه قادر على ذلك بعد تعليقاته في اليوم الفائت.

«مثلما تتوقع. كان مسكّناً حين رأيته، وإنما بدا متماسكاً. يتذكر ما فعله ولماذا. كنت واثقة تماماً من أنه سيحاول الانتحار مرة جديدة، بالرغم من أنه وعد أمه بألا يفعل. يشعر بالكثير من الذنب حيال والده». هذا هو بالضبط ما ترغب بقوله له، وأكثر من كاف لتبرير أفعالها. «ليس هذا مستغرباً، لكنه يحتاج إلى بعض الوسائل البنّاءة للتعاطي مع المسألة، وليس الانتحار إحداها».

«أعرف. أنا آسف. اتصلت بك لأقول إنني فعلاً آسف لأني بدوت أحمق البارحة. هيلين مقربة جداً منه، ولطالما كانت كذلك. فهو الولد الوحيد الذي بقي على قيد الحياة. لا أظن أن زواجهما كان جيداً». عرفت ماكسين ذلك لكنها لم تعلّق. فما تعرفه لا يخصه أبداً. «تصورت فقط أنه يحتاج إلى الانتباه، فأنت تعرفين كيف هم الشباب في مثل عمره».

قالت ماكسين ببرود: «نعم أعرف، لكن معظمهم لا يحاولون الانتحار للفت الانتباه، تكون لديهم عادة أسباب قاهرة، وأظن أن جايسون يعتقد أن لديه أسباباً قاهرة. سنحتاج إلى عمل الكثير لإقناعه بعكس ذلك».

قال بلطافة: «أنا واثق تماماً من أنك تستطيعين فعل ذلك». تفاجأت كثيراً كم بدا متواضعاً، وهذا مختلف تماماً عن حاله في اليوم السابق. «أنا محرج للاعتراف بذلك، لكنني بحثت عنك عبر الإنترنت. لديك لائحة من أوراق الاعتماد المهمة أيتها الطبيبة». تأثر كثيراً، وشعر بالإحراج لأنه اعتبرها مجرد تافهة من بارك أفنيو تستفيد من آل وكسلير، وتضخّم المشاكل أكثر من اللزوم. قرأ سيرتها الذاتية، والجامعات التي درست فيها، وشهاداتها التي نالتها، ولاحظ كتبها، ومحاضراتها، واللجان التي تعمل فيها، ويعرف الآن أنها حاضرت في العديد من المدارس في كل أرجاء البلاد بشأن الصدمة عند الأولاد الصغار، وأن الكتاب الذي ألفته حول الانتحار عند المراهقين هو أفضل عمل مكتوب حول الموضوع. إنها قوة أساسية وسلطة مهمة في مجالها. هو الذي لا يبدو أحداً مقارنة معها، وبالرغم من أنه يتحلّى بمقدار معين من الثقة بالنفس، لم يستطع إلا أن يتأثر فيها، أي شخص كان ليفعل ذلك.

قالت ماكسين بعفوية: «شكراً لك دكتور ويست. عرفت أن جايسون كان جدياً في محاولته الثانية. هذا ما أفعله».

«تستحقين أكثر من ذلك. أردت فقط أن أعتذر منك اليوم لأنني كنت أحمق البارحة. أعرف مقدار الألم الذي يمكن أن تشعر به هيلين، وهي تتعرض للكثير منه هذه الأيام. أنا طبيبها منذ خمسة عشر عاماً، وأعرف جايسون منذ ولادته. كان زوجها أحد مرضاي أيضاً. لم أدرك أبداً أن

جايسون يواجه هذا القدر من المشاكل».

«أظن أن المشاكل بدأت قبل موت والده. لقد أثّر فيهم موت أخته كثيراً، وهو في عمر حرج. فالشباب في عمر السادسة عشرة يكونون ضعفاء جداً، وهناك الكثير من التوقعات في هذه العائلة، على الصعيد الأكاديمي وغير ذلك. الولد الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وكل ذلك. ليس الأمر سهلاً عليه. وجاء موت والده ليفجر كل شيء».

«أفهم ذلك الآن. أنا آسف فعلاً». بدا صريحاً جداً، مما أثر فيها.

«لا تقلق بشأن ذلك. نسيء جميعاً الحكم على الأمور. ليس هذا مجالك. أنا لا أجري أبداً تشخيصات في داء السحايا أو داء السكري. لهذا السبب، نتخصص في مجالات محددة أيها الطبيب. هذا لطف منك أنك اتصلت». كان متواضعاً جداً وهو آخر شخص توقعت منه فعل ذلك. «يجدر بك الانتباه إلى هيلين. إنها متأثرة كثيراً. أحلتها إلى طبيب نفسي ينجز عملاً دقيقاً وممتازاً، لكن وجود جايسون في المستشفى خلال الأشهر القليلة المقبلة، ولا سيما خلال فترة الاحتفالات والعطلات، لن يكون سهلاً عليها. أنت تعرف كيف تكون الحال مع مثل هذه الأمور، ذلك النوع من التوتر الذي يضرب أحياناً جهاز المناعة». لقد ذكرت هيلين أمام ماكسين أنها تعرضت لزكام قوي ثلاث مرات، وعانت من صداع الشقيقة بعد موت زوجها. لذا، فإن محاولات جايسون الثلاث للانتحار ومكوثه في المستشفى لن يحسّنا حالتها على الأرجح، ويعرف تشارلز ويست ذلك أيضاً.

«سأبقي عينيّ عليها. أنت محقة، طبعاً. أقلق دوماً على مرضاي بعد موت زوج أو ولد. بعضهم ينهار مثل منزل الورق، بالرغم من أن هيلين قوية كفاية. سأتصل بها، وأتحقّق من حالها».

قالت ماكسين بصراحة: «أظن أنها مصدومة بعد الليلة الفائتة».

«ومن لا يكون كذلك؟ لا أولاد لدي، لكنني لا أستطيع تخيل أمر أسوأ، وقد خسرت هي ابنة قبلاً، وعلى وشك خسارة الثاني الآن، بعدما ترمّلت. ما من شيء أسوأ من ذلك».

قالت ماكسين بحزن: «نعم، صحيح، كادت أن تخسره أيضاً. حمداً لله أن ذلك لم يحصل. سنبذل كل ما في وسعنا لعدم حصول ذلك. هذه مهمتي».

«أنا لا أحسدك. لا بد من أنك تواجهين عملاً صعباً».

قالت بهدوء وهي تلقي نظرة على ساعتها: «نعم». سيصل مريضها التالي بعد خمس دقائق. قالت مجدداً: «لطف منك أنك اتصلت». وهي تحاول إنهاء المكالمة، وكانت تعني ذلك فعلاً. لا ينزعج الكثير من الأطباء من ذلك.

«أعرف الآن إلى من أحيل مرضاي الذين لديهم أولاد يعانون من المشاكل».

«معظم ما أفعله هو معالجة الصدمات التي يتعرّض لها الأولاد الصغار. بصفتي معالجة، يكون الأمر أقل توتراً من العمل فقط مع مراهقين حاولوا الانتحار. أتعاطى مع التأثيرات طويلة الأمد للأوضاع الأساسية الصادمة، مثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر».

«شاهدت مقابلتك في مجلة نيويورك تايمز عبر شبكة الإنترنت. كانت رائعة».

«نعم». كتابها الثاني تناول الأحداث العامة والوطنية التي تولّد صدمة لدى مجموعات كبيرة من الأولاد. لقد شاركت في دراسات ومشاريع أبحاث عدة، وتحدثت مرات عدة أمام الكونغرس.

«إذا وجدت أن هناك ما يجدر بي معرفته بشأن هيلين، أو جايسون، أبلغيني. فالأشخاص لا يقولون لي دوماً ماذا يجري معهم. هيلين جيدة في ذلك، لكنها أيضاً كتومة جداً. فإذا عرفت شيئاً مهماً، اتصلي بي».

«سأفعل». رنّ الجرس الداخلي لعيادتها. وصلت مريضة الساعة الخامسة والنصف في الموعد المحدد. إنها فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تعاني من الأنوركسيا، وأصبحت أفضل حالاً مما كانت عليها في العام الماضي، بعد إدخالها لمدة ستة أشهر إلى المستشفى في يال. قالت

ماكسين بسرور: «شكراً مجدداً على الاتصال. هذا لطف منك». لم يكن رجلاً سيئاً في النهاية. فالاتصال بها لإبلاغها بأنه أخطأ هو أمر محترم جداً.

قال لها: «أبداً». ثم أقفلا الخط. نهضت ماكسين عن كرسيها، وأدخلت فتاة شابة جميلة إلى عيادتها. لا تزال نحيلة جداً وتبدو أصغر من عمرها. بدت في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، بالرغم من أنها على وشك بلوغ الخامسة عشرة. لكنها كادت تموت بسبب الأنوركسيا في العام الماضي، ومع ذلك فإن الأمور تتحسن. لا يزال شعرها لا ينبت كما يجب، وقد خسرت أسناناً عدة خلال مكوثها في المستشفى، وستكون مسألة قدرتها على إنجاب الأولاد دقيقة، تطرح الكثير من التساؤلات، وتحتاج إلى دراسة وعلاج. إنه مرض خطير.

قالت ماكسين بحرارة: «مرحباً جوزفين، تفضلي». وهي ترافقها إلى الكرسي المألوف فتقوقعت عليه الفتاة المراهقة مثل الهرة الصغيرة مع عينين كبيرتين بحثتا عن عيني ماكسين.

في غضون دقائق قليلة، اعترفت لوحدها بأنها سرقت بعض الحبوب الملينة للمعدة الخاصة بأمها هذا الأسبوع، لكنها لم تستعملها بعدما فكرت ملياً. أومأت ماكسين برأسها، وتحدثتا عن الأمر بعد ذلك، إضافة إلى أشياء أخرى. التقت جوزفين بشاب أعجبها، بعد أن عادت الآن إلى المدرسة، وهي تشعر بالتحسن حيال نفسها. إنها طريق طويلة وبطيئة وهي تعود من المكان المريع الذي كانت فيه، حين وصل وزنها إلى ستين باونداً فقط في الثالثة عشرة من عمرها. أصبح وزنها خمسة وثمانين باونداً الآن، ولا تزال نحيلة نسبة إلى طولها، لكنها لم تعد في وضع كارثي. هدفهما الحالي هو الوصول إلى وزن مئة باوند. وفي الوقت الحاضر، لا تزال تكتسب باونداً إضافياً كل أسبوع، من دون أي خسارة في الوزن.

ستعاين ماكسين مريضاً آخر بعدها، وهي فتاة في السادسة عشرة من عمرها جرحت نفسها، وعانت من ندوب كبيرة على ذراعيها، فغطتهما، وحاولت الانتحار مرة حين كانت في الخامسة عشرة من عمرها. تم

استدعاء ماكسين من قبل طبيب العائلة، وهما يتعاونهما معاً في علاج الفتاة يحرزان تقدماً بطيئاً وإنما مطرداً.

اتصلت ماكسين بسيلفر باينز قبل مغادرتها العيادة، وقيل لها إن جايسون ارتدى سروال الجينز وانضم إلى بقية المرضى لتناول العشاء. لم يتحدث كثيراً، وعاد إلى غرفته مباشرة بعد ذلك، لكنها البداية. لا يزال تحت المراقبة، وسيبقى كذلك لفترة، إلى أن يشعر الطبيب المناوب وماكسين بالارتياح حياله. لا يزال مكتئباً جداً، ومعرّضاً كثيراً للخطر، لكنه على الأقل بأمان في سيلفر باينز. ولهذا السبب أرسلته إلى هناك.

صعدت ماكسين في مصعد بنايتها عند الساعة السابعة والنصف وبدت مرهقة. حين دخلت الشقة، ركض سام مسرعاً إليها، وهو يرتدي زيّ ديك رومي ويصدر أصواتاً عالية، فابتسمت له ابتسامة عريضة. من الجيد العودة إلى المنزل. كان يوماً طويلاً، ولا تزال حزينة على جايسون. إنها تهتم كثيراً لمرضاها.

قالت له: «انتهت مناسبة التنكر!»، فيما توقف، وابتسم لها ابتسامة عريضة، وركض نحوها ليلف ذراعيه حول خصرها ومعانقتها. كاد يوقعها أرضاً حين فعل ذلك. إنه ولد صغير وقوي.

قال بفخر: «أعرف. أنا الديك الرومي في مسرحية المدرسة».

«أعطوك الدور المناسب». علّق جاك بينما دخل المنزل وهو يرتدي ثياب كرة القدم وينتعل الحذاء الرياضي المناسب، وخلّف وراءه آثاراً وكتلاً من الوحل على السجادة، وهذا لا يهمه أبداً. كان يحمل مجموعة من ألعاب الفيديو التي استعارها من صديقه.

«سيجنّ جنون زيلدا»، حذرته أمه، وهي تلقي نظرة على السجادة، وما إن قالت ذلك حتى ظهرت المربية، وبدأت توبخهم جميعاً.

«سأرمي هذا الحذاء خارجاً، إذا لم تخلعه أمام الباب، جاك ويليامز. ستفسد كل الأرضيات والسجادات! كم مرة يجدر بي قول ذلك لك؟». همهمت بصوت عالٍ، وعادت إلى المطبخ، فيما جلس هو على الأرض،

وخلع الحذاء.

قال متمتماً: «آسف». ثم ابتسم ابتسامة عريضة لأمه. «فزنا على فريق كولجيات اليوم. إنهم أقزام. بكى اثنان منهم عندما خسر فريقهما المباراة». شاهدت ماكسين صبياناً في فريق جاك يبكون أيضاً. فالصبيان يأخذون الرياضة على محمل الجد، ونادراً ما يكونون رابحين أو خاسرين لبقين، حسبما تعلم.

«من الجميل أنكم فزتم. سآتي لحضور المباراة يوم الخميس». لقد خصصت وقتاً في روزنامتها لفعل ذلك. التفتت بعدها صوب سام، وحدقت إلى زيّ الديك الرومي وقالت له: «متى مسرحيتك؟».

قال وهو يبدو مسروراً: «في اليوم السابق لمناسبة الشكر».

«هل يجدر بك تعلّم أي عبارات؟» كركر بصوت عالٍ أمامها للإجابة، فيما سدّ جاك أذنيه، ومشى بعيداً، وصرخت زيلدا من المطبخ: «العشاء بعد خمس دقائق».

خرجت مجدداً لترى ماكسين، وأخفضت صوتها. «انتظرناك». تحاول تأخير العشاء في الليالي التي تعمل فيها ماكسين لوقت متأخر، إلا إذا تأخر الوقت كثيراً على الأولاد. لكنها تنجح في جعل ماكسين تتشارك العشاء مع أولادها. عرفت زيلدا كم هذا مهم لها. إنه أحد الأشياء الكثيرة التي تحبها ماكسين فيها. فلم تكن يوماً حقيرة أو سلبية أو عدائية بشأن إبعاد ماكسين عن أولادها، أو إفساد الأمور عليها، مثلما تفعل مربيات بعض صديقاتها. كانت زيلدا مخلصة لهم بكل ما للكلمة من معنى، وهي كذلك منذ اثني عشر عاماً. ولا ترغب أبداً بالتطفل على دور الأم الذي تؤديه ماكسين مع أولادها.

قالت ماكسين: «شكراً، زيلي». ثم ألقت نظرة سريعة حولها. لم تشاهد ابنتها بعد، وإنما رأت الصبيين فقط. «أين داف؟ في غرفتها؟». عابسة ربما، مثلما افترضت، بعد تأنيبها في اليوم السابق.

قال سام متطوعاً: «استردت هاتفها الخلوي وهي تتصل عبره». قبل

أن تستطيع زيلدا الإجابة، فعبست له المربية. ستخبر ماكسين بنفسها في الوقت المناسب. لطالما تفعل ذلك، وعرفت ماكسين أنها تستطيع الوثوق بها.

وبخته زيلدا «ليست الثرثرة على أختك من الأمور المستحبّة». رفعت ماكسين حاجباً، وتوجهت إلى غرفة دافني. ومثلما قال سام، وجدتها على سريرها، تثرثر بمرح عبر هاتفها الخلوي. قفزت دافني حين شاهدت أمها. تقدمت ماكسين نحوها، ومدّت يدها لاسترداد الهاتف. بدت دافني عصبية، ووضعت الهاتف الخلوي في يد أمها، بعدما قطعت الاتصال فوراً مع صديقتها من دون أن تودعها.

«هل لا يزال اتفاق الشرف قائماً هنا أم أنه يجدر بي إعادة شرحه؟».
لا شك في أن الأمور تتغير مع دافني بوتيرة سريعة. مضى وقت، ليس قبل زمن بعيد، كانت تحترم فيه العقاب ولا تستردّ هاتفها الخلوي من دون إذن. إلا أن عمر الثالثة عشرة يغير كل شيء، ولم تحب ماكسين الأمر.

«آسفة أمي». لم تنظر مباشرة إلى أمها، ثم نادتهما زيلدا إلى العشاء، فتوجها إلى المطبخ وكذلك فعل الصّبيان، كان جاك حافي القدمين، ويرتدي سروالاً قصيراً خاصاً بكرة القدم، فيما دافني لا تزال في الثياب التي ارتدتها إلى المدرسة، وسام يرتدي بفخر زيّ الديك الرومي. نزعت ماكسين سترة طقمها، وانتعلت حذاء مسطحاً. كانت قد انتعلت الكعب العالي طوال اليوم. تبدو دوماً محترفة في العمل، ومسترخية حين تعود إلى المنزل. إذا تسنى لها الوقت، ترتدي سروال الجينز، لكن العشاء انتظر ما يكفي من الوقت، وهي تتضور جوعاً تماماً مثل الأولاد.

كان عشاء مريحاً، وجلست زيلدا معهم، مثلما تفعل دوماً. بدا عملاً حقيراً بالنسبة إلى ماكسين أن تجعلها تأكل لوحدها، ومع عدم وجود والد إلى المائدة، دعتها ماكسين دوماً للانضمام إليهم. تحدث الولدان عما فعلاه خلال اليوم، باستثناء دافني التي تفوهت بالقليل، وعرفت أنها لا تزال مؤنبة. وشعرت بالإحراج من حادثة الهاتف. تصوّرت أن سام هو الذي وشى بها، فحدقت إليه، وهمست له سرّاً أنها ستنتقم منه لاحقاً. تحدث جاك

عن مبارياته، ووعد بمساعدة أمه على إعداد برنامج كمبيوتر جديد. كانت معنويات الجميع جيدة، وعاد كل منهم إلى غرفته بعد العشاء، بما في ذلك ماكسين، التي كانت مرهقة بعد يوم عمل طويل. بقيت زيلدا في المطبخ للتنظيف. بينما ذهبت ماكسين إلى غرفة دافني للتحدث إليها.

سألت ابنتها من الباب «مرحباً، هل أستطيع الدخول؟». تطلب الإذن عادة، خصوصاً في الوقت الحاضر. أجابت دافني «كما تريدين»، وعرفت ماكسين أن هذا جيد كفاية نظراً إلى العقاب وحادثة الهاتف.

دخلت ماكسين الغرفة، وجلست على السرير حيث كانت دافني مستلقية لمشاهدة التلفاز. أنجزت فروضها المنزلية قبل عودة أمها إلى المنزل. إنها تلميذة جيدة، وتنال علامات جيدة. جاك أكثر شروداً قليلاً، نظراً إلى شغفه بألعاب الفيديو، وليس لدى سام أي فروض منزلية بعد.
«أعرف أنك غاضبة مني بشأن العقاب، داف، لكنني لم أحب الحفلة. أريد أن أتمكن من الوثوق بك وبأصدقائك، خصوصاً إذا خرجت من المنزل».
لم تجب دافني، وإنما نظرت بعيداً، ثم التفتت أخيراً نحو أمها والامتعاض بادٍ في عينيها.

«لم تكن هذه فكرتي. لقد أحضرت إحداهن الشراب».

«أنت سمحت بحصول ذلك. وأفترض أنك شربت أيضاً. منزلنا لا يقبل بهذا دافني. كذلك ثقتي بك. لا أريد لأي شيء أن يفسد ذلك». عرفت من دون ريب أن شيئاً ما سيؤدي إلى حصول ذلك. هذا متوقع في عمر دافني، وتفهم ماكسين ذلك، لكن عليها أيضاً تأدية دور الأم. لا تستطيع فقط الادعاء أن هذا لم يحصل، ومن دون أن تتفاعل معه. عرفت دافني ذلك أيضاً. شعرت بالأسف لأنه تم افتضاح أمرهنّ.

«نعم، أعرف».

«يجب على صديقاتك احترامنا حين يأتين إلى هنا. ولا أظن أن حفلات كتلك هي فكرة رائعة».

قالت ابنتها بإلحاح، وهي ترفع ذقنها: «ثمة أولاد آخرون يفعلون

أموراً أسوأ». وعرفت ماكسين ذلك. لا بل أسوأ. فهم يدخّنون الحشيشة، أو يستعملون حتى المقويات، أو يشربون المشروبات القوية، وبانت الكثير من الفتيات هذه الأيام يقمن بما تقوم به النساء الكبيرات وهن في عمر دافني. تسمع ماكسين عن ذلك بشكل منتظم في مهنتها.

«لأنه مناقض لقواعدنا. وإذا بدأت بخرق بعض القواعد، أين ستتوقفين؟ هناك اتفاقات معينة بيننا، شفوية أو غير ذلك، وعلينا احترامها، أو إعادة التفاوض بشأنها في مرحلة معينة، ولكن ليس في الوقت الحاضر. لكن القواعد تبقى قواعد. أنا لا أحضر رجالاً إلى المنزل وأقيم حفلات هنا. تتوقعين مني التصرف بطريقة معينة، وأنا أفعل ذلك. ولا أجلس في غرفتي وأتناول الشراب حتى أصبح في حالة يرثى لها، ويغمى عليّ ليلاً. كيف ستشعرين إذا فعلت ذلك؟». ابتسمت دافني رغماً عنها عند تخيل أمها في هذا المنظر المستبعد.

«لا تخرجين أبداً مع أي رجل على أي حال. الكثير من أمهات صديقاتي يحضرن أصدقاءهم إلى المنزل. أما أنت، فليس لك صديق». كانت الكلمات تهدف إلى الأذى، وأصابت هدفها، قليلاً.

«حتى لو كان لديّ صديق، لن أفعل ما يجعلني في حالة يرثى لها. حين تكبرين قليلاً، يمكنك تناول الشراب معي، أو أمامي. لكنك لست في السن القانونية التي تتيح لك فعل ذلك بعد، وكذلك هنّ صديقاتك، ولا أريد أن يحصل هذا الشيء هنا. ليس في عمر الثالثة عشرة».

ثم أضافت «نعم، أعرف، سمح لنا البابا بشرب الشراب الفرنسي خلال الصيف الماضي في اليونان. حتى إنه قدّم القليل لسام، ولم يجنّ جنونه».

«هذا مختلف. كنت معه. هو الذي أعطاك الشراب الفرنسي، ولم تشربيه في السر، بالرغم من أنه عليّ الاعتراف أنني لا أرحب كثيراً بذلك أيضاً. ما زلتم جميعاً صغاراً على هذا. لا داعي لبدء ذلك الآن». لكن هذا هو بلايك، وأفكاره مختلفة كثيراً عن أفكارها، ولا توجد أبداً أي قواعد

على نفسه وأولاده. كما أنه يحضر نساء معه، إذا أمكن اعتبارهنّ نساء. فمعظمهن مجرد فتيات شابات، وحين يكبر الأولاد في يوم من الأيام، ستكون النساء اللواتي يخرج معهنّ والدهم بعمرهم تقريباً. رأت ماكسين أنه يتساهل كثيراً معهم، لكنه لا يصغي أبداً إلى ما تقوله. ذكرت الأمر أمامه مرات عدة، وكل ما فعله هو الضحك وتكرار الأمر مجدداً.

«حين أصبح أكبر سنّاً، هل تسمحين لي بفعل هذا هنا؟». كانت دافني تتحقق من الأمور.

«ربما. إذا كنت موجودة. لكنني لن أسمح لصديقاتك بفعل هذا هنا إذا كنّ تحت السن القانونية. قد أواجه الكثير من المشاكل بسبب ذلك، خصوصاً إذا حدث خطب ما أو تأذى شخص ما. ليست هذه فكرة جيدة». كانت ماكسين شخصاً يعتقد بشدة بالقواعد، وتتبعها بحذافيرها. عرف أولادها ذلك، وكذلك كل الأشخاص الآخرين، بمن فيهم بلايك.

لم تعلّق دافني. لقد سمعت هذا الكلام قبلاً، حين ناقشتا الموضوع. عرفت أن الأهل الآخرين يفرضون قواعد أقل صرامة، أو حتى لا يفرضون قواعد على الإطلاق، وهناك أهل مثل أمها. إنه حظ القرعة. وقف سام عند الباب بزيّ الديك الرومي وهو يبحث عن أمه.

«هل يجدر بي الاستحمام الليلة، أمي؟ انتبهت كثيراً. لم أوسخ نفسي أبداً اليوم». ابتسمت ماكسين رداً عليه، وشغّلت دافني التلفاز، وهذه إشارة إلى أمها بأنها سمعت ما يكفي ولا تريد سماع المزيد. انحنت ماكسين لتقبيلها، وغادرت الغرفة مع ابنها الصغير.

«لا أبالي كم كنت منتبهاً اليوم. نعم، عليك الاستحمام».

«هذا مقرف». كانت زيلدا تنتظر عابسة، وتركت لها ماكسين سام، ثم توقفت للتحقق من أن جاك قد أنجز كل فروضه المنزلية، وعادت إلى غرفتها، وشغّلت التلفاز. إنها ليلة جميلة وهادئة في المنزل، من النوع الذي تحبه كثيراً.

فكرت في ما قالته لها دافني، بأنها لا تخرج أبداً مع رجال. لم يكن

هذا صحيحاً تماماً. فهي تذهب إلى حفلات عشاء بين الحين والآخر، يقيمها أصدقاء قدامى أو أزواج من أيام زواجهما. تذهب إلى الأوبرا، والمسرح، والباليه، لكنها تعرف أنها لا تفعل ذلك دائماً. يبدو لها هذا بمثابة جهد كبير عليها بذله، وتحب البقاء في المنزل بعد يوم عمل طويل. تذهب إلى السينما مع أولادها، وتشارك في حفلات عشاء الأطباء التي لا تستطيع التهرب منها. لكنها تعرف أن ما تقصده دافني صحيح تماماً. لم تواعد ماكسين رجلاً منذ سنة. يزعجها الأمر أحياناً، خصوصاً حين تعي مرور الوقت. إنها في الثانية والأربعين من عمرها، ولم تقم علاقة جدية مع رجل بعد بلايك. تواعد رجالاً بين الحين والآخر، لكنها لم تلتق برجل يشعل جنونها منذ أعوام، ولم تتح لها فرصة اللقاء به. فهي تكون إما في العمل أو مع الأولاد، ومعظم الأطباء الآخرين الذين التقت بهم كانوا متزوجين، أو يبحثون عن مغامرات تؤدي بهم في النهاية إلى خداع زوجاتهم، وليس هذا ما تريده. الرجال الجذابون والصالحون في العقدين الرابع والخامس باتوا نادرين. فكل الرجال الجيدين متزوجون، أو يبدون كذلك، فيما البقية هم رجال يخافون من الارتباط، أو يريدون الخروج مع نساء صغيرات في السن. فالعثور على رجل لإقامة علاقة معه ليس أمراً سهلاً مثلما يبدو، وهي لا تسعى وراء ذلك. تصوّرت أنه إذا كان مقدراً لذلك أن يحصل يوماً ما، فسيحصل. وفي غضون ذلك، تشعر بالارتياح.

مباشرة بعد انفصالها عن بلايك، تصوّرت دوماً أنها ستعثر على رجل آخر، أو ربما تتزوج مجدداً، لكن هذا الاحتمال يتضاءل شيئاً فشيئاً كل سنة. بلايك هو الشخص الذي يستمتع بحياة عاطفية نشطة مع فتيات شابات مذهلات. أما ماكسين فتبقى في المنزل ليلة بعد ليلة، مع أولادها ومربيتهم، وليست واثقة من أنها تريد الأمور بطريقة مختلفة. لا شك في أنها لا تقايض الوقت مع أولادها بموعد غرامي. وفي النهاية، ما السوء في ذلك؟ فعلى سبيل المثال، سمحت لنفسها بالتفكير في الليالي التي أمضتها بين ذراعي زوجها، ترقص معه، وتضحك معه، وتمشي على الشاطئ معه، وما إلى ذلك. من المخيف قليلاً التفكير في أن هذه الأمور لن تعود مجدداً

إلى حياتها. لكن إذا كان ذلك قدرها،، فهي راضية به. لديها أولادها، وما الذي تحتاج إليه غير ذلك؟ لطالما قالت لنفسها إن هذا كافٍ.

كانت تفكر في الأمر حين دخل سام بعد انتهائه من الاستحمام وهو يرتدي ثياب نوم نظيفة بينما بقي حافي القدمين، وكانت رائحة الشامبو تفوح من شعره الرطب، فقفز إلى سريرها. «في ماذا تفكرين، أمي؟ تبدين حزينة؟». ما قاله أيقظها من حلمها، فابتسمت له.

«لست حزينة، حبيبي. كنت أفكّر فقط في المشاكل».

«مشاكل الكبار؟»، سأل باهتمام، فيما رفع صوت التلفاز بواسطة آلة التحكم عن بعد.

«نعم، نوعاً ما».

«هل أستطيع النوم في سريرك الليلة؟». على الأقل لم يخترع قصة الغوريلا هذه المرة، فابتسمت له.

«طبعاً. يبدو هذا جيداً لي». تحب هذا الإحساس حين ينام بجانبها. يعانقها بحنان، مما يعطيهما الإحساس بالراحة التي يحتاجان إليها. مع وجود الصغير في سريرها خلال الليل، متقوقعاً قربها، ما هو الشيء الآخر الذي تريده؟ لا يمكن لأي موعد غرامي أو علاقة عاطفية أن تكون جميلة بهذا القدر.

الفصل الرابع

في صباح مناسبة الشكر، مرّت ماكسين على الأولاد في غرفهم. كانت دافني مستلقية على سريرها تتحدث إلى صديقة عبر الهاتف الخلوي، الذي أعيد إليها بطريقة رسمية. ظلّت محتجزة وممنوعة من الحياة الاجتماعية، لكنها استعادت على الأقل هاتفها. أما جاك فكان جالساً أمام كمبيوتره، وهو يرتدي قميصاً أزرق وسروالاً رمادياً وسترة، وساعدته ماكسين على عقد ربطة العنق. أما سام فلا يزال في ثياب النوم، وقد اقترب من التلفاز بحيث بدا ملتصقاً به، يشاهد استعراض مايسي لمناسبة الشكر. غادرت زيلدا في وقت باكر من الصباح لتمضية اليوم مع صديقة تعمل لدى عائلة في وستشستر، وتقيم غداء مناسبة الشكر لمجموعة من المربيات اللواتي تعرفهن. إنهن سلالة خاصة، يهبن حياتهن للأولاد الذين يهتمن بهم ويحببنهم، من دون أن يكون لهنّ أولاد.

أحضرت ماكسين ثياب سام له، وذكّرت دافني بضرورة إقفال الهاتف وارتداء ثيابها. دخلت ابنتها إلى حمامها بينما بقي هاتفها الخلوي ملتصقاً بأذنها، وأقفلت الباب وراءها. عادت ماكسين إلى غرفتها للاستعداد. إنها تنوي ارتداء طقماً لونه بيج مع كنزة متناغمة من الكشمير، وانتعال حذاء عالي الكعب. لبست الكنزة، وبدأت تمشط شعرها.

بعد عشر دقائق، دخل سام وقد زرّر قميصه بطريقة غير صحيحة، وأبقى سحاب بنطاله مفتوحاً، وكان شعره غير مرتب، فابتسمت له ابتسامة عريضة.

«هل أبدو جيداً؟»، سأل بثقة، بينما كانت تمشّط شعره، وتطلب منه إغلاق سحابه.

قال مبتسماً: «آه»، فيما زرّرت له القميص، وطلبت منه إحضار

ربطة عنقه. إلا أنه تذمر. «هل يجدر بي وضعها أيضاً؟ إنها تخنقني».

«إذاً، لن نعقدها بإحكام. يضع جدك دوماً ربطة عنق، وسيضع جاك واحدة اليوم».

قال سام مع نظرة متألمة: «لكن أبي لا يضع أبداً ربطة عنق».

قالت ماكسين بصرامة: «بلى، يفعل ذلك، يضعها حين يخرج».

«لم يعد يفعل ذلك».

«حسناً، عليك وضعها يوم مناسبة الشكر. ولا تنس إحضار حذائك». عرفت أنه يفضل انتعال حذائه الرياضي حين ذهابه لتناول الغداء في منزل جده. حين عاد إلى غرفته لإحضار ربطة عنقه وحذائه، ظهرت دافني عند الباب وهي ترتدي تنورة سوداء قصيرة، وجوربين أسودي اللون، وتنتعل حذاء عالي الكعب. جاءت إلى غرفة أمها لاستعارة كنزة أخرى. كنزتها الوردية المفضلة، وتلألأ القرطان الماسيان الصغيران في أذنيها. أعطتها ماكسين هذين القرطين لمناسبة ذكرى ميلادها الثالثة عشرة، وسمحت لها بثقب أذنيها. وهي تريد الآن ثقب أذنيها مرة أخرى. جميع الفتيات في المدرسة ثقبن آذانهن مرتين على الأقل. لم تستسلم ماكسين حتى الآن، وبدت ابنتها جميلة مع شعرها الداكن المصفف بنعومة حول وجهها. أعطتها ماكسين كنزة رمادية بدلاً من الكنزة الوردية التي أرادتها، فيما دخل سام وهو يحمل حذاءه، وبدا الارتباك على وجهه.

قال وهو يبدو مسروراً: «لا أستطيع العثور على ربطة عنقي».

قالت ماكسين بصرامة: «بلى، تستطيع. اذهب وفتش مجدداً».

قال: «أكرهك». وهو الجواب المتوقع، فيما ارتدت ماكسين طقمها، وانتعلت الحذاء عالي الكعب، ووضعت قرطين من اللؤلؤ في أذنيها.

بعد نصف ساعة، انتهوا جميعاً من ارتداء ثيابهم، ووضع الصبيّان ربطتي عنقهما، وارتديا معطفي التزلج فوق سترتيهما، فيما ارتدت دافني معطفاً أسود قصيراً ذا ياقة صغيرة من الفرو اشتراه لها بلايك لمناسبة ذكرى ميلادها. بدوا جميعاً مرتبين ومحترمين وحسني المظهر، ومشوا المسافة

القصيرة في بارك أفنيو للوصول إلى شقة جدّيهم. أرادت دافني طلب سيارة أجرة، لكن ماكسين قالت إن السير على الأقدام سيفيدهم. إنه يوم جميل ومشمس من شهر نوفمبر، ويتطلع الأولاد إلى وصول والدهم بعد ظهر هذا اليوم. سيأتي من باريس، وسيصلون إلى شقته في الوقت المناسب لتناول العشاء. وافقت ماكسين على الذهاب معهم. من الجيد رؤية بلايك.

تمنى لهم البوّاب في بناية أهلها يوم شكر سعيداً وهم يدخلون المصعد. كانت والدة ماكسين تنتظرهم عند الباب حين خرجوا من المصعد. إنها تشبه ماكسين كثيراً، لكنها أكبر سناً وأثقل وزناً، ووقف والد ماكسين مباشرة خلفها مبتسماً ابتسامة عريضة.

قال بلطافة: «أعزائي، أعزائي، كم تبدون رائعين». قبّل ابنته أولاً، وصافح الصبيين، فيما قبّلت دافني جدتها، وابتسمت لجدها الذي عانقها.

قالت بنعومة: «مرحباً جدي». ولحق الأولاد بجديهم إلى غرفة الجلوس. زيّنت الجدة المكان بعدة باقات جميلة من أزهار الخريف، وبدت الشقة مرتبة وأنيقة كثيراً. كان كل شيء مرتباً وفي مكانه، وجلس الأولاد بتهذيب على الأريكة والكراسي. عرفوا أنه ينبغي عليهم التصرف جيداً في منزل جدّيهم. جدّاهم لطيفان وحنونان، لكنهما غير معتادين على وجود الكثير من الأولاد في المنزل دفعة واحدة، وخصوصاً الصّبيان منهم. أخرج سام مجموعة من ورق اللعب من جيبه، وبدأ يلعب لعبة السمكة مع جده، فيما توجهت ماكسين مع أمها إلى المطبخ للتحقق من الديك الرومي. كان كل شيء محضّراً ومجهزاً بعناية؛ الأواني الفضية اللامعة، الشراشف المكوية بعناية، الحبش المطهو، والخضار قيد الطهو. الاجتماع في مناسبة الشكر هو تقليد يحبونه جميعاً. تستمتع ماكسين دوماً بزيارة أهلها. فقد دعماها طوال حياتها، وخصوصاً بعد طلاقها من بلايك. إنهما يحبانه، لكنهما يعتبران أنه تخطّى الحدود منذ نجاحه الكبير في عالم الإنترنت. ويعجزان تماماً عن تفهّم طريقة عيشه الآن. إنهما قلقان من تأثيره في أولاده، لكنهما مرتاحان لاستمرار تأثير قيم ماكسين وانتباهها الدائم فيهم. إنهما مولعان بأحفادهما ويحبان مجيئهم إليهما ومشاركة المناسبات معهم.

لا يزال والد ماكسين مشغولاً في مهنته، يعلّم ويجري العمليات الجراحية الخاصة، وهو فخور جداً بابنته وبمهنتها كطبيبة. حين قررت الذهاب إلى كلية الطب وحذو حذوه، شعر بسرور كبير. وقد ذهل قليلاً بقرارها للتخصص في المعالجة النفسية، فهذا مجال لا يعرف الكثير عنه، لكنه تأثر بالمهنة، وأيضاً بالسمعة التي حققتها لنفسها في مجالها. وقد وزّع بفخر نسخاً عدة من كتابيها.

تحققت أمها من البطاطا الحلوة في الفرن، ووخزت الديك الرومي مجدداً للتأكد من أنه لم يجفّ، والتفتت صوب ماكسين مبتسمة ابتسامة حنونة. إنها امرأة هادئة ومتحفّظة رضيت طوال حياتها بأن تبقى في الظل، وتدعم زوجها، وهي فخورة بكونها زوجة طبيب. لم تشعر أبداً بالحاجة إلى مزاولة مهنة خاصة. إنها من نوع النساء اللواتي يسعدن بالوقوف إلى جانب أزواجهن، وتربية الأولاد، والبقاء في المنزل بدلاً من العمل طالما لا توجد حاجة مادية ملحة. أنجزت الكثير من العمل الخيري لعصبة الشباب، وتطوعت في المستشفى حيث عمل زوجها، واستمتعت بالقراءة للعميان. كانت راضية وسعيدة، وحياتها هانئة، لكنها قلقت من تحمّل ابنتها الكثير من المسؤولية لوحدها، وعملها بكدّ كبير. يزعجها أكثر مما يزعج زوجها أن يكون بلايك والداً غائباً، بالرغم من أن زوجها لم يشارك مباشرة في تربية ابنته أيضاً. لكن أسباب ذلك، ومهنته التي تتطلّب وقتاً واهتماماً، أكثر قابلية للتفهم والاحترام بالنسبة إلى مارغريت كونورز من هوَس بلايك وسعيه اللامسؤول وراء المتعة. لم تتمكن أبداً من فهم ما يفعله أو كيف يتصرف، ورأت أن صبر ماكسين حيال ذلك مميز فعلاً، ولا سيما تسامحها لفقدانه التام للمسؤولية تجاه أولاده. في الواقع، شعرت بالأسف الكبير على ما يفتقدون إليه، وبالأسف أيضاً على ماكسين. وقلقت من عدم وجود رجل جدي في حياتها.

«كيف حالك عزيزتي؟ مشغولة كما هي الحال دوماً؟»، سألت مارغريت. تتحدث هي وماكسين بضع مرات خلال الأسبوع، لكنهما نادراً ما تقولان شيئاً مهماً. إذا شعرت ماكسين بالحاجة إلى التحدّث، تميل

أكثر إلى مناقشة الأمور مع والدها، الذي يتمتّع برؤية أكثر واقعية للعالم. بقيت أمها محمية جداً خلال الأعوام الخمسين تقريباً من الزواج ولا تستطيع بالتالي أن تكون مفيدة بطريقة عملية. وتكره ماكسين جعلها تشعر بالقلق. «هل تعملين على تأليف كتاب جديد؟».

«ليس بعد. في مهنتي، تحصل بعض الأمور الغريبة التي تثير الجنون قبل فترة الاحتفالات. هناك دوماً مجنون ما يقوم بشيء لوضع الأولاد في خطر أو تعريضهم لصدمة، ويشعر مرضاي المراهقون بالعصبية خلال العطلات والمناسبات، مثل أي شخص آخر. تبدو عطلات المناسبات دوماً وكأنها تقود الجميع إلى الجنون»، قالت ماكسين وهي تساعد أمها على وضع اللفافات في سلة الخبز بعد تسخينها. بدا عشاؤهم فاخراً ورائحته لذيذة. بالرغم من أنها تحظى بالمساعدة خلال الأسبوع، تعتبر أمها طاهية ممتازة، وتفخر بتحضيرها وجبات المناسبات بنفسها. تعدّ دوماً عشاء الميلاد أيضاً، مما يريح ماكسين كثيراً، التي لم تكن يوماً سيدة منزل، وتشبه والدها في نواحٍ عدة. تتمتّع أيضاً برؤيته العملية والواقعية تجاه العالم. إن ميولها علمية أكثر مما هي فنية، وبصفتها المعيلة في عائلتها، فإنها واقعية جداً. حتى هذا اليوم، لا يزال والدها يحرّر الشيكات ويدفع الفواتير. لذا، أدركت ماكسين جيداً أنه إذا حصل له مكروه، فستضيع أمها تماماً في العالم الحقيقي.

«تكون عطلات المناسبات فترة مليئة بالأعمال بالنسبة إلينا أيضاً»، قالت مارغريت فيما أخرجت الديك الرومي من الفرن. بدا وكأنه جاهز ليصوَّر ويُعرض في مجلة. «يبدو وكأن الجميع يكسرون أحد أعضائهم خلال موسم التزلج، وما إن يصبح الطقس بارداً، حتى يبدأ الناس بالسقوط على الجليد وكسر الوركين أو أي عضو آخر في جسدهم». فقد تعرّضت لحادث على الجليد قبل ثلاثة أعوام، وجرى استبدال وركها بعد أن كُسر جرّاء سقوطها. تعافت من المشكلة جيداً. «تعرفين كم يكون والدك مشغولاً في هذه الفترة من السنة».

ابتسمت لها ماكسين، وساعدتها على إخراج البطاطا الحلوة من الفرن، ومن ثم وضعها على الطاولة وسط المطبخ. كانت قشرة الخطمي

التي تغطيها ذهبية اللون. «أبي دائماً مشغول يا أمي».

قالت أمها بفخر: «وأنت أيضاً»، وذهبت لمناداة زوجها لتقطيع الديك الرومي إلى شرائح. حين لحقت بها ماكسين إلى غرفة الجلوس، كان يلعب الورق مع سام، بينما يشاهد الولدان الآخران مباراة كرة القدم على التلفاز. يحب والدها هذه الرياضة كثيراً، وكان جرّاح العظام المعتمد في فريق نيويورك جيتس طوال سنوات. لا يزال يراهم كمرضى في مهنته.

«حان وقت الديك الرومي»، أعلنت أمها فيما نهض والدها للتوجه إلى المطبخ وتقطيع الديك الرومي إلى شرائح. اعتذر من سام، ونظر إلى ابنته مبتسماً ابتسامة عريضة. إنه يمضي وقتاً ممتعاً.

«أظن أنه يغش». علّق والدها على طريقة لعب حفيده.

«حتماً». وافقت ماكسين، فيما اختفى والدها في المطبخ لأداء مهمته.

بعد عشر دقائق، تم تقطيع الديك الرومي إلى شرائح، وأحضره والدها إلى مائدة الطعام، ونادت زوجته الجميع للجلوس إلى المائدة. تجد ماكسين سعادة بالغة في الروتين العائلي، وهي ممتنة لوجودهم جميعاً هنا ولا يزال أهلها بصحة جيدة. أمها في الثامنة والسبعين من عمرها ووالدها في التاسعة والسبعين من عمره، لكنهما لا يزالان في صحة جيدة. يصعب التصديق أن والديها تقدّما في العمر إلى هذا الحدّ.

تلت أمها الدعاء، مثلما تفعل كل سنة، ثم تولى والدها تمرير طبق الديك الرومي على الحاضرين. هناك حشوة، وهلام توت، وبطاطا حلوة، وأرز مسلوق، وبازيلاء، وسبانخ، وهريسة كستناء ولفافات حضرتها أمها من النشاء. إنه احتفال حقيقي.

قال سام: «يمم!»، فيما كدّس البطاطا الحلوة مع طبقة الخطمي في طبقه. أخذ كتلاً من هلام التوت، وحصة كبيرة من الحشوة، وشريحة من لحم الديك الرومي الأبيض، من دون أي خضار على الإطلاق. لم تقل له ماكسين شيئاً، وتركته يستمتع بالوجبة.

كما هي الحال دوماً، تكون المحادثة حيوية عند اجتماعهم مع بعضهم. سألهم جدهم على التوالي عما يفعلونه في المدرسة، واهتم كثيراً لمباريات جاك في كرة القدم. وعند انتهاء الغداء، بالكاد استطاعوا التحرّك لكثرة ما تناولوا من طعام. انتهت الوجبة بتقديم فطائر التفاح واليقطين ومجموعة من بوظة الفانيلا أو الكريما المخفوقة. كان قميص سام فوق البطال حين غادر المائدة، وياقة قميصه مفتوحة، وربطة عنقه محلولة. بدا جاك محترماً أكثر، لكنه نزع ربطة عنقه أيضاً. وحدها دافني بدت مثل سيدة مثالية، وبقيت مثلما كانت حين وصلت. عاد الأولاد الثلاثة إلى غرفة الجلوس لمشاهدة مباراة كرة القدم، فيما جلست ماكسين، واسترخت، وتناولت كوب قهوة مع والديها.

قالت ماكسين بصراحة: «كانت وجبة مذهلة، أمي». تحب الطريقة التي تطهو بها أمها، وتمنت لو أنها استطاعت التعلم منها. لكنها لا تملك هذه المهارة، كما أنها لا تهتم بمسألة الطهو وإعداد الطعام. «طهوك مذهل دوماً»، أضافت، وابتسمت أمها ابتسامة عريضة.

قال والدها: «أمك امرأة مذهلة». وابتسمت ماكسين على النظرة التي تبادلانها. إنهما ظريفان. بعد كل هذه السنوات، لا يزالان مغرمين ببعضهما. سيحتفلان بذكرى زواجهما الخمسين في السنة المقبلة. بدأت ماكسين تفكّر في إحياء حفلة لهما. فالمسؤولية تقع عليها بصفتها الابنة الوحيدة. «يبدو الأولاد رائعين»، علّق والدها فيما تناولت ماكسين قطعة شوكولاته من صينية فضية وضعتها أمها أمامهم وتأوهت. يصعب التصديق أنها تستطيع ابتلاع أي شيء آخر بعد الوجبة العملاقة، لكنها فعلت.

«شكراً أبي. إنهم بخير».

«من المؤسف ألا يراهم والدهم». يقول دوماً هذه العبارة. فبقدر ما استمتع بصحبة بلايك في بعض الأحيان، يرى أنه مخزٍ كوالد.

قالت ماكسين بطريقة عفوية: «سيأتي الليلة». عرفت رأي والدها، ولا تخالفه الرأي كثيراً.

«لكم من الوقت؟». سألت أمها. إنها تشارك زوجها بوجهة نظره أن بلايك هو خيبة أمل كبيرة كزوج ووالد، بالرغم من أنها تستلطفه.

«ربما لعطلة نهاية الأسبوع»، إذا بقي لهذه المدة. فمع بلايك، ما من شيء أكيد البتة. لكنه سيأتي على الأقل، وسيراهم في مناسبة الشكر. ليس هذا أمراً مفترضاً منه بصورة تلقائية ويسعد الأولاد بما يحصلون عليه، مهما كانت الفترة وجيزة.

«متى كانت آخر مرة رآهم فيها؟»، سأل والدها مع عدم موافقة ظاهرة.

«في شهر يوليو. في اليونان على اليخت. أمضوا وقتاً رائعاً».

قال والدها بصرامة: «ليست هذه هي النقطة، يحتاج الأولاد إلى أب. إنه غير موجود أبداً».

قالت ماكسين بصراحة: «لم يكن يوماً موجوداً». ليست مضطرة إلى الدفاع عنه بعد الآن، بالرغم من أنها لا تحب أن تكون غير لطيفة أو تزعج الأولاد عبر تعليقات سلبية عنه، وهذا ما لا تفعله أبداً. «لهذا السبب تطلّقنا. إنه يحبهم، لكنه ينسى إظهار ذلك لهم. هذا مقرف، مثلما يقول سام. لكن يبدو أنهم متكيّفون تماماً مع المسألة. قد يشعرون بالغضب لاحقاً، لكن يبدو أنهم راضون في الوقت الحاضر. يقبلونه كما هو، فهو رجل حنون، يحبهم، ويمكنهم الاستمتاع برفقته كثيراً». هذا تقييم مثالي لبلايك. قطّب والدها حاجبيه، وهزّ رأسه.

«ماذا عنك؟». أضاف وهو قلق دوماً على ابنته. فهو مثل أمها، يرى أنها تعمل بجهد كبير، لكنه فخور جداً بها، وقلق بسبب وحدتها. لا يبدو ذلك عادلاً بالنسبة إليه، وكره بلايك على مسار تطور الأمور، أكثر من ماكسين نفسها. لقد تكيّفت مع المسألة قبل زمن بعيد. لكن والديها لم يفعلا ذلك أبداً.

قالت ماكسين بلطافة: «أنا بخير». إجابة عن سؤال والدها. عرفت ما يقصده. يطرحان دوماً هذا السؤال.

«هل من رجل لطيف في الأفق؟». بدا متفائلاً.

قالت مبتسمة: «لا، لا أزال أتقاسم السرير مع سام». ابتسم والداها.

قال أرثر كونورز مع نظرة قلق: «أتمنى أن يتغير ذلك في يوم من الأيام، في النهاية، سيكبر هؤلاء الأولاد، قبل أن تدركي ذلك، وستجدين نفسك وحيدة».

«أظن أنه لا يزال أمامي بضع سنوات قبل أن أخاف من ذلك».

قال وهو يفكر فيها: «قد تمضي الأيام بسرعة؛ أمس كنت في كلية الطب، والآن، انظري أين أصبحت. أنت رائدة في اختصاصك حول صدمات الأطفال وانتحار المراهقين. حين أفكر فيك، ماكس، لا أزال أظن أنك في الخامسة عشرة من عمرك». ابتسم لها بحنان، وأومأت أمها برأسها.

«نعم، أنا أيضاً، أبي. أنظر أحياناً إلى دافني، وهي ترتدي ثيابي، وتنتعل الكعب العالي، وأتساءل كيف حصل ذلك. منذ وقت، وليس ببعيد، كانت في الثالثة من عمرها. وأصبح جاك فجأة بطولي، بين ليلة وضحاها، وسام، أمس كان عمره شهرين، هذا غريب، أليس كذلك؟».

«يبدو الأمر أكثر غرابة حين يصبح أولادك في عمرك. ستكونين دوماً طفلة بالنسبة إليّ». تحب هذا في علاقتهما. لا بد من وجود مكان ما في العالم، مع أشخاص فيه، حيث تشعر دوماً أنك لا تزال طفلاً. يصعب على الشخص أن يكون ناضجاً طوال الوقت. هذا هو الشيء الجميل في بقاء الأهل على قيد الحياة، إذ يطغى شعور بالأمان لعدم الحاجة إلى أن تكون أكبر فرد في العائلة.

تتساءل أحياناً ما إذا كانت تصرفات بلايك المتهورة والمجنونة نابعة من خوفه من التقدم في العمر. لا تستطيع لومه كثيراً إذا كانت هذه هي الحال. ففي العديد من الحالات، يخشى كثيراً المسؤولية، بالرغم من أنه لامع جداً في العمل. لكن هذا مختلف. أراد أن يبقى الطفل الذهبي إلى

الأبد، وها قد كبر الآن، وأصبح في خريف العمر. عرفت أن هذا يخيفه أكثر من أي شيء آخر، ولا يستطيع الإسراع كفاية للهروب من مواجهة نفسه. هذا محزن نوعاً ما، وقد فوّت الكثير على نفسه. ففيما كان يجري بسرعة فائقة، كبر أولاده وخسر لحظات عديدة في مشاهدتهم وهم يكبرون. بدا هذا ثمناً باهظاً ليكون بيتر بان.

قال لها والدها: «حسناً، لا تتكلمي وكأنك كبرت، لا تزالين امرأة شابة، ويكون أي رجل محظوظاً بالتعرف إليك. لا تزالين صغيرة في عمر الثانية والأربعين. لا تحبسي نفسك، وتنسي السهر والاستمتاع». عرفوا جميعاً أنها لا تخرج من المنزل كثيراً. يخشى والداها أحياناً من أنها لا تزال مغرمة ببلايك وتنتظره، لكن أمها مصرّة على أن الحال ليست كذلك. إلا أنها لم تتعرف إلى أي رجل بعد. وقد أرادا لها أن تعثر على الرجل المناسب هذه المرة. حاول والدها تدبير مواعيد غرامية لها مع بعض الأطباء، لكنه لم ينجح أبداً، وقالت ماكسين إنها تفضل العثور على الرجل المناسب بنفسها.

ساعدت أمها على تنظيف الطاولة وترتيب المطبخ، لكن مارغريت أخبرتها أن مدبّرة المنزل ستعود في اليوم التالي، ولذلك انضمتا إلى الآخرين في غرفة الجلوس، وشاهدوا بحماسة مباراة كرة القدم على التلفاز. عند الساعة الخامسة، حدّقت ماكسين إلى الأولاد. تكره فعل ذلك، لكنها لا تريدهم أن يتأخروا على بلايك. فكل لحظة يتشاركونها معه نفيسة جداً. أسف والداها لرؤيتهم يغادرون. تعانقوا، وتبادلوا القبلات، وشكرتهما هي وأولادها على الوجبة الرائعة. إنها الوليمة المفترضة لأي مناسبة شكر، وشعرت ماكسين بالامتنان على العائلة التي تملكها. عرفت كم هي محظوظة.

سارت والأولاد ببطء عبر جادة بارك أفنيو للعودة إلى مبناهم. حلّت الساعة الخامسة والنصف، بدّل الأولاد ثيابهم لارتداء ثياب نظيفة ومريحة، واتصل بلايك في تمام السادسة، بسرعة غير معهودة منه. لقد وصل للتو. إنه في طريقه من المطار، وطلب منهم الذهاب إلى بيته عند الساعة السابعة.

قال إن كل شيء جاهز وينتظرهم. طلب من مطعم تحضير العشاء، وبما أنه عرف أنهم تناولوا الديك الرومي في منزل جدّيهم، قال إنه طلب شيئاً مختلفاً. سيكون العشاء جاهزاً عند الساعة التاسعة، وسيتمكنون من التحدث معاً حتى ذلك الحين. تحمس الأولاد لمجرد سماع ذلك.

«هل أنت واثق من أنك لا تزال تريد مني المجيء؟»، سألته ماكسين بحذر. تكره التطفل على وقتهم معه، بالرغم من أنها عرفت أن سام سيشعر بارتياح أكبر بوجودها. لكن عليه الاعتياد على التواجد مع بلايك في مرحلة ما. لم يمضِ أبداً وقتاً كافياً معه لتخطّي هذه المشكلة. لكن بلايك لا يبالي. يحب وجود ماكسين، ويشعرها دوماً أنها محط ترحيب. حتى بعد مرور خمس سنوات على الطلاق، لا يزالان يستمتعان بصحبة بعضهما، كصديقين.

قال بلايك إجابة عن سؤالها: «أودّ ذلك، يمكننا التعويض فيما يلعب الأولاد». يقيم الأولاد دوماً حفلة في منزله، فيلعبون ألعاب الفيديو، ويشاهدون الأفلام. يحبون غرفة عرض الأفلام والمقاعد الكبيرة والمريحة. إذ لديه في شقته كل ابتكار تكنولوجي عصري، منذ كان صغيراً. يذكّرها بلايك دوماً بالنجم طوم هانكس في فيلم بيغ (كبير)، الصبي الرائع الذي يتنكر في زي رجل. «أراك عند السابعة»، وعدها بلايك فيما أقفلت ماكسين الخط، وأبلغت الأولاد بالخبر. أمامهم ساعة للاسترخاء وتوضيب أغراضهم للنوم عنده. بدا سام محتاراً قليلاً، لكنها طمأنته بأنه سيكون على ما يرام.

«يمكنك النوم بجانب دافني إذا أردت»، ذكّرته، وبدا مسروراً بذلك. ذكرت الأمر أمام دافني بعد بضع دقائق، وطلبت منها الاهتمام بسام، واقترحت على سام النوم بجانبها. لم تمانع دافني.

استقلّوا جميعاً سيارة الأجرة بعد ساعة، في طريقهم إلى شقة بلايك. مجرد الصعود في المصعد ذكّرهم بفكرة التواجد في مركبة صاروخية. أنت بحاجة إلى رمز خاص لدخول شقته. يملك طابقين كاملين، ومنذ اللحظة التي فتح فيها الباب لهم، ظهر لهم العالم الذي يعيش فيه بلايك. الموسيقى تصدح عبر النظام الصوتي المذهل، فيما الإنارة رائعة، والمنظر أكثر من

ساحر مع الواجهات الزجاجية الخارجية، والنوافذ التي بدت مثل اللوحات الفنية، وإنارة السقف المذهلة. كانت الجدران الداخلية مغطاة بالمرايا لعكس المنظر، وكان السقف يعلو حوالى ثلاثين قدماً. اشترى بلايك طابقين وحوّلهما إلى شقة واحدة مع درج داخلي دائري في الوسط، واشترى كل لعبة، أو دمية، أو ستريو، أو تلفاز، أو خدعة، أو هدية تخطر في البال. ثمة فيلم سينمائي يعرض على شاشة غطت جداراً كاملاً، وأعطى جاك سماعات لمشاهدته. قبّلهم وعانقهم جميعاً، وأهدى دافني هاتفاً خلوياً جديداً باللون الوردي نُقش عليه أول حرفين من اسمها. علّم سام كيفية تشغيل كرسي لعبة الفيديو الجديدة ومقابض التحريك التي ركّبها في غيابه. كانوا جميعاً منهمكين في الألعاب، وفي الاعتياد على غرفهم مجدداً، حين حظي بلايك أخيراً بلحظة هادئة، ابتسم لزوجته السابقة، ووضع ذراعه حولها.

قال بهدوء: «مرحباً ماكس، كيف حالك؟ آسف بشأن كل هذه الفوضى». كان مذهلاً أكثر من أي وقت مضى. بشرته ملفوحة تماماً بالشمس، مما جعل عينيه الزرقاوين تبدوان أكثر جمالاً. كان يرتدي سروال جينز، وكنزة سوداء، وينتعل جزمة رعاة بقر من جلد التمساح صُنعت خصيصاً له في ميلانو. لا شك في أنه لافت جداً للنظر، قالت ماكسين لنفسها. فكل شيء فيه جذاب، ووسيم جداً، هذا ما يشعر به المرء حياله، ولكن لمدة لا تتعدى العشر دقائق تقريباً، بعدها يدرك أنه لا يستطيع الاعتماد عليه، إذ لا يظهر أبداً عند الحاجة، ولن ينضج أبداً مهما كان جذّاباً. إنه أجمل وأذكى وأروع بيتر بان في العالم. إنه رائع إذا أردت تأدية دور وندي، وإلا فهو ليس بالرجل المناسب. عليها تذكير نفسها بذلك أحياناً. فالتواجد ضمن هالته تجربة صعبة من دون شك. لكنها تعرف أفضل من أي كان أنه ليس رجلاً ناضجاً أو مسؤولاً. تشعر أحياناً وكأنه ولدها الرابع.

«إنهم يحبون الفوضى»، طمأنته. التواجد معه أشبه بالتواجد في سيرك ثلاثي الحلقات. ومن لا يحب ذلك في عمرهم؟ كان الأمر أصعب كثيراً بالنسبة إليها. «تبدو رائعاً، بلايك. كيف حال المغرب أو باريس أو أينما كنت؟».

«سيكون المنزل في مراكش رائعاً. بقيت هناك طوال الأسبوع. كنت في باريس البارحة». ضحكت على التناقض بين نمطي حياتهما. كانت هي في سيلفر بايتز، تعاين جايسون، في لونغ آيلند. وهذا بعيد تماماً عن صخب حياة زوجها السابق، لكنها غير مستعدة لمقايضة الأدوار معه. لم يعد باستطاعتها العيش بهذه الطريقة. «تبدين رائعة أنت أيضاً ماكس. هل ما زلت مشغولة كثيراً؟ تعاينين مليون مريض؟ لا أعرف كيف تنجحين في ذلك». خصوصاً عند معرفة المسائل الصعبة التي تتعاطى معها. إنه معجب بالعمل الذي تقوم به، والأم التي هي. كانت زوجة رائعة أيضاً. لطالما قال ذلك.

قالت ماكسين وهي تبتسم: «أحب حياتي هكذا، لا بد من أن يفعل أحد ما الأمور التي أقوم بها، وأنا مسرورة لأنني من يقوم بها. أحب العمل مع الأولاد». أومأ برأسه، وهو يعرف كم هذا صحيح.

«كيف كان غداء الشكر مع والديك؟». اعتاد على الشعور بالكبت في مناسبات الشكر التي أمضاها معهما، لكنه يحبهما بطريقة مرحة. إنهما ما يفترض أن تكونه كل عائلة، وبات عدد أولئك الأشخاص قليلاً في هذه الأيام. لم يعرف عطلة مثل تلك التي كان يمضيها معهما منذ خمسة أعوام.

«كان الجو لطيفاً. فوالداي يحبان الأولاد وهما رائعان. إنهما في صحة جيدة بالنسبة إلى عمرهما. لا يزال والدي يجري العمليات الجراحية، ولكن ليس كثيراً، ويعلّم ويمارس مهنة الطب بدوام كامل وهو في التاسعة والسبعين من عمره».

قال بلايك: «ستكونين أنت هكذا أيضاً». فيما سكب الشراب الخفيف في كوبين، وأعطاها أحدهما. إنه يشرب دوماً شراباً من نوع كريستال. أخذت الكوب، وارتشفت منه، وهي تتأمل المنظر الجميل من شقته. المنظر أشبه بالتحليق فوق المدينة. كل شيء يملكه أو يلمسه يكشف عن ميزة سحرية فيه. إنه أقصى ما يحلم الأشخاص أن يحققوه، لكن عدداً قليلاً فقط يملكون أسلوب بلايك وقدرته على النجاح.

تفاجأت لعدم وجود امرأة معه هذه المرة، وشرح لها الأمر بعد دقائق قليلة، مبتسماً ابتسامة ماكرة. قال لها: «خُذلت للتو». من قبل عارضة أزياء عمرها أربعة وعشرون عاماً تركته للذهاب مع نجم روك مهم، قال بلايك إنه يملك طائرة أكبر من طائرته. لم تستطع ماكسين منع نفسها من الضحك على الطريقة التي قال بها ذلك. لا يبدو منزعجاً، وعرفت أنه غير منزعج. فالفتيات اللواتي يخرج برفقتهن هن فقط للتسلية بالنسبة إليه. ليس لديه أي رغبة بالاستقرار، ولا يريد المزيد من الأولاد، ولذلك فإن النساء الشابات اللواتي يخرج معهن سيذهبن في النهاية للزواج بشخص آخر. الزواج به ليس أبداً خياراً ممكناً، وهو آخر شيء يفكّر فيه. فيما جلسا في غرفة الجلوس وثرثرا، دخل سام، وقفز على حضن أمه. جلس يراقب بلايك باهتمام، كما لو أنه صديق للعائلة وليس والده، ثم سأله عن الصديقة التي كانت معه في الصيف الماضي. نظر إليه بلايك وضحك. «فوّتت على نفسك اثنتين أيها البطل منذ ذلك الحين. كنت أخبر أمك للتو. خذلتني واحدة الأسبوع الماضي. لذا، أنا وحيد هذه المرة». أومأ سام برأسه على الشرح، وألقى نظرة سريعة على أمه.

«ليس لأمي صديق أيضاً. لا تخرج أبداً. تكتفي بنا».

قال بلايك وهو يبتسم لهما: «يجدر بها الخروج، إنها امرأة جميلة جداً، وستكبرون أنتم في يوم من الأيام». هذا ما قاله بالضبط والد ماكسين بعد الغداء. لا تزال أمامها اثنتا عشرة سنة قبل أن يلتحق بالجامعة. ليست مستعجلة، بالرغم من مخاوف الجميع. سأل سام حينها عن مدرسته، وهو لا يعرف ماذا يقول، وأخبر سام والده أنه أدّى دور الديك الرومي في مسرحية المدرسة. أرسلت ماكسين صوره عبر البريد الإلكتروني إلى بلايك، مثلما تفعل دوماً في الأحداث المهمة. كما أرسلت إليه بعض الصور لجاك في مباريات كرة القدم.

تجول الأولاد في المنزل، وتحدثوا بارتياح إلى والديهم، واعتادوا على بلايك مجدداً. نظرت إليه دافني بعشق ظاهر، وحين غادرت الغرفة، أخبرته ماكسين عما فعلته دافني مع صديقاتها، كي يكون فقط على اطّلاع

بذلك، ولا يسمح بحصول ذلك حين تكون دافني معه.

قال لها: «هيا، ماكس، لا تكوني صارمة جداً. إنها مجرد فتاة صغيرة. ألا تظنين أن احتجازها في المنزل لمدة شهر مبالغ فيه قليلاً؟». هذا هو ردّ الفعل الذي توقعته منه، وليس هذا ما تحبه. لكنها لم تتفاجأ. إنه واحد من الاختلافات العديدة بينهما. لا يعتقد بلايك بالقواعد، على أي كان، أو على الأقل على نفسه.

قالت ماكسين بهدوء: «يجب أن يكون لديها حدود، واحترام للحدود، وإلا سنقع في ورطة كبيرة بعد سنوات قليلة. أفضّل الضغط على المكابح الآن».

«أعرف». تنهد وبدت عيناه الزرقاوان أكثر سطوعاً من أي وقت مضى فيما نظر إليها ببراءة. بدا مثل صبي صغير، وبخته أمه أو معلمته للتو. لا تحب ماكسين هذا الدور، لكنها أدته معه طوال سنوات. أصبحت معتادة على ذلك الآن. «ربما أنت محقة. لكنني لا أرى مشكلة كبيرة في المسألة. فعلت أموراً أسوأ حين كنت في مثل عمرها. كنت أسرق الشراب الاسكتلندي من مشرب والدي في عمر الثانية عشرة، وأبيعه في المدرسة مقابل مبالغ طائلة». ضحك وكذلك فعلت ماكس.

«هذا مختلف. هذا عمل. كنت مقاولاً في ذلك العمر. أراهن أنك لم تكن تشرب الشراب الاسكتلندي». لم يكن في الإجمال يفرط في تناول المشروبات، ولم يتعاطَ أبداً المخدرات. لكنه متهور في كل النواحي الأخرى. لدى بلايك حساسية إزاء القيود مهما كان نوعها.

«أنت محقة». ضحك بلايك أكثر عندما تذكّر ذلك. «لم أشرب الشراب الاسكتلندي إلا حين بلغت الرابعة عشرة من عمري. كنت مهتماً أكثر للظهور بالمظهر الرزين، وحمل الفتيات اللواتي أخرج برفقتهن على أن يبدون بحالة يرثى لها. بدت هذه خطة أفضل بالنسبة إليّ».

هزت ماكس رأسها وهي تضحك. «ولماذا أظن أن الأمر لم يتغير؟».

«لا أحتاج إلى دفعهن ليكنّ على هذه الحالة الآن»، اعترف لها مبتسماً ابتسامة غير خجولة. تربطهما أغرب علاقة على الإطلاق، فهما أقرب إلى كونهما صديقين رائعين، أكثر من شخصين بقيا متزوجين لمدة عشر سنوات، وأنجبا ثلاثة أولاد. إنه الرفيق المجنون الذي تراه مرتين أو ثلاث مرات في السنة، فتكون هي الشخص المسؤول، وتربي الأولاد، وتذهب إلى العمل كل يوم. إنهما مثل الليل والنهار.

وصل العشاء في تمام الساعة التاسعة، وكان الجميع جائعين حينها. طلب الطعام من أفضل مطعم ياباني في المدينة، وجرى تحضيره أمامهم، مع كل أنواع المنكهات واللمسات الغريبة، وطاهٍ أحرق كل شيء بالنار، وقطّع القريدس، وقذفه في الهواء ثم التقطه بيد مكسوّة بقفّاز. أحب الأولاد ذلك. كل ما يفعله بلايك أو ينظمه يكون مذهلاً ومختلفاً. حتى سام بدا مسترخياً وسعيداً حين غادرت أمه. كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريباً، وكان الأولاد يشاهدون فيلماً في قاعة العرض. عرفت أنهم سيبقون مستيقظين حتى الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. لكن هذا لن يؤذيهم، ولا تريد أن تحرمهم أي دقيقة من وقتهم معه. يستطيعون النوم حين يعودون إلى المنزل عندها.

«متى ستسافر؟»، سألته فيما ارتدت معطفها، وهي تخشى أن يقول لها: «غداً»، لأنها عرفت أن هذا سيغضب الأولاد. يريدون تمضية بضعة أيام معه على الأقل، خصوصاً وأنهم لا يعرفون متى يرونه مجدداً، بالرغم من أن ذكرى الميلاد باتت قريبة، وينجح عادة في تمضية بعض الوقت معهم خلال هذه العطلة.

قال لها: «ليس قبل الأحد». ولاحظ الارتياح على وجهها.

قالت بهدوء: «هذا جيد، يكره الأولاد لحظة مغادرتك».

قال بحزن تقريباً: «أنا أيضاً. إذا كنت لا تمانعين، أريد اصطحابهم إلى أسبن بعد الميلاد. لم أضع أي خطط نهائية بعد، لكن من الجميل التواجد هناك خلال رأس السنة».

«سيحبون ذلك». ابتسمت له. تشتاق إليهم دوماً حين يذهبون معه، لكنها تريد أن يكون لهم أب، وليس سهلاً تدبّر الأمر معه. فلا بد من الاستفادة من وجوده حين يكون راغباً وقادراً على إنجاز مشاريع معهم.

«هل تريدين تناول العشاء معنا غداً؟». عرض عليها، وأوصلها إلى المصعد. لا يزال يستمتع بتمضية الوقت معها، ولطالما فعل ذلك. كان يريد الاحتفاظ بها كزوجة له إلى الأبد. لكن ماكسين هي التي تركته، ولا يلومها على ذلك. وقد أمضى وقتاً ممتعاً منذ ذلك الحين. لكنه لا يزال يحب وجودها في حياته، وهو مسرور لأنها لم تطرده أبداً. تساءل ما إذا كان سيتغير ذلك حين تعثر على رجل تربطها به علاقة جدّيّة، ولم يشك أبداً في أنها ستعثر على رجل يوماً ما. تفاجأ لأن الأمر استغرق كل هذا الوقت.

قالت وهي تبدو مسترخية: «ربما، سنرى كيف هي الحال مع الأولاد. لا أريد التطفل». يحتاجون إلى وقت لوحدهم مع والدهم، ولا تريد التطفل عليهم.

«نحب وجودك معنا». طمأنها، وعانقها ليقول لها إلى اللقاء.

«شكراً على العشاء»، قالت فيما دخلت المصعد ولوّحت له في أثناء إغلاق الباب. نزل المصعد خمسين طابقاً، وقرقعت أذناها عندما وقفت تفكر فيه. هذا غريب، لم يتغير أي شيء. لا تزال تحبه. لطالما أحبته. لم تتوقف أبداً عن حبه، لكنها لم تعد تريد العيش معه. لا يزعجها حتى إن كان يخرج مع فتيات في العقد الثاني من عمرهنّ. يصعب تحديد علاقتهما. لكن، أياً كانت هذه العلاقة، ومهما بدت غريبة، فإنها تناسبهما.

أوقف لها البواب سيارة أجرة حين خرجت من المبنى. وبينما كانت تتجه نحو شقتها، فكّرت كم كان اليوم لطيفاً. شعرت بالغرابة لأن المنزل بدا هادئاً ومعتماً حين دخلته. أنارت المصابيح، وتوجّهت إلى غرفتها، وفكرت في بلايك وأولادها في شقته الفخمة. بدت لها الشقة التي تعيش فيها أفضل من أي وقت مضى. لم تعد ترغب بأي جزء أو نمط من حياته. ليست بحاجة إلى هذا النوع من الإفراط وتدليل الذات. كانت سعيدة معه،

لكن ما تملكه الآن هو كل ما تريده.

أدركت للمرة الألف منذ تركته، أنها اتخذت القرار الصحيح. بلايك ويليامز هو حلم كل امرأة، لكنه لم يعد حلمها.

الفصل الخامس

كانت ماكسين نائمة عند الساعة الرابعة فجراً حين رنّ الهاتف قرب سريرها. احتاجت إلى وقت أطول من المعتاد لتستيقظ، إذ كانت نائمة بعمق. تغوص غالباً في نوم أعمق حين لا يكون أولادها موجودين في المنزل. حين ألقت نظرة سريعة على الساعة، أملت ألا يكون قد حصل خطب ما في شقة بلايك. تساءلت ما إذا عانى سام من كابوس، ويريد العودة إلى المنزل. أجابت على الهاتف بصورة تلقائية، قبل أن تستيقظ تماماً ومن دون تفكير.

قالت بسرعة: «دكتورة ويليامز». لإخفاء حقيقة نومها، بالرغم من أنه ما من أحد يتوقع أن تكون مستيقظة عند الرابعة فجراً.

«ماكسين، أنا آسفة للاتصال بك في هذه الساعة». إنها تيلما واشنطن، الطبيبة البديلة عنها في عطلة الشكر وعطلات نهاية الأسبوع. «أنا في مستشفى نيويورك مع آل أندرسون. فكّرت في أنك تريدين أن أتصل بك. تناولت هيلاري جرعة مفرطة من المخدرات هذه الليلة. عثروا عليها عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل». إنها فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وذات شخصية ثنائية القطبين تواجه مشاكل مع الهيروين، وقد حاولت الانتحار أربع مرات خلال العامين الماضيين. أصبحت ماكسين فجأة مستيقظة تماماً. «أحضرناها إلى المستشفى بأسرع ما يمكن. أعطاها رجال الإسعاف نالوكسون، لكن الوضع لا يبدو تحت السيطرة».

«تباً، سآتي فوراً». كانت ماكسين واقفة فيما لفظت الكلمات.

«ما زالت فاقدة الوعي، ولا يظن الطبيب المناوب أنها ستفعل. يصعب قول ذلك». أعطتها تيلما المعلومات.

«تعافت بأعجوبة في المرة الأخيرة. إنها فتاة قوية جداً»، علّقت ماكسين.

«عليها أن تكون كذلك. يبدو وكأنها تناولت كوكتيلاً، هيروين، وكوكايين، ومنشطات، ويظهر تحليل الدم سمّ جرذ. يبدو أنهم يستبدلون هيروين الشوارع ببعض المواد الأكثر إيذاء هذه الأيام. مات ولدان هنا بسبب ذلك خلال الأسبوع الماضي. ماكسين... لا تتخلي عن الأمل. لا أريد أن أبدو سلبية بشأن ذلك، لكن إذا نجت من هذه الحالة، لست واثقة من أنها ستعود إلى حالتها الطبيعية».

«نعم، أعرف. شكراً على الاتصال بي. سأرتدي ثيابي وآتي فوراً. أين هي؟».

«في غرفة العناية الفائقة في قسم الصدمات. سأكون بانتظارك هنا. والداها منزعجان كثيراً».

«لا شك في ذلك». عانى المسكينان من هذا الوضع أربع مرات مع فتاة واجهت صعوبات منذ كانت في الثانية من عمرها. إنها فتاة لطيفة، لكن، بين مرض الشخصية ثنائية القطبين وإدمانها على الهيروين، سلكت الطريق السريعة نحو الكارثة منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. تعاينها ماكسين منذ عامين. إنها الفتاة الوحيدة لوالدين محبّين ومخلصين، فعلا كل ما في وسعهما لمساعدتها. لكن هناك بعض الأولاد الذين لا تستطيع مساعدتهم مهما حاولت معهم.

أدخلتها ماكسين المستشفى أربع مرات خلال العامين الماضيين، من دون أي جدوى تقريباً. فلحظة خروجها من المستشفى، تعود للتعاطي مجدداً مع رفاق السوء نفسهم. قالت لماكسين مراراً وتكراراً إنها لا تستطيع كبت نفسها. لا تستطيع ببساطة الابتعاد عن المخدرات، وقالت إن الأدوية التي تصفها لها ماكسين لا تعطيها أبداً المفعول الذي تريده مثل تلك المواد التي تشتريها من الشارع. بقيت ماكسين خائفة من هذه النتيجة طوال العامين الماضيين.

ارتدت ثيابها في أقل من خمس دقائق، انتعلت حذاء مسطحاً، وارتدت كنزة وسروال جينز. أخرجت معطفاً سميكاً من الخزانة، وحملت حقيبتها، وطلبت المصعد. عثرت فوراً على سيارة أجرة، وكانت في المستشفى بعد خمس عشرة دقيقة من اتصال تيلما واشنطن، طبيبتها البديلة. ذهبت تيلما معها إلى هارفارد، وهي أميركية من أصول أفريقية وواحدة من أفضل الأطباء النفسيين الذين تعرفهم. بعد الجامعة، وعلى مرّ سنوات تعاطيهما المهني مع بعضهما، أصبحتا صديقتين. تعرف أنها تستطيع الاتكال دوماً على تيلما، على الصعيد الشخصي أو المهني. إنهما متشابهتان في نواحٍ عدة، ومتفانيتان كثيراً في عملهما. تشعر ماكسين بارتياح تام لترك مرضاها بين يديها. توجّهت ماكسين صوب تيلما قبل أن تتحدّث إلى آل أندرسون، وأبلغتها تيلما بسرعة بآخر التفاصيل. كانت هيلاري في غيبوبة عميقة، ولم ينجح أي شيء أعطوها إياه حتى الآن في إعادتها إلى الوعي. تناولت كمية هائلة من المخدرات فيما كانت لوحدها في المنزل، بعد خروج والديها. لم تترك ملاحظة، لكن ماكسين عرفت أنها ليست بحاجة إلى ذلك. لطالما أخبرت ماكسين أنها لا تهتم لموتها أو لحياتها. بالنسبة إليها، وإلى العديد من الأشخاص مثلها، يصعب كثيراً التعايش مع شخصية ثنائية القطبين.

بدت ماكسين منزعجة حين رأت جدول المعلومات، ووقفت تيلما قربها. قالت ماكسين وهي تبدو حزينة: «يا الله، لقد تناولت كل شيء باستثناء بالوعة المطبخ». أومأت تيلما برأسها.

«قالت أمها إن صديقها تخلى عنها الليلة الماضية، يوم مناسبة الشكر. أنا واثقة من أن هذا أزعجها كثيراً». أومأت ماكسين برأسها، وأغلقت جدول المعلومات. تم إنجاز كل الخطوات الصحيحة. وكل ما يمكنهم فعله الآن هو الانتظار لمعرفة ما سيحصل. لا يخفى على أي منهما، أو على والدي هيلاري، أنه إذا لم تستعد وعيها سريعاً، ثمة احتمال كبير أن تصاب إلى الأبد بضرر في الدماغ، إذا عاشت، وهذا لا يزال مشكوكاً فيه. تفاجأت ماكسين أنها لا تزال على قيد الحياة بعد كل ما تناولته.

«هل من فكرة لديك متى فعلت ذلك؟»، سألت ماكسين، فيما مشت

المرأتان في الرواق. بدت تيلما متعبة وقلقة. تكره مثل هذه الحالات. مهنتها أقل ضغطاً من مهنة ماكسين، لكنها تحب العمل نيابة عنها. فالعمل مع مرضاها هو دوماً بمثابة تحدٍّ.

«ربما قبل بضع ساعات من عثورهم عليها، وهذه هي المشكلة. تسنى للمواد السامة الوقت الكافي للتأثير في جسمها. لهذا السبب، لم ينفع النالوكسون، بحسب المسعفين الذين أحضروها». النالوكسون هو عقار يعكس تأثيرات المخدرات القوية، في حال أعطي في الوقت المناسب. إنه يحدث الفرق بين الحياة والموت في الجرعات المفرطة، وقد أنقذ هيلاري أربع مرات قبلاً. إلا أنه لم يحدث فرقاً هذه المرة، وهذا دليل سيئ بالنسبة إلى الطبيبتين.

ذهبت ماكسين لرؤية هيلاري قبل أن ترى والديها. لقد وضع لها جهاز التنفس، وفريق قسم العناية الفائقة لا يزال يعمل على إنقاذها. كانت عارية على السرير، مغطاة بشرشف رقيق. تتنفس بواسطة الجهاز عوضاً عن التنفس الطبيعي، وبدت جامدة بلا حراك، ووجهها رمادي اللون. وقفت ماكسين تنظر إليها لبرهة طويلة، وتحدثت إلى الفريق الذي رافقها منذ وصولها إلى هنا، ثم تحدثت إلى الطبيب المناوب. لا يزال قلبها صامداً، بالرغم من أن جهاز المراقبة أشار مرات عدة إلى عدم انتظام في خفقان القلب. لا دليل على الحياة في جسد ابنة الخمسة عشر عاماً التي بدت أشبه بطفلة مستلقية هناك. كان شعرها مصبوغاً باللون الأسود، وملأ الوشم ذراعيها. لقد تصرفت هيلاري وفق أهوائها الخاصة، بالرغم من جهود أبويها بإقناعها بعكس ذلك.

أومأت ماكسين إلى تيلما، وذهبتا معاً لرؤية الوالدين في قاعة الانتظار. بقيا مع هيلاري طوال الوقت في البداية إلى أن طلب منهما الفريق الطبي المغادرة. فمن المزعج أن يرى والداها ما يحصل، كما أن الأطباء والممرضات يحتاجون إلى مجال للتحرك.

كانت أنجيلا أندرسون تبكي حين دخلت ماكسين لرؤيتهما، ووضع فيل ذراعيه حولها، وبدا أنه كان يبكي هو الآخر. لقد عاشا مثل هذه المحنة

قبلاً، لكن الوضع لم يتحسن، وإنما بات أسوأ، وهما يدركان تماماً أن هيلاري قد بالغت كثيراً هذه المرة.

«كيف حالها؟»، سألا في الوقت نفسه، فيما جلست ماكسين معهما، وغادرت تيلما الغرفة.

«تماماً مثلما كانت حين وصلت. رأيتها للتو. إنها تكافح بقوة. تفعل دوماً هذا». ابتسمت ماكسين لهما بحزن، إذ آلمها رؤية الخوف في عيونهما، وكانت حزينة هي الأخرى. فهيلاري فتاة لطيفة جداً. مضطربة كثيراً، وإنما لطيفة. «هناك بعض السموم في العقاقير التي تناولتها»، شرحت ماكسين. «يحصل هذا في الشوارع. أظن أن مشكلتنا أساساً هي أن السموم أخذت كل وقتها للتأثير في جسمها قبل العثور عليها. وثمة مستوى معين يستطيع القلب تحمله. لقد أخذت جرعة قوية جداً من بعض العقاقير القوية». ليس هذا جديداً بالنسبة إليهما، لكن عليها إنذارهما بطريقة ما أن النهاية ربما لن تكون سعيدة هذه المرة. ما من شيء آخر تستطيع فعله. يبذل فريق العناية الفائقة كل ما في وسعه لإنقاذها.

أحضرت تيلما القهوة لهم جميعاً بعد دقائق قليلة، ثم عادت ماكسين لرؤية هيلاري مجدداً. لحقت بها تيلما، عندها طلبت منها ماكسين الذهاب إلى المنزل. لا جدوى من بقائهما معاً طوال الليل. ستبقى ماكسين. شكرت تيلما قبل مغادرتها، وذهبت للتحقق من حال قلب هيلاري. أصبح خفقانه أقل انتظاماً، وقال الطبيب المناوب إن ضغط دمها ينخفض، وهذه ليست بالإشارات الجيدة.

في الساعات القليلة التالية، تنقلت ماكسين ذهاباً وإياباً بين آل أندرسون وابنتهما، وعند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، قررت ماكسين إدخالهما إلى وحدة العناية الفائقة لرؤيتها. أصبحت مدركة تماماً حينها أنها قد تكون المرة الأخيرة التي يشاهدان فيها ابنتهما على قيد الحياة. بكت والدة هيلاري بقوة حين لمستها، وانحنت لتقبيلها، وبقي الوالد مع زوجته، لكنه بالكاد استطاع النظر إلى ابنته. لا تزال تتنفس عبر الجهاز، لكنه بالكاد استطاع إبقاءها على قيد الحياة.

ما إن عادوا إلى قاعة الانتظار مجدداً، حتى جاء الطبيب المناوب وأشار إلى ماكسين، فلحقت به. «لا يبدو الوضع جيداً».

قالت ماكسين: «نعم، أعرف». لحقت به إلى سرير هيلاري في قسم العناية الفائقة مجدداً، وما إن دخلا حتى أصدر جهاز المراقبة صوت إنذار. لقد توقف قلب هيلاري. أراد والداها فعل كل شيء ممكن، وبذل فريق القلب كل ما في وسعه لإعادة قلبها إلى العمل. تم إعطاء صدمة كهربائية، فيما راقبت ماكسين وهي تبدو حزينة. دلّكوا قلبها، ووضعوا عليها ألواح الصدمات الكهربائية مرات عدة، ولكن من دون جدوى. عملوا على إحياء جسد هيلاري الخالي من الحياة طوال نصف ساعة، إلى أن أشار الطبيب المناوب أخيراً إلى بقية الفريق. انتهى الأمر. لقد ماتت هيلاري. وقفوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم بعضاً لبرهة طويلة ومؤلمة، ثم التفت الطبيب المناوب نحو ماكسين، وأوقفوا عمل جهاز التنفس، وأخرجوه من فم هيلاري.

قال بهدوء: «أنا آسف». وغادر الغرفة. لم يعد في وسعه فعل أي شيء آخر.

قالت ماكسين: «أنا أيضاً». ثم توجهت بحثاً عن آل أندرسون. عرفا لحظة دخولها، وبدأت والدة هيلاري بالصراخ. جلست ماكسين معهما لوقت طويل، وأمسكت والدتها بين ذراعيها فيما بكت. عانقت فيل أيضاً. طلبا رؤية هيلاري مجدداً، فأخذتهما ماكسين إلى الغرفة. لقد وضعوها في غرفة لوحدها قبل أخذها إلى المشرحة. تركتهما ماكسين لوحدهما معها لمدة ساعة تقريباً. وأخيراً، عادا إلى منزلهما محطّمين.

وقّعت ماكسين على شهادة الوفاة وكل المستندات اللازمة. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً حين غادرت أخيراً، ونزلت إلى الأسفل. كانت تخرج من المصعد حين نادتها ممرضة تعرفها باسمها. التفتت ماكسين، وبدت عيناها حزينتين.

قالت الممرضة بلطافة: «أنا آسفة... سمعت للتو...». كانت موجودة

آخر مرة تم إحضار هيلاري فيها إلى هنا، وساعدت على إنقاذ حياتها. كان فريق الإنقاذ جيداً مثل هذه المرة، لكن فرصة هيلاري في النجاة هذه المرة بدت أقل بكثير. فيما تحدثتا، لاحظت ماكسين أن رجلاً طويلاً يرتدي زيّ طبيب أبيض يقف قربهما، يراقبهما، ولم تعرف أبداً من يكون.

انتظر حتى انتهت ماكسين من التحدث إلى الممرضة، التي صعدت إلى الأعلى لمباشرة عملها في قسم العناية الفائقة، ثم اقترب.

«دكتورة ويليامز؟»، سأل بحذر. لاحظ أنها مشغولة، وبدت نوعاً ما غير مرتبة ومتعبة.

«نعم؟».

«أنا تشارلز ويست. الغبي الذي واجهك بشأن جايسون وكسلير قبل بضعة أسابيع. أردت فقط أن أقول لك مرحباً». لم تكن في مزاج للتحدث إلى أي كان، لكنها لم تشأ أن تكون فظة. كان لطيفاً كفاية للاتصال والاعتذار، ولذلك بذلت جهداً الآن للتحدث إليه.

«آسفة، كانت ليلة طويلة. فقدت للتو مريضة في قسم العناية الفائقة. فتاة عمرها خمسة عشر عاماً تناولت جرعة مفرطة من المخدرات. لا تعتاد أبداً على الأمر. ينحطم قلبك كل مرة». تذكرا ما كان يمكن أن يحصل لجايسون لو أصغت إليه، وكانا مسرورين لأنها عرفت أفضل ولم تستمع إليه.

«أنا آسف. لا يبدو هذا عادلاً، أليس كذلك؟ أنا هنا لمعاينة مريضة في الثانية والتسعين، وركها مكسور وتعاني من التهاب في الرئتين، وهي في حال جيدة. وأنت تخسرين فتاة عمرها خمسة عشر عاماً. هل أقدّم لك كوب قهوة؟».

لم تتردد ماكسين. «ربما في مرة أخرى». أومأ برأسه وشكرته مجدداً، ثم غادر. راقبها وهي تمشي في الرواق. ذهل بمظهرها. افترض أنها أكبر سناً مما تبدو عليه. توقع امرأة مشاكسة نوعاً ما. قرأ عنها عبر الإنترنت، لكن لم تكن هناك أي صورة فوتوغرافية لها. لم تضع يوماً

واحدة. لم يكن هذا مهماً لها. معلوماتها وسيرتها الذاتية كافية.

دخل تشارلز ويست المصعد وهو يفكّر فيها، وفي الليلة التي أمضتها. فالنظرة في عينيها عبّرت عن كل شيء. ذُهل حين سمع الممرضة تناديها، وثمة شيء أجبره على الانتظار والتحدث إليها. كل ما استطاع التفكير فيه في أثناء خروجه من المصعد هو أن القدر وضعها في طريقه مرة جديدة.

كان تشارلز ويست آخر مَن خطر في بال ماكسين فيما أوقفت سيارة أجرة، وتوجهت إلى المنزل. لا تزال تفكّر في هيلاري وآل أندرسون، وفي الخسارة الكبيرة التي مُنيا بها، والألم الكبير لخسارة شابة في مثل سنّها. تكره ماكسين مثل هذه اللحظات، لكن مأساة كهذه تجعلها دوماً أكثر عزماً على إنقاذ كل الآخرين من أنفسهم.

الفصل السادس

لم تكن ماكسين في مزاج جيد للخروج مع بلايك والأولاد ليلة الجمعة. اتصل بها بعد الظهر، وأخبرته بما حصل معها في الليلة الفائتة. كان متعاطفاً معها ومدحها مجدداً على ما تقوم به. لم تشعر أنها تستحق المديح في هذا الوقت. قال إنه سيأخذ الأولاد للتسوق بعد الظهر، ودعاها للقدوم. أصرّ على أنهم سيقيمون حفلة، لكنها أصرّت على عدم الذهاب، وشعر أنها محبطة. كان يخطط لأخذ الأولاد لشراء هدية الميلاد لها، وكان متجرا تيفاني وكارتييه على اللائحة، لكنه لم يذكر الأمر لها. دعاها بدلاً من ذلك للقائهم على العشاء، ورفضت هذا أيضاً. شعر بالأسف على انزعاجها الشديد لموت مريضتها، وطلب من الأولاد أن يكونوا في غاية اللطف معها، حين مرر لهم الهاتف للتحدث إليها.

تحدثت إلى سام وكان سعيداً وعلى ما يرام. حين توسلها سام للانضمام إليهم، وعدته بالذهاب معهم إلى العشاء في الليلة التالية. سيحتفلون مع بلايك. أخذهم إلى مطعم 21 لتناول الغداء، وهم يحبون ذلك دوماً، واصطحبهم بجولة في المروحية هذا الصباح، وهذه تسلية مفضلة معه. وعدتهم بالانضمام إليهم في اليوم التالي، وشعرت بالقليل من التحسن بعدما أقفلت الخط.

اتصلت بتيلما واشنطن، وأخبرتها عما آلت إليه الأمور، ولم تتفاجأ صديقتها. شكرتها ماكسين على مساعدتها، ثم اتصلت بوالدي هيلاري أندرسون. كانا في حال سيئة، ولا يزالان مصدومين. عليهما إجراء ترتيبات الدفن، والاتصال بالأصدقاء والأقارب، وكل الأمور المزعجة التي يعيشها الإنسان عند خسارة ولد. عبّرت لهما ماكسين مجدداً عن أسفها الكبير، وشكراها على مساعدتها. وبالرغم من معرفتها بأنها فعلت

كل ما يمكن فعله، إلا أن ماكسين ما زالت مغمورة بإحساس الهزيمة والخسارة.

اتصل بها بلايك مجدداً، بينما كانت ترتدي ثيابها للخروج في نزهة. أراد التحقق من أنها بخير. لم يخبرها، لكنه اشترى لها للتو مع الأولاد سواراً جميلاً من الياقوت.

طمأنته أنها بخير، وتأثرت لإتصاله. بالرغم من أنه ليس محط ثقة بالنسبة إليها، يبقى دوماً حنوناً ويفكّر فيها ويتصرّف معها مثلما تصرف الآن.

«يا الله، لا أعرف كيف تنجحين في ذلك. أذهب إلى مصح للأمراض النفسية لو فعلت ما تفعلينه كل يوم». عرف أنها تستاء كثيراً حين يموت أحد مرضاها، وهذا يحصل أحياناً نظراً إلى طبيعة عملها.

اعترفت له «لقد اعتدت على ذلك، لكن هذا يحصل أحياناً. أشعر بأسىً كبير على الوالدين لأنها ابنتهما الوحيدة. أظن أنني قد أموت إن حصل أي شيء لأولادنا». فقد عايشت كثيراً هذا النوع من الحزن الكبير الناجم عن خسارة ولد. وهذا أكثر ما تخشاه في حياتها، وهو الأمر الوحيد الذي تدعو الله كي لا يحصل أبداً في أسرتها.

«هذا مريع». قلق بشأنها. فبالرغم من تعاطيها الجيد مع المسألة، عرف أنها لا تعيش حياة سهلة نوعاً ما. إنه يريد فعل أي شيء ممكن لها الآن. لكن ليس هناك الكثير الذي يستطيع فعله. هيلاري هي مريضتها، وليست ابنتها.

تنهدت وقالت: «أظن أنني أحتاج إلى يوم إجازة، سأستمتع برؤيتك أنت والأولاد غداً». سيصطحبهم إلى افتتاح مسرحية هذه الليلة، وسيذهبون جميعاً لتناول العشاء في الليلة التالية. «بالإضافة إلى ذلك، عليك تمضية وقت لوحدك معهم، من دون وجودي أنا». إنها حريصة دوماً على ذلك.

قال وهو يبتسم: «أحب وجودك». بالرغم من أنه هو الآخر يحب التواجد لوحده مع أولاده. يبتكر دوماً أشياء مرحة ليقوموا بها. إنه ينوي

أخذهم للتزلج على الجليد في اليوم التالي، وقالت إنها قد تفعل ذلك معهم. لكن اليوم، وبما أن الأولاد مشغولون وفي أيدٍ أمينة، أرادت أن تكون لوحدها. طلب منها بلايك الاتصال به إذا بدّلت رأيها، ووعدته بأن تفعل ذلك. من الجميل وجوده في المدينة، بحيث يمنحها فرصة للتغيير.

ذهبت للقيام بنزهة في الحديقة العامة، ثم بقيت في المنزل طوال فترة بعد الظهر، وحضّرت الحساء بنفسها للعشاء. اتصل بها سام قبل أن يذهبوا إلى المسرحية، وكان متحمساً لمشاهدتها مع والده.

«استمتع مع بابا الليلة، وسآتي للتزلج معكم غداً»، وعدته. تتطلع بالفعل إلى ذلك، وشعرت بالتحسن، بالرغم من أن قلبها يعتصر ألماً كلما فكّرت في السيد والسيدة أندرسون وخسارتهما الكبيرة. كانت تفكّر فيهما، فيما تناولت حساءها في المطبخ، حين دخلت زيلدا.

«هل كل شيء بخير؟». نظرت إليها زيلدا بعينين قلقتين. تعرفها جيداً.

«نعم، بخير، شكراً زيلي».

«تبدين وكأن أحدهم مات».

«بالفعل، ماتت مريضة من مرضاي. فتاة عمرها خمسة عشر عاماً. كان ذلك محزناً جداً».

قالت زيلدا بشدة: «أكره ما تفعلينه، يصيبني ذلك بالاكتئاب. لا أعرف كيف تفعلين ذلك. لماذا لا تفعلين شيئاً مرحاً مثل توليد النساء؟». ابتسمت ماكسين على ما قالته.

«أحب أن أكون طبيبة نفسية، وأنجح أحياناً في إبقاء بعضهم على قيد الحياة».

قالت زيلدا: «هذا جيد». وجلست قربها إلى طاولة المطبخ. تعرف جيداً متى يجب التحدث إليها، ومتى تتركها لوحدها. «كيف حال الأولاد مع والدهم؟».

«بخير. أخذهم في رحلة في المروحية، وذهبوا للتسوق، وتناولوا

الغداء والعشاء خارجاً، وسيحضرون افتتاح مسرحية الليلة».

قالت زيلدا بدقة: «إنه سانتا أكثر مما هو والد». أومأت ماكسين برأسها فيما أنهت حساءها.

ردت بطريقة واقعية «عليه أن يكون كذلك للتعويض عن الأوقات التي لا يتواجد فيها معهم». لم يكن هذا انتقاداً وإنما حقيقة.

قالت زيلدا بحكمة: «لا يمكنك التعويض عن ذلك برحلة في المروحية».

«هذا أفضل ما يستطيع القيام به. لا يستطيع التواجد دوماً، لأي كان. كان هكذا حتى قبل أن يجني كل ذلك المال. لقد أصبح أسوأ حين باتت لديه الوسائل لتدليل نفسه. لطالما وُجد رجال مثله في العالم. في الأيام الغابرة، كانوا يصبحون بحّارة، ومغامرين، ومستكشفين. ربما ترك كريستوفر كولومبوس مجموعة من الأولاد في المنزل. هناك بعض الرجال الذين لا يستطيعون التصرف كأزواج وآباء عاديين».

اعترفت زيلدا «كان والدي من هذا النوع تقريباً، تخلى عن أمي حين كنت في الثالثة من عمري. انضم إلى الأسطول البحري التجاري واختفى. اكتشفت بعد سنوات عدة أن لديه زوجة أخرى وأربعة أولاد في سان فرانسيسكو. لم يزعج نفسه أبداً ليطلّقها، أو حتى ليراسلها. اختفى فقط، وتخلى عنها، وعن أخي وعني».

«هل رأيته يوماً، أقصد لاحقاً؟»، سألت ماكسين باهتمام. لم تخبرها زيلدا أبداً عن هذا الجزء من تاريخها. كانت كتومة نوعاً ما بشأن حياتها الخاصة، وتحترم كثيراً حياتهم الخاصة.

«لا، مات قبل أن أتمكن من فعل ذلك. أردت الذهاب إلى كاليفورنيا واللقاء به. فعل أخي ذلك. لم يتأثر كثيراً بزيارته. توفيت أمنا بعد أن حطّم قلبها. بدت وكأنها أرادت الموت حين كان عمري خمسة عشر عاماً. ذهبت للعيش مع خالتي، وماتت حين كان عمري ثمانية عشر عاماً. عملت كمربية منذ ذلك الحين». يبرر ذلك سبب ارتياحها للعمل ضمن عائلات. فالعائلات

توفر لها الاستقرار والحب اللذين لم تعرفهما أبداً حين كانت صغيرة. عرفت ماكسين أن أخاها مات في حادث دراجة نارية قبل أعوام عدة. لقد أصبحت زيلدا وحيدة مبدئياً، باستثناء العائلة التي تعمل لديها، والمربيات الأخريات اللواتي صادقتهن على مرّ السنوات.

«هل التقيت يوماً بإخوتك؟». سألت ماكسين بلطافة.

«لا. تصورت نوعاً ما أنهم سبب موت أمي. لم أشأ أبداً اللقاء بهم». عرفت ماكسين أنها عملت مع العائلة السابقة طوال تسع سنوات، إلى أن التحق الأولاد بالجامعة. جعلها ذلك تتساءل ما إذا كانت زيلدا نادمة على عدم إنجابها الأولاد، لكنها لم تجرؤ على سؤالها.

جلستا إلى طاولة المطبخ، وتحدثتا قليلاً فيما تناولت ماكسين العشاء، ثم ذهبت كل منهما إلى غرفتها. نادراً ما تخرج زيلدا في المساء، حتى في أيام العطلات. كانت ماكسين تحب البقاء في المنزل أيضاً. لقد ذهبت إلى السرير في وقت باكر من تلك الليلة، وهي لا تزال تفكّر في المريضة التي خسرتها هذا الصباح، والألم الذي يعيشه والداها. من المريح إبعاد المسألة عن تفكيرها والخلود إلى النوم.

شعرت بالتحسن حين استيقظت في صباح اليوم التالي، بالرغم من أنها لا تزال حزينة نوعاً ما. التقت ببلايك والأولاد في مركز روكفلر، وذهبت للتزلج على الجليد معهم. تناولوا بعد ذلك الشوكولاته الساخنة في المطعم الموجود إلى جانب حلبة التزلج، ثم عادوا إلى شقته. توجه الأولاد مباشرة إلى قاعة العرض لمشاهدة فيلم قبل تناول العشاء، وبدوا مرتاحين تماماً معه في المنزل. يتكيفون دوماً بسرعة حين يظهر في حياتهم. اتصلت دافني باثنتين من صديقاتها لدعوتهما للمجيء، تحب عرض منزله الفخم والرائع، والتباهي بوالدها الوسيم.

تحدث بلايك وماكسين لبضع دقائق، ثم انضما إلى الأولاد لمشاهدة الفيلم. إنه فيلم لم يُعرض بعد في الصالات. يعرف بلايك أشخاصاً في كل مكان، ولديه امتيازات لا يملكها سوى عدد قليل غيره. بات يعتبر ذلك

معياراً الآن، وأخبر ماكسين أنه ذاهب إلى لندن بعد نيويورك. سيلتقي بأصدقاء لحضور حفلة روك هناك. يعرف أيضاً النجوم الذين سيشاركون في الحفلة. يبدو أحياناً، حتى لماكسين، وكأنه يعرف الجميع في العالم. لقد عرّف أولاده مرات عدة إلى ممثلين معروفين ونجوم روك مشهورين، وتتم دعوته إلى الكواليس في كل مرة.

حين انتهى الفيلم، دعاهم بلايك جميعاً لتناول العشاء. حجز في مطعم سوشي جديد تم افتتاحه قبل بضعة أسابيع، وهو المكان الجديد الأكثر رواجاً في المدينة. لم تسمع به ماكسين من قبل، لكن دافني تعرف كل شيء عنه. جرت معاملتهم كأشخاص بالغي الأهمية حين وصلوا. دخلوا المطعم الرئيسي، وتم منحهم غرفة طعام خاصة. كان العشاء ممتازاً، وأمضوا جميعاً وقتاً جيداً. أوصلوا ماكسين بعد ذلك إلى منزلها، وذهب بلايك مع الأولاد إلى شقته. سيعيدهم إلى ماكسين عند الساعة الخامسة من اليوم التالي قبل أن يغادر. وكالعادة، حين تبقى لوحدها، تمضي نهارها في العمل. كانت جالسة أمام الكمبيوتر، تعمل على كتابة مقالة، حين عادوا إلى المنزل. لم يأتِ بلايك معهم لأنه تأخر على المطار، وكان الأولاد يطيرون من الحماسة حين دخلوا المنزل. سعد سام كثيراً لرؤية والدته.

أعلن سام «سيأخذنا إلى أسبن خلال عطلة رأس السنة، وقال إنه باستطاعة كل منا إحضار صديق له. هل أستطيع اصطحابك بدلاً من ذلك، أمي؟». ابتسمت ماكسين على العرض.

«لا أظن ذلك حبيبي. قد يرغب بابا بإحضار سيدة معه، وسيكون الموقف غريباً نوعاً ما».

صرّح سام بطريقة عملية «قال إنه ليس لديه صديقة في الوقت الحاضر». وقد خاب أمله لأن أمه رفضت العرض.

«لكن قد يصبح لديه صديقة حينها». لا يحتاج بلايك أبداً إلى وقت طويل للعثور على امرأة جديدة. تقع النساء بين يديه مثل الفاكهة عن الشجرة.

أصرّ سام «ماذا لو لم يفعل؟».

«سنتحدث عن الأمر حينها». تستمتع بتناول العشاء مع بلايك حين يكون موجوداً في المدينة، وتذهب للتزلج معه ومع الأولاد. لكن الذهاب في رحلة مع زوجها السابق هو أكثر مما تريده، وطبعاً أكثر مما يريده هو منها. فحين يعيرها يخته كل سنة، لتمضية عطلات الصيف، لا يكون موجوداً. بالإضافة إلى ذلك، يكون هذا وقته ليمضيه مع أولاده. إلا أنه لطف من سام سؤالها عن ذلك.

أخبروها عن كل الأشياء التي فعلوها وشاهدوها معه خلال الأيام الثلاثة الماضية، وكانت معنوياتهم جميعاً جيدة. لم يكونوا حزينين كما هي حالهم غالباً حين يغادر المدينة، لأنهم عرفوا هذه المرة أنهم سيرونه بعد شهر واحد في أسبن. إنها مسرورة بمشروعه، وأملت ألا يخيّب أملهم إذا حصل شيء ما أو صرف شيء آخر انتباهه. يحب الأولاد الذهاب معه إلى أسبن، وإلى أي مكان آخر. فهو يفعل أي شيء قد يكون مصدر مغامرة ومرح بالنسبة إليهم.

خلال العشاء، قالت دافني إن والدها أخبرها بإمكانية استعمالها لشقته في أي وقت، حتى لو لم يكن موجوداً، وبدت أمها متفاجئة بالعرض. لم يقل ذلك أبداً من قبل، وتساءلت ماكسين ما إذا كانت دافني أساءت فهمه.

قالت بفخر: «قال إنني أستطيع دعوة صديقاتي لمشاهدة الأفلام في غرفة العرض».

قالت ماكسين بحذر: «ربما لحفلة ذكرى ميلاد، أو لشيء مميز، لكن لا أظن أنه يجدر بك الذهاب إلى هناك». لم تحب الفكرة على الإطلاق، مجموعة من الفتيات في الثالثة عشرة من عمرهن يلهون في شقته، ولا تشعر بالارتياح بالذهاب هي إلى هناك إذا لم يكن موجوداً. لم يتم التطرق أبداً إلى الموضوع من قبل. وبدت دافني منزعجة من إجابتها.

قالت دافني وهي تنظر بغضب إلى أمها: «إنه والدي، وقال إنني أستطيع الذهاب، وهذه شقته».

«هذا صحيح. لكنني لا أظن أنه يجدر بك الذهاب إلى هناك حين لا يكون موجوداً». قد تحصل الكثير من الأمور في تلك الشقة، وشعرت بالقلق لأن بلايك متساهل جداً حيال ذلك. أدركت فجأة أن وجود مراهقين مع والد مثل بلايك قد يتحول إلى تحدٍّ كبير. لا تتطلع إلى ذلك. لم تحصل أي مشكلة حتّى الآن، لكن ذلك قد يحصل. بدت دافني وكأنها تريد الكفاح للفوز بالعرض الذي عرضه عليها والدها. قالت ماكسين ببساطة: «سأتحدث إليه بشأن ذلك»، فيما توجهت دافني بتذمر إلى غرفتها. ما كانت ماكسين تنوي قوله لبلايك هو تحذيره بعدم التلاعب مع أولاده، أو تحضيرهم للكارثة من خلال منحهم الكثير من الحرية فيما هم في بداية مرحلة المراهقة. أملت فقط أن يكون راغباً بالتعاون معها. وإلا، ستكون السنوات القليلة المقبلة بمثابة كابوس. كل ما كانت تحتاج إليه هو أن يعطي بلايك مفاتيح الشقة إلى دافني. مجرد التفكير في ذلك وفي نوع الأشياء التي قد تحصل هناك جعلها ترتعد. ستقول له حتماً شيئاً ما بشأن ذلك. ولا شك في أن دافني لن تحب ذلك. كالمعتاد، يتوجب على ماكسين أن تكون صارمة مقابل تساهل بلايك مع الأولاد.

أنهت ماكسين مقالتها تلك الليلة، وشاهد الأولاد التلفاز في غرفهم. كانوا متعبين بعد ثلاثة أيام من الإثارة المستمرة مع والدهم. فالتواجد معه أشبه بالتحليق في الهواء في مناطيد كبيرة، هم الثلاثة مع بعضهم في الوقت نفسه. يحتاجون دوماً إلى بعض الوقت كي يهدأوا.

كان الفطور في صباح اليوم التالي فوضوي بشكل كبير. استيقظ الجميع متأخرين. أوقع جاك بعض حبوب الذرة على الطاولة، ولم تستطع دافني العثور على هاتفها الخلوي، ورفضت الذهاب إلى المدرسة قبل أن تعثر عليه. انفجر سام في البكاء حين اكتشف أنه نسي حذاءه المفضل في شقة والده، وعانت زيلدا من ألم في الأسنان. نجحت دافني في العثور على هاتفها في اللحظة الأخيرة، ووعدت ماكسين سام بأنها ستشتري له الحذاء نفسه في ساعة الغداء، ودعت لأن تتمكن من العثور على واحد مثله، غادرت إلى العيادة لمعاينة المرضى بينما كانت زيلدا تتصل بطبيب أسنانها. إنه واحد من الصباحات الذي يدفع المرء إلى الرغبة بشدّ شعره والانطلاق

بصعوبة في النهار. اصطحبت زيلدا سام إلى المدرسة في طريقها إلى طبيب الأسنان، وبدأ المطر ينهمر، بينما ذهبت ماكسين سيراً على القدمين إلى العمل. كانت مبللة تماماً حين وصلت إلى هناك، وكان مريضها الأول في انتظارها، وهذا أمر لا يحصل أبداً معها تقريباً.

نجحت في التعويض عن الوقت، وعاينت كل مرضى الصباح، وعثرت على الحذاء المناسب لسام في متاجر نايك، ما عنى تفويتها وجبة الغداء. اتصلت زيلدا للقول إنها ستعالج ضرسها هذا اليوم، وكانت ماكسين تحاول إجراء اتصالاتها حين أخبرتها سكرتيرتها أن تشارلز ويست على الخط. تساءلت ماكسين عن سبب اتصاله، وما إذا كان يحوّل لها مريضاً. أخذت الاتصال وهي تبدو منزعجة وغاضبة قليلاً. إنه أحد الأيام الصعبة من بدايته وحتى نهايته.

قالت بسرعة: «دكتورة ويليامز».

«مرحباً». لم تكن هذه هي التحية التي تتوقعها منه، لم تكن في مزاج للثرثرة على الإطلاق. لقد حان موعد مريضها الأخير، وأمامها خمس عشرة دقيقة للانتهاء من إجراء اتصالاتها.

«مرحباً. كيف أستطيع مساعدتك؟». سألت بفظاظة، مدركة أنها تخطّت قليلاً حدود اللياقة فيما فعلت ذلك.

«أردت فقط أن أعبّر لك عن أسفي بشأن مريضتك حين رأيتك يوم الجمعة».

قالت وهي تبدو مذهولة: «آه، هذا لطف منك. كان الأمر مزعجاً جداً. تفعل كل شيء ممكن لتفادي ذلك، وتخسر الرهان أحياناً في كل الأحوال. شعرت بالأسى الكبير على والديها. كيف حال مريضتك التي تبلغ الثانية والتسعين من عمرها وتعاني من مشكلة في وركها؟». تأثر لأنها تذكرت. لم يكن واثقاً من أنه كان ليتذكر.

«ستعود إلى المنزل غداً. شكراً على السؤال. إنها مذهلة. لديها صديق في الثالثة والتسعين من عمره».

قالت ماكسين، وهي تضحك: «إنها أفضل حالاً مني». مما أعطاه الفرصة التي يريدها.

«نعم، أنا أيضاً. تتعرف إلى صديق جديد كل سنة. يتهافتون عليها مثل الذباب، وأقسم إنها تعثر على واحد جديد كل بضعة أسابيع. يفترض بالمرء أن يكون محظوظاً كفاية ليعيش مثل هذه الشيخوخة. قلقت عليها قليلاً حين أصيبت بالتهاب الرئتين، لكنها تغلبت عليه. أحبها. أتمنى لو كان كل مرضاي مثلها». كانت ماكسين تبتسم لوصفه لها، وبقيت تتساءل عن سبب اتصاله بها.

«هل من شيء أستطيع فعله لك، حضرة الطبيب؟». سألت وهي تبدو رسمية قليلاً، لكنها كانت مشغولة.

قال لها، وهو يبدو غريباً: «في الواقع، تساءلت إذا كنت تودين تناول الغداء معي في وقت ما. ما زلت أشعر أنني أدين لك باعتذار على حادثة وكسلير». إنه العذر الوحيد الذي استطاع التفكير فيه.

قالت وهي تلقي نظرة سريعة على ساعتها: «لا تكن سخيفاً». لديه كل الأيام ليتصل بها. إنها تتسابق مع الوقت منذ الصباح. «كانت غلطة صريحة. انتحار المراهقين ليس من اختصاصك. صدقني أنني ما كنت لأعرف ماذا أفعل مع امرأة في الثانية والتسعين من عمرها، وركها مكسور، وتعاني من التهاب في الرئتين، ولديها صديق».

أصرّ «هذا لطف منك. ماذا عن الغداء؟».

«لست مضطراً إلى فعل ذلك».

«أعرف ذلك، لكنني أودّ ذلك. ماذا تفعلين غداً؟». توقف عقلها عن التفكير عند سماعها السؤال. ماذا يفعل هذا الرجل بدعوتها إلى الغداء، ولماذا؟ شعرت بالسخافة. لا تحذف أبداً أي وقت من جدول مواعيدها لتناول غداء عمل مع أطباء آخرين.

قالت وهي تبحث عن سبب لرفض الدعوة: «لا أعرف... لديّ... ربما لديّ مريض».

«إذاً، ماذا عن اليوم الذي بعده؟ عليك تناول الغداء في وقت ما».

«حسناً، نعم، أفعل ذلك... حين يكون لديّ الوقت لذلك، ولا يحصل ذلك غالباً». شعرت بالحماقة حين قالت إن لديها وقتاً يوم الخميس. ألقت نظرة على جدول مواعيدها فيما قالت ذلك. «لكنك لست مضطراً إلى فعل ذلك».

قال وهو يضحك: «سأتذكر ذلك». اقترح عليها مطعماً قرب عيادتها، لتسهيل الأمر عليها. إنه مطعم صغير وجميل، وتتناول الغداء هناك بين الحين والآخر مع أمها. مضت أعوام عدة على تخصيصها بعض الوقت لتناول الغداء خارجاً مع صديقاتها. تفضّل معاينة المرضى، وفي الليل تبقى في المنزل مع الأولاد. معظم النساء اللواتي تعرفهن مشغولات بقدرها هي. لم تعش حياة اجتماعية مهمة منذ أعوام.

حددا موعداً ظهر يوم الخميس، وبدت ماكسين مذهولة حين وضعت السماعة. لم تكن واثقة ما إذا كان هذا موعداً غرامياً، أو لباقة مهنية، لكنها شعرت بالسخافة في كلتا الحالتين. بالكاد تتذكر شكله. فقد كانت منزعجة جداً بشأن هيلاري أندرسون صباح الجمعة، وكل ما تتذكره هو أنه طويل، وأنه ذو شعر أشقر يغزوه الشيب. أما باقي مظهره فهو مشوش، ولا يهم ذلك. دوّنت ملاحظة في دفترها، وأجرت اتصالين بأسرع ما يمكن، وعاينت مريضها الأخير.

توجب عليها تحضير العشاء بنفسها لأولادها تلك الليلة، لأن زيلدا كانت في السرير بعد أن تناولت مسكّنات الألم. انتهى النهار مثلما بدأ، بفوضى وتوتر. وأحرقت طعام العشاء فطلبوا البيتزا.

شهد اليومان التاليان الكثير من التوتر أيضاً، وحلّ صباح يوم الخميس حين تذكّرت فجأة موعد الغداء مع تشارلز ويست. جلست إلى مكتبها تنظر إلى جدول مواعيدها بكآبة. لا تعرف ما الذي جعلها تفعل ذلك. فهي لا تعرفه، ولا تريد ذلك. آخر شيء تحتاج إليه هو تناول الغداء مع غريب. ألقت نظرة على ساعتها، وأدركت أنها تأخرت خمس دقائق تقريباً، فأمسكت

بمعطفها، وخرجت مسرعة من المكتب. لم يكن لديها حتى الوقت لوضع أحمر الشفاه أو تمشيط شعرها، إنها لا تبالي بذلك.

حين وصلت ماكسين إلى المطعم، كان تشارلز ويست ينتظر جالساً إلى طاولة. وقف حين شاهدها تدخل، وتعرفت إليه. إنه طويل، مثلما تتذكر، وحسن المظهر، ويبدو وكأنه في أواخر العقد الرابع من العمر. ابتسم ووقف فيما اقتربت من الطاولة.

قالت وهي مرتبكة قليلاً: «آسفة لأنني تأخرت». ولاحظ الحذر في عينيها. يعرف ما يكفي عن النساء لإدراك ذلك، وعلى عكس مريضته ذات الأعوام الاثنين والتسعين، ليست امرأة تبحث عن صديق. بدت ماكسين ويليامز بعيدة ومتحفظة. ثم أضافت «عشت أسبوعاً مجنوناً في العيادة».

قال بسرور: «وأنا أيضاً، أظن أن العطلات تصيب الأشخاص بالجنون. يصاب كل مرضاي بالتهاب الرئتين بين الشكر والميلاد، وأنا واثق من أن حالتك ليست أفضل خلال العطلات أيضاً». بدا مرتاحاً جداً، وسألهما النادل إذا كانا يودان طلب شراب. اعتذرت، وطلب تشارلز كوباً من الشراب الفرنسي.

«والدي جراح عظام، ويقول دوماً إن الجميع يكسرون أوراكهم بين الميلاد ورأس السنة». بدا تشارلز محتاراً حين قالت ذلك، وتساءل عمّن يكون والدها.

«آرثر كونورز»، أضافت، وتعرّف تشارلز فوراً إلى الاسم.

«أعرفه. إنه رجل مذهل. سبق وحوّلت إليه المرضى». بدا تشارلز من نوع الرجال الذين يوافق عليهم والدها.

«الجميع في نيويورك يحوّلون له أصعب الحالات. يدير أهم عيادة في المدينة».

«وما الذي جعلك تختارين الطب النفسي بدلاً من التخصص مثله؟». نظر إليها تشارلز باهتمام فيما ارتشف شرابه الفرنسي.

«أنا مفتونة بالطب النفسي منذ كنت صغيرة. ما يفعله والدي بدا لي

دوماً أشبه بالتجارة. عذراً، من المريع قول ذلك. أحب ما أفعله أكثر. وأحب العمل مع المراهقين. يبدو وكأنك تحقق هدفاً أفضل عند إحداث فرق. حين يكبرون في السن، يصبح كل شيء منظماً. لا أستطيع أبداً أن أتخيل نفسي في عيادة للطب النفسي في بارك أفنيو أستمع إلى مجموعة من سيدات المنزل العصبيات والضجرات، أو إلى الرجال المقامرين والمدمنين على المشروبات والذين يخونون زوجاتهم». هذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيع قوله لطبيب آخر. «أنا آسفة». شعرت فجأة بالإحراج، فيما ضحك. «أعرف أن هذا يبدو مريعاً. لكن الأولاد أكثر صراحة، ويستحقون الإنقاذ أكثر».

«أوافقك الرأي. لكنني لست واثقاً من أن المقامرين الذين يخونون زوجاتهم يذهبون إلى أطباء نفسيين».

اعترفت له «ربما هذا صحيح، لكن زوجاتهن يفعلن ذلك. يوترني هذا النوع من العمل».

«آه، ولا يفعل ذلك انتحار المراهقين؟»، تحداها، وترددت قبل الإجابة.

«يسببون لي الحزن، ولكن ليس التوتر. أشعر أنني مفيدة في معظم الأوقات. لا أظن أنني أحدث فرقاً كبيراً في حياة الراشدين العاديين الذين يريدون فقط أن يصغي شخص ما إليهم. الأولاد الذين أراهم يحتاجون فعلاً إلى المساعدة».

«هذه نقطة جيدة». سألها حينها عن عملها في معالجة الصدمات، وأشار إلى أنه بالفعل قد اشترى أحدث كتاب لها، مما أثر فيها، وأخبرها أنه مطلّق. قال لها إنه بقي وزوجته معاً طوال واحد وعشرين عاماً، لقد تركته قبل عامين من أجل شخص آخر. ذُهلت ماكسين لأنه يبدو واقعياً جداً حيال ذلك. أخبرها أنه لم يتفاجأ كثيراً، لأن زواجهما عانى المشاكل طوال أعوام.

قالت ماكسين بتعاطف: «هذا مؤسف جداً، هل لديك أولاد؟». هزّ

رأسه وقال إن زوجته لم ترغب بالإنجاب.

«هذا هو ندمي الوحيد. عاشت طفولة صعبة، وقررت في النهاية أنها غير مؤهلة لإنجاب الأولاد. وقد تأخر الوقت لأبدأ مجدداً الآن». لم يبدُ محطَّم الفؤاد، لكنه يشعر بالأسف لأنه فوّت ذلك عليه، مثل رحلة مثيرة. «هل لديك أولاد؟»، سألها فيما وصل الغداء.

قالت مبتسمة: «لديّ ثلاثة أولاد». لا تستطيع تخيل حياتها من دونهم.

«لا بد من أنهم يبقونك مشغولة. هل يشاركك أحد في الرعاية؟». فمعظم الأشخاص يفعلون ذلك، حسبما يعرف. ضحكت ماكسين على السؤال.

«لا. يسافر والدهم كثيراً. يراهم فقط مرات قليلة في السنة. يبقون معي طوال الوقت، وهذا أفضل بالنسبة إليّ».

سأل باهتمام «ما هي أعمارهم؟». لاحظ كيف أشرق وجهها حين بدأت تتحدث عن أولادها.

«ثلاثة عشر عاماً، واثنا عشر عاماً، وستة أعوام. الكبيرة فتاة، والآخران صبيان».

قال بإعجاب: «لا بد من أنك تتعبين كثيراً لوحدك، كم مضى على طلاقك؟».

«خمسة أعوام. نحن متفقان كثيراً. إنه شخص رائع. لا يشبه الزوج أو الوالد كثيراً، وإنما هو أشبه بولد. أتعب أحياناً من كوني الشخص الوحيد الناضج. إنه مثل عمّ غريب ومجنون بالنسبة إلى الأولاد. لا يكبر أبداً ولا أظن أنه سيفعل يوماً».

قالت ذلك مع ابتسامة، وراقبها تشارلز، محتاراً. إنها ذكية ولطيفة وتأثر بالعمل الذي تقوم به. فهو يستمتع بقراءة كتابها.

«أين يعيش؟».

«في كل أرجاء العالم. لندن، ونيويورك، وأسبن، وسان بارتس،

اشترى للتو منزلاً في مراكش. يعيش حياة أسطورية نوعاً ما». أومأ تشارلز برأسه، متسائلاً عن الرجل الذي تزوجت به، لكنه لم يشأ السؤال. إنه مهتم لأمرها وليس لأمر زوجها السابق.

تحدثا بارتياح طوال الغداء، وقالت إنه عليها العودة لمعاينة المرضى، وكذلك هو. أخبرها كم استمتع بصحبتها، وقال إنه يودّ رؤيتها مجدداً. لا تزال لا تعرف ما إذا كان هذا موعداً عاطفياً، أو لباقة مهنية بحيث يلتقي طبيب طبيباً آخر. لم أوضح لها الأمر من خلال دعوتها إلى العشاء. بدت مذهولة حين طلب منها ذلك.

قالت ماكسين وهي تتورد خجلاً: «أنا... آه... آه...، ظننت أنه مجرد غداء... تعرف... بسبب آل وكسلير». ابتسم لها. بدت متفاجئة جداً بحيث تساءل ما إذا كانت تقيم علاقة مع شخص ما وتتوقع منه معرفة ذلك أو الإحساس بذلك.

سألها بحذر «هل تواعدين أحداً؟». بدت أكثر إحراجاً. كانت تتورد خجلاً.

«تقصد كما في اللقاءات العاطفية؟».

«نعم، كما في اللقاءات العاطفية». كان يضحك.

«لا». لم تعش لقاء عاطفياً منذ أكثر من عام. التفكير في الأمر بهذه الطريقة يصيب فعلاً بالاكتئاب، وتحاول معظم الوقت ألا تفعل ذلك. لم تلتق برجل يعجبها منذ وقت طويل، وتساءلت أحياناً ما إذا كانت هي التي تمانع. خرجت مع عدد من الأشخاص بعد انفصالها عن بلايك، وسئمت من خيبات الأمل. بدا لها نسيان الأمر أكثر بساطة. اللقاءات العاطفية المدبرة التي ذهبت إليها، بنصيحة من صديقاتها، كانت مريعة فعلاً، ولم يكن الأشخاص الآخرون الذين التقت بهم صدفة أفضل؛ قالت بغرابة: «لا أظن أنني أواعد أحداً، ليس منذ فترة على أي حال. بدا الأمر عديم الجدوى». تعرف عدداً من الأشخاص الذين التقوا عن طريق تواصلهم مع بعضهم عبر الإنترنت، ولا تستطيع تخيل نفسها وهي تفعل ذلك، ولذلك توقفت عن

المحاولة، وأقلعت عن اللقاءات العاطفية. لم تخطط للأمر بهذه الطريقة، لكن هذا ما حصل، وهي مشغولة كثيراً.

سأل بلطافة «هل ترغبين بتناول العشاء؟». يصعب التصديق أن امرأة بلطافتها، وفي عمرها، لا تواعد رجلاً. تساءل ما إذا كانت مصدومة من زواجها، أو ربما من علاقة ما.

قالت كما لو أنه اقترح عليها لقاء: «سيكون ذلك جيداً». ونظر إليها بعدم تصديق وسرور.

«ماكسين، فلنوضح شيئاً هنا. أشعر وكأنك تظنين أنني أدعوك إلى لقاء من نوع ما بين الأطباء. أظن أنه من الرائع أن نكون نحن الاثنان طبيبين. لكن كي أكون صريحاً، لا أبالي إذا كنت راقصة أو مصففة شعر. تعجبينني. أرى أنك امرأة جميلة. من الممتع التحدث إليك، ولديك حس بالدعابة، ولا يبدو أنك تكرهين الرجال، وهذا نادر هذه الأيام. سيرتك الذاتية تجعل معظم الأشخاص يشعرون بالخجل، سواء أكانوا رجالاً أم نساء. أظن أنك جذابة وجميلة. دعوتك إلى الغداء لأنني أردت التعرف إليك، كامرأة. وأنا أدعوك إلى العشاء لأنني أريد التعرف إليك بصورة أفضل. هذا موعد عاطفي. تناولنا العشاء وتحدثنا وتعرفنا إلى بعضنا. موعد عاطفي. ثمة شيء يقول لي إن هذا ليس على جدول مواعيدك. لا أعرف لماذا، وإذا كان هناك سبب جدي لذلك، ربما يجدر بك إخباري. وإلا، فأنا أسألك الخروج معي في موعد عاطفي، وتناول العشاء. هل توافقين على ذلك؟». كانت تبتسم له، ولا تزال تتورد خجلاً، بينما شرح المسألة.

«نعم. حسناً. أنا غير معتادة على ذلك قليلاً».

«لا أستطيع أن أتخيل لم تكونين هكذا إلا إذا كنت تعتمرين قبعة كبيرة». رأى أنها فاتنة، ويوافقه معظم الرجال الرأي. نجحت نوعاً ما في إبعاد نفسها عن أجواء اللقاءات العاطفية، وهي تخفي نورها تحت مشعل. «إذاً، متى تودين تناول العشاء؟».

«لا أعرف. أنا حرة تماماً. لديّ عشاء للجمعية الوطنية للطب النفسي

يوم الأربعاء من الأسبوع المقبل، وليست لديّ أي مشاريع أخرى غير ذلك».

«ماذا عن الثلاثاء؟ لمَ لا آمرّ لاصطحابك عند الساعة السابعة، وتذهب إلى مكان جميل؟». يحب المطاعم الجميلة وأنواع الشراب الفرنسي الجيدة. إنها سهرة لم تعرف مثلها منذ أعوام، إلا مع بلايك والأولاد، وهذه سهرات غير ناضجة كثيراً. حين تريد رؤية صديقاتها المتزوجات، لا يذهبن إلى المطاعم، بل تذهب إلى منازلهن لتناول العشاء. وباتت تفعل ذلك بتواتر أقل. جعلت حياتها الاجتماعية تختفي نتيجة قلة الانتباه والاهتمام. ذكّرها تشارلز، من دون أن يقصد ذلك، بأنها كسولة جداً في مسألة الخروج. لا تزال مذهولة بدعوته، لكنها وافقت على يوم الثلاثاء. لم تدوّن ملاحظة بشأن برنامج العشاء، لأنها عرفت أنها ستتذكر، وشكرته فيما نهضا وغادرا. «أين تسكنين بالمناسبة؟». أعطته العنوان، وقالت إنه سيتعرف إلى الأولاد حين يأتي لاصطحابها، فأجابها أنه يود فعل ذلك. أوصلها إلى عيادتها، فأحبت المشي بقربه. منحها صحبة جيدة خلال الغداء. ثم شكرته مجدداً، ودخلت عيادتها وهي تشعر بالدوار. لديها موعد عاطفي. عشاء عاطفي صريح مع طبيب جذاب، عمره تسعة وأربعون عاماً. أخبرها عن عمره خلال الغداء. لا تعرف ما يجب فعله، بالرغم من أنها أدركت، أن والدها سيكون مسروراً على الأقل. عليها إخباره بذلك حين تتحدث إليه في المرة التالية. أو ربما بعد اللقاء العاطفي.

اختفت بعدها كل الأفكار المتعلقة بتشارلز ويست من رأسها. كانت جوزفين تنتظر في عيادتها. نزعت ماكسين معطفها، وأسرعت لبدء جلسة العلاج.

الفصل السابع

كانت عطلة نهاية الأسبوع حافلة جداً بالنسبة إلى ماكسين. شارك جاك في مباراة لكرة القدم، وعليها توفير وجبات الطعام لكل الفريق. ذهب سام إلى حفلتي ميلاد، وتولّت توصيله إليهما بالسيارة بنفسها. ودعت دافني عشر صديقات لتناول البيتزا. إنها المرة الأولى التي تدعو فيها صديقات إلى المنزل بعد الحفلة المشؤومة سالفة الذكر، ولذلك راقبتهن ماكسين عن كثب، ولكن لم يحصل أي شيء غريب. عادت زيلدا لتقف على قدميها مجدداً، لكنها أخذت عطلة في نهاية الأسبوع. تريد الذهاب إلى معرض فني وتنوي رؤية صديقات لها.

عملت ماكسين على كتابة مقالة أخرى في وقت فراغها في ساعة متأخرة من الليل. وتم إدخال اثنين من مرضاها إلى المستشفى خلال عطلة نهاية الأسبوع، واحد بسبب جرعة مفرطة من المخدرات، وآخر بغية مراقبته كونه معرضاً للانتحار.

توجب عليها زيارة ستة أولاد في مستشفيين مختلفين يوم الاثنين، وعاينت بعض المرضى في عيادتها. وحين وصلت إلى المنزل، كانت زيلدا مريضة كثيراً بسبب الأنفلونزا وارتفاع الحرارة. وباتت أسوأ حالاً صباح الثلاثاء. طلبت منها ماكسين عدم القلق بشأن ذلك والبقاء في السرير. تستطيع دافني إحضار سام من المدرسة إلى المنزل، إذ يتوجب على جاك المشاركة في مباراة لكرة القدم، وسينتقل مع أصدقائه. يستطيعون تدبّر الأمر. وعليهم فعل ذلك، إلا إذا تآمر الحظ ضد ماكسين.

عاينت ماكسين المرضى الواحد تلو الآخر طوال اليوم. الثلاثاء هو اليوم الذي تعاين فيه المرضى الجدد، وتدوّن سجلاتهم، علماً أن لقاءاتها الأولى مع المراهقين تكون في غاية الأهمية، ولذلك عليها أن تكون في

كامل يقظتها وانتباهها. عند الظهر، اتصلت بها مدرسة سام. لقد تقيأ مرتين خلال النصف ساعة الماضية، ولم تكن زيلدا في حالة تسمح لها بالذهاب لإحضاره. يتوجب على ماكسين فعل ذلك. لديها استراحة لعشرين دقيقة بين مواعيد المرضى، فأخذت سيارة أجرة، وذهبت لإحضار سام من المدرسة. بدا مريضاً جداً، وتقيأ عليها في سيارة الأجرة. انتاب السائق غضب شديد، ولم يكن لديها أي شيء لتنظيف القيء، فأعطت السائق عشرين دولاراً كبقشيش. اصطحبت سام إلى المنزل، ووضعته في السرير، وطلبت من زيلدا الانتباه إليه بالرغم من حرارتها المرتفعة. الأمر أشبه بترك الأعرج مع الكسيح، لكن لم يكن أمامها أي خيار آخر. استحمّت، وبدلت ثيابها، وتوجب عليها العودة إلى العيادة. تأخرت عشر دقائق على مريضتها، مما ولّد انطباعاً سيئاً، وتذمرت والدة الفتاة من ذلك. شرحت لها ماكسين أن ابنها مريض، واعتذرت كثيراً.

بعد ساعتين، اتصلت زيلدا لتقول إن سام تقيأ مجدداً، وأصبحت حرارته مئة ودرجة فهرنهايت. طلبت منها ماكسين إعطاءه تايلنول، وذكّرتها بضرورة أخذها القليل منه هي الأخرى، وعند الخامسة بدأ المطر ينهمر. وصلت مريضتها الأخيرة، واعترفت أنها دخّنت مادّة الحشيشة بعد ظهر ذلك اليوم، ولذلك بقيت ماكسين بعد الدوام لمناقشة المسألة معها. كانت الفتاة تتردّد على مجموعة تتعاطى الماريجوانا، وهذه خطوة كبيرة بالنسبة إليها، وفكرة سيئة جداً لأنها تتناول الأدوية.

كانت مريضة ماكسين قد غادرت للتو حين اتصل بها جاك مذعوراً. لقد فاتته سيارة الأم التي كانت ستقلّهم جميعاً وهو يقف وحيداً في زاوية الشارع، في منطقة سيئة من آبر ويست سايد. أرادت قتل الأم التي تركته. سيارتها معطلة وفي المرآب، فاحتاجت إلى نصف ساعة للعثور على تاكسي. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة حين وصلت أخيراً إلى جاك، الذي وقف يرتجف تحت المطر أمام محطة للباصات، وكانت الساعة السابعة إلا ربعاً حين وصلا إلى المنزل نتيجة زحمة السير. كانا مبللين ويشعران بالبرد. بدا سام مريعاً ويبكي حين دخلت ماكسين غرفتها. شعرت

وكأنها تدير مستشفى، فيما تحققت من وضعه هو وزيلدا، وطلبت من جاك أخذ حمام دافئ. كان مبللاً كثيراً وبدأ يعطس.

قالت لدافني فيما رأتها خلال توجهها إلى غرفة سام: «كيف حالك؟ أتمنى ألا تكوني مريضة».

«أنا بخير، لكن عليّ تحضير بحث علوم للغد. هل تستطيعين مساعدتي؟». عرفت ماكسين أن السؤال الحقيقي هو ما إذا كانت أمها تستطيع إنجازه لها.

سألتها ماكسين وقد بدت متوترة «لماذا لم تحضّره خلال عطلة نهاية الأسبوع؟».

«نسيت ذلك».

«قصة محتملة»، تمتمت ماكسين، فيما رنّ جرس المبنى الداخلي أمام المدخل. إنه البوّاب. قال إن الدكتور تشارلز ويست ينتظرها في الأسفل. فاتسعت عينا ماكسين وامتلأتا بالذعر. تشارلز! لقد نسيت. إنه الثلاثاء. لديهما موعد لتناول العشاء، ويفترض به المجيء عند الساعة السابعة. وصل في الوقت المحدد، فيما كان أفراد أسرتها كلهم تقريباً يعانون من المرض، ويتوجب على دافني تحضير بحث علوم ويفترض بماكسين مساعدتها. ستلغي موعد العشاء، لكن هذا سيكون فظاً جداً في الدقيقة الأخيرة. لا تستطيع تخيل نفسها وهي خارجة للسهر، وكانت ترتدي الثياب التي ارتدتها في العيادة. زيلدا مريضة جداً لتترك الأولاد لها. إنه كابوس. بدت مصعوقة حين فتحت الباب لتشارلز بعد ثلاث دقائق، وبدا مذهولاً لرؤيتها بسروال وكنزة، فيما شعرها مبلل ووجهها من دون ماكياج.

قالت لحظة رأته: «أنا آسفة جداً، إنه يوم كارثي. أحد أولادي مريض، فيما الثاني فوّت سيارة العودة إلى المنزل بعد مباراة كرة القدم، وتحتاج ابنتي إلى تحضير بحث علوم للغد، وتعاني المربية من ارتفاع في الحرارة، سأصاب بالجنون. تفضل أرجوك». دخل عبر الباب الرئيسي،

فيما وصل سام إلى الممر وهو يبدو شاحب اللون. «هذا هو ابني سام»، شرحت له فيما تقيأ سام مجدداً، وحدّق إليه تشارلز مذهولاً.

تأوه، ونظر إلى ماكسين بحذر.

«أنا آسفة. لمَ لا تدخل إلى غرفة الجلوس وترتاح؟ سأكون معك في غضون دقيقة». أدخلت سام بسرعة إلى حمامها، حيث تقيأ مجدداً، ثم عادت مسرعة إلى المدخل، ونظفت القيء بمنديل. وضعت سام في سريرها، فيما دخلت دافني إلى الغرفة.

«متى نستطيع إنجاز بحث العلوم؟».

قالت ماكسين: «آه، يا الله». وهي على وشك البكاء أو الانهيار.

«لا تهتمي أبداً لبحثك. ثمة رجل في غرفة الجلوس. اذهبي وتحدثي إليه. اسمه الدكتور ويست».

«ومن يكون؟». بدت دافني متفاجئة، وبدت أمها مجنونة. كانت تغسل يديها، وتحاول تمشيط شعرها في الوقت نفسه. لكن الأمر لم ينجح.

«إنه صديق. لا. إنه غريب. لا أعرف من يكون. سأتناول العشاء معه».

«الآن؟». بدت دافني مذعورة. «ماذا عن بحثي؟ إنه الامتحان النصف نهائي لهذا الفصل».

«إذاً، كان يجدر بك التفكير فيه قبلاً. لا أستطيع إنجاز البحث بالنيابة عنك. لديّ موعد عاطفي، وأخوك يتقيأ، وزيلدا تموت، وجاك سيصاب على الأرجح بالتهاب في الرئتين نتيجة وقوفه تحت المطر أمام محطة الباصات لمدة ساعة».

حدقت إليها دافني «لديك موعد عاطفي؟ متى حصل ذلك؟».

«لم يحصل. ولن يحصل أبداً إذا استمر الوضع على هذا المنوال، هلا ذهبت من فضلك وتحدثت إليه؟». فيما قالت ذلك، قال سام إنه يريد التقيؤ مجدداً، فأسرعت به إلى الحمام، وذهبت دافني للقاء تشارلز مع نظرة استياء. تمتمت وهي في طريقها قائلة إنه إذا رسبت في الامتحان، فلن تكون

هذه غلطتها لأن أمها لن تساعدها في البحث. «لماذا هذه غلطتي؟»، صرخت عليها ماكسين من باب الحمام.

أعلن سام «أشعر أنني أفضل»، لكنه لم يكن يبدو كذلك. أعادته ماكسين إلى السرير، ووضعت المناشف حوله، وغسلت يديها مجدداً، وتركت شعرها. كانت على وشك مغادرة الغرفة لرؤية تشارلز، حين نظر إليها سام بحزن من السرير. «كيف حصل أن لديك موعداً غرامياً؟».

«حصل. دعاني لتناول العشاء».

«هل هو لطيف؟». بدا سام قلقاً. لا يستطيع حتى أن يتذكر متى خرجت أمه آخر مرة. ولا هي تتذكر أيضاً.

قالت بصراحة: «لا أعرف بعد. ليست مسألة مهمة، سام. مجرد عشاء». أومأ برأسه. «سأعود خلال دقيقة»، طمأنته. لا مجال لأن تخرج لتناول العشاء.

أخيراً، وصلت إلى غرفة الجلوس في الوقت المناسب لسماع دافني تخبر تشارلز عن يخت والدها، وطائرته، وشقته الفخمة في نيويورك، ومنزله في أسبن. لم يكن هذا هو بالضبط ما تريد ماكسين أن تتحدث عنه خلال الموعد الأول، بالرغم من أنها شعرت بالامتنان لأن دافني نسيت لندن، وسان بارتس، والمغرب، والبندقية. وجهت نظرة غاضبة إلى دافني، وشكرتها على تسلية تشارلز. التفت إليه ماكسين حينها، واعتذرت كثيراً عن تصرف سام عند وصوله. لكن ما أرادت فعلاً الاعتذار عنه هو تبجح وتباهي دافني بوالدها. حين لم تظهر دافني أي إشارة للنهوض، قالت لها ماكسين إنه يجدر بها الشروع في بحثها العلمي. رفضت دافني المغادرة، لكنها فعلت ذلك في النهاية. شعرت ماكسين وكأنها ستصاب بالهستيريا.

«أنا آسفة جداً. لا يكون منزلي بهذا الجنون عادة. لا أعرف ماذا حصل. كان كل شيء يسير على غير هدى اليوم. وأنا آسفة بشأن دافني».

«أنت آسفة على ماذا؟ كانت تتحدث فقط عن والدها. إنها فخورة جداً بــه». شكّـت ماكسيـن في أن ذافني تحاول إزعاج تشارلز عن قصد، لكنها لـم تشـأ قول ذلك. إنه تصرف طفولـي من قبلها، وهي تعرف ذلك جيداً. قال لها وقد بدا مذهولاً نوعاً ما: «لم أكن أعرف أنك كنت متزوجة بيلايك ويليامز».

«نعم»، قالت ماكسين، متمنية لو أنهما يستطيعان إنهاء السهرة، من دون حصــول مشهـد فيلـم The Exorcist. كان من الأفضل أيضاً لو أنها تذكرت موعدهما على العشاء. لم تدوّن الموعد، ونسيت الأمر تماماً. «هذا هو من تزوجته. هل تودّ شرب شيء ما؟». أدركت حين قالت ذلك أنها لا تملك شيئاً في المنزل باستثناء بعض الشراب الفرنسي الأبيض الذي تستعمله زيلدا في الطهو. أرادت ماكسين شراء بعض أنواع الشراب الفرنسي ذات الجودة العالية خلال عطلة نهاية الأسبوع، لكنها نسيت فعل ذلك.

«هـل سنذهـب إلـى العشاء؟»، سأل تشارلز بفظاظـة. لا يبدو الأمر محتمـلاً لـه، مع ولـد مريض، وأخرى تحتاج إلى إنجاز بحثها، وماكسين تبدو مضطربة أكثر من اللزوم.

سألـت بصراحـة «هـل ستكرهني إذا لم نذهب؟ لا أعرف كيف حصل ذلـك، لكننـي نسيـت. مررت بيوم غير اعتيادي اليـوم، وأهملت نوعاً ما تدوين الموعد على دفتري حين حددناه». كانت على وشك البكاء، وشعر بالأسـف عليهـا. كان ليغضـب عـادة، لكنه لم يقوَ على ذلـك. بدت المرأة المسكينة مرهقة جداً. «لهذا السبب ربما لا أواعد الرجال. لست جيدة كثيراً في ذلك». على الأقل.

اقترح عليها «ربما لا تريدين أن تواعدي الرجال». فكّرت في ذلك أيضـاً، ورأت أنـه محـق. بـدا لها الأمر مثل مشكلة كبيـرة أو أمر يصعب تدبـره. فبيـن عملهـا وأولادهـا، كانت حياتها مليئـة. لا مجال لدخول أي شخص آخر، وليس لديها الوقت والجهد الضروريان لموعد عاطفي.

«أنا آسفة، تشارلز. لست هكذا عادة. أسيطر تماماً على حياتي».

«لا يسعك فعل أي شيء إذا مرض ابنك ومربيتك. هل تودّين التجربة مجدداً؟ ماذا عن مساء الجمعة؟». لم تشأ إخباره أن زيلدا تكون في إجازة حينها، إذا اضطرت إلى ذلك، تطلب منها العمل. فبين معالجة الضرس في الأسبـوع الفائـت ومرضها الليلة، تدين لها زيلدا بيوم على أي حال، وهي تتحلى بروح رياضية في مثل هذه الأمور.

«سيكـون ذلـك رائعاً. هل تريد البقـاء؟ سأحضّر العشاء للأولاد على أي حـال». لقـد حجـز لهما في مطعم **لا غرونوي**، لكنه لم يشأ جعلها تشعر بالاستيـاء ولـم يذكـر الأمر أمامها. كان خائب الأمـل، لكنه قال لنفسه إنه ناضج، ويستطيع تدبر أمر موعد فاشل إذا اضطر إلى ذلك.

عرضـ عليهـا بلطافة «سأبقـى لبعض الوقت. أنـت مشغولة كثيراً. لسـت مضطـرة إلـى تحضير العشـاء لي. هل تريديـن أن ألقي نظرة على ابنك والمربية؟».

ابتسمت له بامتنان. «سيكون ذلك لطفاً منك. إنها مجرد أنفلونزا. لكن هذا اختصاصك أكثر مما هو اختصاصي. إذا مالوا إلى الانتحار، أتدخل». ضحك. وبدأ هو يشعر بميل إلى الانتحار وهو يراقب الفوضى في منزلها. ليس معتاداً على الأولاد، والفوضى التي تحيط بهم. لقد عاش حياة هادئة ومنظمة، ويفضلها بهذه الطريقة.

رافقـت تشارلـز عبر الممر إلـى غرفة نومها، حيث كان سام مستلقياً على سريرها يشاهد التلفاز. بدا أفضل حالاً مما كان طوال فترة بعد الظهر، ونظر إلى الأعلى حين دخلت أمه. تفاجأ لرؤية رجل معها.

«ســام، هـذا تشارلز. إنه طبيب، وسيلقي نظرة عليك». كانت تبتسم لابنهـا، ولاحـظ تشارلز كم تحب أولادها بشغف. يصعب عدم الانتباه إلى ذلك.

سأل سام بارتياب «هل هذا هو موعدك العاطفي؟».

قالـت ماكسيـن وهـي تبدو محرجة: «نعـم، إنه هو، اسمـه الدكتور ويست».

«تشارلز»، صحح لها مع ابتسامة رقيقة فيما اقترب من السرير. «مرحبا سام. يبدو أنك تشعر ببعض السوء. هل تقيأت طوال النهار؟».

قال سام بفخر: «ست مرات، تقيأت في التاكسي وأنا عائد إلى المنزل من المدرسة». ألقى تشارلز نظرة على ماكسين مع ابتسامة متعاطفة. استطاع تخيل المشهد.

«لا يبدو هذا جميلاً جداً. هل أستطيع لمس بطنك؟». أومأ سام برأسه ورفع القسم العلوي من ثوب نومه، فيما دخل أخوه الغرفة.

بدا جاك قلقاً على الفور «هل طلبت طبيباً له؟».

شرح سام فيما بدا جاك مرتبكاً «إنه موعدها العاطفي».

سأل جاك «مَن هو موعدها العاطفي؟».

«الطبيب»، قال سام لأخيه فيما قامت ماكسين بتعريف جاك إلى تشارلز، الذي استدار للابتسام له.

«لا بد من أنك لاعب كرة القدم». أومأ جاك برأسه وهو يتساءل من أين جاء الطبيب/الموعد العاطفي الغامض، ولماذا لم يسمع عنه قبلاً. «في أي موقع تلعب؟ كنت ألعب كرة القدم في الجامعة. كنت أفضل في كرة السلة، لكنني أعتقد أن كرة القدم أكثر متعة».

قال جاك فيما راقبتهما ماكسين: «وأنا أيضاً. أريد لعب اللكروس السنة المقبلة».

قال تشارلز: «اللكروس رياضة خشنة. تتعرض في اللكروس لإصابات أكثر مما يحصل ذلك في كرة القدم». بينما وقف بعد معاينة سام، ثم نظر إلى الصبي الصغير مع ابتسامة. «أظن أنك ستتغلب على المرض سام. أراهن أنك ستشعر بالتحسن غداً».

بدا سام قلقاً «هل تظن أنني سأتقيأ مجدداً؟».

«أتمنى ألا تفعل ذلك. هوّن على نفسك الليلة. هل تودّ شرب بعض الكولا أو شراب الزنجبيل؟». أومأ سام برأسه وهو يقيّم تشارلز باهتمام، وبينما راقبتهما ماكسين، أدركت كم أن وجود رجل بينهم هو أمر غير

مألوف بالنسبة إليهم جميعاً، لكنه لطيف. ولديه طريقة جميلة في التعاطي معهم. لاحظت أن جاك كان يتمعن فيه هو الآخر. وبعد دقيقة، دخلت دافني. كانوا يقفون جميعاً في غرفة نوم أمهم، التي بدت فجأة صغيرة جداً مع وجود الكثير من الأشخاص فيها. سألها تشارلز «أين تخبئين المريبة المريضة؟».

قالت ماكسين: «سأرشدك إليها». وأخرجته من الغرفة، فيما ضحك سام، وبدأ يقول شيئاً فوضع جاك إصبعاً على شفتيه لإسكاته. استطاع تشارلز وماكسين سماعهم يضحكون ويتهامسون فيما مشيا بعيداً، والتفتت ماكسين إلى تشارلز مبتسمة ابتسامة اعتذار. «الأمر غريب قليلاً عليهم».

قال ببساطة: «لذلك أستوعب. إنهم أولاد لطفاء». فيما دخلا المطبخ ثم اجتازا الممر. طرقت ماكسين على باب غرفة زيلدا، وفتحته ببطء، وعرضت على تشارلز إلقاء نظرة عليها. عرّفتهما إلى بعضهما بعضاً من الباب. بدت زيلدا مرتبكة على الفور. لا تعرف من يكون الدكتور ويست أو لماذا هو هنا.

قالت وقد بدت محرجة: «لست مريضة إلى هذا الحد». ظناً منها أن ماكسين استدعته خصيصاً لها. «إنها مجرد أنفلونزا».

«كان هنا على أي حال، وعاين سام للتو». تساءلت زيلدا ما إذا كان طبيب أطفال جديداً لا تعرفه. لم يخطر لها أبداً أن تكون ماكسين ضربت موعداً معه على العشاء. وأخبرها بالشيء نفسه الذي قاله لسام.

بعد دقائق قليلة، كان تشارلز وماكسين يقفان في مطبخها، وقدمت له كوب كولا وبعض رقاقات البطاطا المقلية والقليل من الغواكامول الذي عثرت عليه في البراد. قال إنه سيغادر بعد دقائق قليلة ويتركها لتهتم بأولادها. لديها ما يكفي. جلست معه إلى طاولة المطبخ، وتحدثا لدقائق قليلة. لا شك في أن تجربته كانت مميزة، وقد التقى بهم جميعاً. فتقيؤ سام فيما كان يدخل المنزل هو طريقة لتعريف تشارلز بأولادها، بالرغم من أنها ليست الطريقة التي كانت لتختارها. وفي ما يتعلق بماكسين، كان

اللقاء بها مميزاً فعلاً. لم تكن واثقة من شعوره، لكنه تحلى من دون شك بروح رياضية. فهذا الموعد ليس بلا شك موعداً عاطفياً قياسياً. إنه بعيد جداً عن ذلك.

اعتذرت مجدداً «أنا آسفة بشأن الفوضى».

«سارت الأمور على ما يرام»، قال ببساطة وهو يفكر لبرهة في العشاء الذي كانا سيحظيان به في مطعم **لا غرونوي**. «ستمضي وقتاً جميلاً ليلة الجمعة. أظن أنه يجب عليك التحلي بالمرونة عند وجود أولاد».

«ليس بقدر هذه المرونة عادة. أنا منظمة جداً معظم الوقت. لكن الأمور أفلتت عن السيطرة اليوم. معظم ذلك بسبب مرض زيلي أيضاً. أنا أعتمد عليها كثيراً». أومأ برأسه. بدا جلياً أنها تحتاج إلى الاعتماد على شخص ما، وزوجها السابق غير متوافر أبداً. بعد ما أخبرته به دافني، يستطيع فهم السبب. لقد قرأ الكثير عن بلايك ويليامز على مرّ السنوات. إنه شخصية مشهورة في عالم الأعمال، ولا يبدو مثل رجل يهتم بالأمور العائلية. قالت ماكسين الشيء نفسه خلال الغداء.

ذهب تشارلز ليودع الأولاد قبل مغادرته، وقال لسام إنه يأمل تعافيه قريباً.

شكره سام، ولوّح له. بعد برهة قليلة، أوصلت ماكسين تشارلز إلى الباب.

«سأمرّ لاصطحابك عند الساعة السابعة من يوم الجمعة»، وعد تشارلز، وشكرته مجدداً على لطافته الكبيرة الليلة. «لا تقلقي. تعرّفت على الأقل إلى كل أولادك». لوّح لها فيما دخل المصعد، واستلقت بعد برهة على سريرها قرب سام مع تنهيدة، فيما دخل الولدان الآخران.

تذمر جاك «لماذا لم تخبرينا أن لديك موعداً عاطفياً؟».

«نسيت الأمر».

بدت دافني مشككة «ومن يكون على أي حال؟».

قالت ماكسين وقد بدت مرهقة: «مجرد طبيب التقيت به». لا تريد

تبرير الأمر لهم. فالليلة كانت سيئة كفاية. وقالت لابنتها: «لم يكن يجدر بك التبجح والتباهي بوالدك هكذا. ليس هذا لطيفاً».

«ولِمَ لا؟». بدت دافني فوراً وكأنها تريد التحدي.

«لأن التحدث عن يخته وطائرته ليس أمراً جميلاً. يمكن أن يشعر الأشخاص بعدم الارتياح». وهذا هو تحديداً السبب الذي دفعها لفعل ذلك. هزّت دافني كتفها، وخرجت من الغرفة.

قال سام: «إنه جيد».

قال جاك: «ربما نعم». وهو يبدو غير مقتنع. لا يفهم لماذا تحتاج أمه إلى وجود رجل. إنهم بخير كما هم الآن. لا يُصدمون حين يخرج والدهم مع نساء، أو بالأحرى الكثير منهن. لكنهم غير معتادين على رؤية رجل في حياة أمهم، ولم يحب أي منهم الفكرة. من الجيد لهم أن تكرّس أمهم نفسها لهم. وما من سبب لتغيير ذلك، برأيهم على الأقل. فهمت أمهم الرسالة بشكل واضح.

كانت الساعة الثامنة مساء ولم يأكل أي منهم شيئاً، فذهبت ماكسين إلى المطبخ لترى ما الذي تستطيع تحضيره. وفيما كانت تخرج السلطة وبعض اللحوم الباردة والبيض، دخلت زيلدا في ثوب الحمام وهي تبدو مذهولة.

«من هو هذا الرجل المقنّع، تونتو؟»، سألت زيلدا، وضحكت ماكسين.

«أظن أن الجواب الصحيح على ذلك هو الجندي المجهول. إنه طبيب التقيت به. كان لديّ موعد عاطفي معه، ونسيت الأمر تماماً. تقيأ سام أمامه في الردهة الأمامية ما إن دخل. كان المشهد مروعاً».

سألت زيلدا باهتمام «هل تظنين أنك سترينه مجدداً؟». رأت أنه يبدو لطيفاً، ووسيماً.

عرفت أن ماكسين لم تذهب إلى موعد عاطفي منذ وقت طويل، ويبدو هذا الرجل مناسباً لها. بدا من النوع الملائم، ووسيم المظهر، ورأت أن

كونهما طبيبين هو بداية جيدة لإنشاء أرضية مشتركة.

قالت ماكسين إجابة عن سؤالها: «يفترض أن يصطحبني ليلة الجمعة إلى العشاء، إذا تعافى من صدمة الليلة».

«هذا مثير»، علّقت زيلدا، وسكبت لنفسها كوباً من شراب الزنجبيل، ثم عادت إلى سريرها.

حضرت ماكسين الباستا، وشرائح اللحم الباردة، والبيض المخفوق وتناولوا البراونيز بعد العشاء. نظفت المطبخ، ثم ذهبت لمساعدة دافني على إنجاز بحثها. لم تنتهيا قبل منتصف الليل. كان يوماً مريعاً وليلة طويلة. وحين استلقت أخيراً على سريرها قرب سام، تسنّت لها دقيقة للتفكير في تشارلز. لا تعرف أبداً ماذا سينتج عن هذه العلاقة، أو ما إذا كانت ستراه مجدداً بعد ليلة الجمعة، لكن الليلة لم تكن سيئة جداً. فلم يخرج من الباب وهو يصرخ. هذا شيء مهم. وبالنسبة إلى الوقت الراهن، هذا كافٍ.

الفصل الثامن

ليلة الجمعة، حين جاء تشارلز لاصطحابها، كان كل شيء منظماً مثل الساعة السويسرية. المنزل مقفر. زيلدا في إجازة. دافني ستمضي الليلة مع صديقاتها، تماماً مثل سام الذي تعافى من الأنفلونزا، وكان جاك في حفلة في منزل صديق له قبل حضور حفلة دينية معه في الليلة التالية. اشترت ماكسين الشراب الاسكتلندي، والشراب الروسي، والشراب الخفيف. إنها جاهزة له. كانت ترتدي فستاناً أسود قصيراً، وقد عقصت شعرها في كعكة مرتبة، ووضعت قرطين ماسيين، وقلادة من اللآلئ، وكان المنزل هادئاً.

حين فتحت له الباب في تمام الساعة السابعة، دخل تشارلز مثل رجل متوجه إلى حقل ألغام. نظر من حوله، وأصغى إلى الصمت المهيب، وحدّق إليها مذهولاً.

سأل بعصبية «ماذا فعلت بالأولاد؟». فابتسمت له.

«أرسلتهم إلى التبني وطردت المربية. حزنت على ذهابهم، لكن عليك تحديد أولويات في الحياة. لا أريد إفساد أمسية أخرى. ذهبوا بسرعة». ضحك ولحق بها إلى المطبخ، حيث سكبت له الشراب الروسي بناء على طلبه، وحملت وعاء فضياً من المكسرات إلى غرفة الجلوس. كان الصمت رهيباً. «أنا آسفة فعلاً بشأن أمسية الثلاثاء، تشارلز». كان الأمر أشبه بمشهد من فيلم سينمائي. أو حياة حقيقية. القليل من المبالغة.

«الأمر أشبه بالإرهاق أيام الجامعة». أراد منحها فرصة أخرى. هناك الكثير من الأمور التي يحبها في ماكسين. إنها امرأة جدية وذكية، ذات مهنة لامعة في الحقل الطبي، وهي سيّدة محترمة كثيراً وجميلة أيضاً. إنه مزيج تصعب مقاومته. لكن الشيء الوحيد فيها الذي يوتر أعصابه نوعاً ما هو

أولادها. ليس معتاداً على هذا ولا يشعر بحاجة إلى الأولاد في حياته. لكنهم جزء منها. وهذه المرة، على الأقل، أرسلتهم بعيداً ليتمكنا من الاستمتاع بسهرة راشدة، وهذا ما يفضّله.

قدّم له مطعم **لا غرونوي** بكل لطافة حجزاً آخر لهذه الليلة عند الساعة الثامنة مساء، ولم يأخذ عليه أيّ مأخذٍ بسبب إلغاء الحجز في الدقيقة الأخيرة من ليلة الثلاثاء. فهو يذهب غالباً إلى هناك وهو زبون جيد. غادر تشارلز وماكسين شقتها عند الساعة الثامنة إلا ربعاً، ووصلا إلى المطعم في الوقت المحدد، وتم إعطاؤهما طاولة ممتازة. لاحظ أن الأمسية ممتازة حتى الآن، لكن الأجواء ساذجة. لم يعد أي شيء يذهله الآن، بعد الطريقة التي تعرف فيها إلى حياتها قبل ثلاثة أيام. أراد الهرب لبرهة آنذاك. لكنه مسرور لأنه لم يفعل. فقد أحب ماكسين كثيراً، ومن الرائع التحدث إليها.

خلال الفترة الأولى من العشاء، وفي أثناء تناول المحار ولحم السلطعون، وبعدهما لحم الحبش والشاتوبريان، ناقشا عمليهما والمسائل الطبية الراهنة التي تهمهما معاً. أحب أفكارها، وتأثر بإنجازاتها. وكانا على وشك البدء بتناول السوفليه حين ذكر بلايك.

«تفاجأت لأن أولادك لا يفتقدونه كثيراً، خصوصاً وأنك قلت إنه لا يعيش معهم ولا يتوافر أبداً». أدرك أن هذه شهادة حقيقية بالنسبة إليها، لأنها تستطيع بسهولة تحويلهم ضده، ومعظم النساء يفعلن ذلك، نظراً إلى المساعدة القليلة التي يقدمها لها.

قالت ببساطة: «إنه رجل لطيف مبدئياً، لا بل رائع. وهم يلاحظون ذلك. لكنه لا ينتبه كثيراً».

قال تشارلز: «يبدو أنانياً كثيراً، ومفرطاً في تدليل ذاته». اعترفت ماكسين أنه على صواب.

قالت ماكسين بهدوء: «يصعب ألا يكون كذلك، نظراً إلى التغيرات التي حصلت مع نجاحه. يستطيع عدد قليل جداً من الأشخاص مقاومة ذلك والحفاظ على اعتدالهم. لديه الكثير من الهوايات، ويحب اللهو طوال

الوقت. لا يفعل بلايك أي شيء غير ممتع أو محفوف بالمخاطر. هذا هو أسلوبه ولطالما كان هكذا. المسار الآخر الذي كان يمكن أن يختاره هو التبرع بأمواله للأعمال الخيرية. في الحقيقة، إنه ينجز الكثير من الأعمال الخيرية، لكنه ليس منخرطاً عن كثب في أي نوع منها. يتصور باختصار أن الحياة قصيرة، وكان محظوظاً ويريد تمضية وقت جيد. إنه ولد بالتكفل، وبالرغم من أنه حظي بوالدين رائعين، كان دوماً غير واثق من الحياة، ومن نفسه. يريد الإمساك بكل شيء ممكن، قبل أن يأخذه أحد من طريقه، أو يخسره. هذه فلسفة صعبة للكفاح. الخوف الدائم من الخسارة، ولذلك يمسك بكل شيء بكلتا يديه، ويخسر في النهاية على أي حال. نوع من فلسفة إرضاء الذات».

قال تشارلز بحذر: «لا بد من أنه شعر بالأسف الكبير على خسارتك».

«ليس تماماً. نحن صديقان جيدان. أراه مع الأولاد حين يكون في المدينة. لا أزال جزءاً من حياته بطريقة مختلفة، كصديقة وكأم لأولاده. يعرف أنه يستطيع الاعتماد عليّ. على الدوام. ولديه الكثير من الصديقات، اللواتي هنّ أصغر مني وممتعات أكثر مني، أو مما كنت قبلاً. لطالما كنت جدية كثيراً بالنسبة إليه». أومأ تشارلز برأسه. يحب ذلك فيها، وهي تلائمه تماماً. وجد علاقتها مع زوجها السابق غريبة. فهو لا يتحدث تقريباً إلى زوجته السابقة. من دون أولاد للربط بينهما، لم يبقَ أي شيء بعد الطلاق، باستثناء مقدار كبير من الحقد بينهما. عدا ذلك، لا يوجد أي شيء بينهما، وكأنهما لم يتزوجا أبداً. قالت ماكسين بهدوء: «حين يكون لديك أولاد، تصبح عالقاً مع الشخص الآخر إلى الأبد. وعليّ الاعتراف أنه لو لم تكن كذلك، لكنت اشتقت إليه. الأمر مريح لنا جميعاً، وخصوصاً الأولاد. سيكون محزناً لو كنا نكره بعضنا أنا ووالدهم». قال تشارلز لنفسه ربما، فيما أصغى إليها، ولكن ربما أسهل على الرجل أو المرأة التالية في حياتهما. بلايك هو نموذج صعب للحذو حذوه، بالنسبة إلى أي كان، وكذلك كانت هي، على طريقتها، بالرغم من أنها متواضعة جداً.

ما من شيء متعجرف أو فظ في ماكسين، بالرغم من نجاحها الكبير في مهنة الطب النفسي، وحتى الكتب التي ألفتها. إنها متواضعة كثيراً وأحب ذلك فيها. إنه ليس مثلها، ويعرف ذلك تماماً. لدى تشارلز ويست ثقة كبيرة بنفسه، ولا يخجل أبداً من إنجازاته. لم يتردد في محاولة إجبارها على فعل الأشياء وفق طريقته مع الصبي من آل وكسلير، ولم يتراجع لاحقاً إلا بعدما اكتشف من تكون ماكسين، وكم هي خبيرة في مجالها. اعترف حينها أنها تعرف أكثر منه، خصوصاً بعد محاولة جايسون الثالثة للانتحار، مما جعل تشارلز متوتراً ويشعر بالحماقة. يكره الاعتراف عادة أنه غير مصيب، لكن لم يكن لديه أي خيار آخر في هذه الحالة. ماكسين قوية، وإنما في الوقت نفسه أنثوية ورقيقة. لا تحتاج إلى فرض نفسها على الآخرين، ونادراً ما تفعل ذلك، إلا إذا كانت حياة مريض على المحك، ولكن ليس لإرضاء غرورها على الإطلاق. بدت في نواحٍ عدة، بالنسبة إلى تشارلز، المرأة المثالية، ولم يلتق بأي امرأة مثلها من قبل.

«ما هو رأي أولادك بشأن الموعد العاطفي؟»، سألها فيما أنهيا العشاء. لم يجرؤ على سؤالها عما قالوه عنه، بالرغم من أنه تساءل في قرارة نفسه. كان واضحاً ليلة الثلاثاء أنهم تفاجأوا برؤيته. وبدا جلياً أنها لم تحضّرهم، لأنها نسيت موعدهما تماماً. ظهوره في المنزل فاجأ الجميع، بما في ذلك ماكسين. في المقابل، تفاجأ هو بهم جميعاً بعد كل ما حصل لاحقاً. أخبر صديقاً له بما حصل في اليوم التالي، فضحك كثيراً على وصف تشارلز للمشهد الفوضوي، وقال بعبارات واثقة إن هذا سيفيده ويحرره قليلاً من قيوده. «أما كان ليحصل ذلك لرجل أكثر لطافة» كان تعليقه. في الإجمال، يفضّل تشارلز عدم الخروج مع نساء لديهنّ أولاد. يجد صعوبة في تمضية الوقت معهن حين يكنّ منهمكات كثيراً في حياة أولادهن. لكن يوجد على الأقل أزواجهن السابقون للاهتمام بالأولاد نصف الوقت. ليس لماكسين أي شخص ليخفف العبء عنها، باستثناء المربية، التي هي إنسانة ولديها مشاكلها. هناك الكثير من الأمور الملقاة على كتفي ماكسين، ولذلك فإن التواجد مع ماكسين سيكون تحدياً له بسبب ذلك.

قالت ماكسين بصراحة: «تفاجأوا كثيراً، لم أواعد رجلاً منذ وقت طويل. إنهم معتادون على النساء في حياة والدهم، لكن لا أظن أنه خطر في بالهم أن يكون هناك رجل في حياتي يوماً ما». ولم تتكيف هي مع الفكرة أيضاً. فالرجال الذين خرجت معهم لفترات قصيرة لم يثيروا انتباهها كثيراً، ولم يغروها بالتالي كفاية للتخلي عن مبدئها.

الأطباء الذين التقت بهم بدوا دوماً متبجحين بالنسبة إليها، أو لم تجد أي شيء مشترك معهم، فيما وجدوا هم متطلبات مهنتها وحياتها العائلية مرهقة جداً. فمعظم الرجال لا يريدون امرأة أو زوجة تذهب إلى المستشفى لمعاينة الحالات الطارئة عند الساعة الرابعة فجراً، ولديها الكثير من المتطلبات خارج المنزل. لم يحب بلايك ذلك أيضاً، لكن مهنتها الطبية كانت دوماً مهمة بالنسبة إليها، وأولادها أكثر أهمية أيضاً. كانت حياتها مليئة، وأثبتت ليلة الثلاثاء، أن كوبها لا يحتاج إلى الكثير كي يفيض. لا يوجد مجال كبير لأي شخص آخر. ورأى أن هذا يلائم أولادها. بدا ذلك جلياً على وجوههم حين التقى بهم، إذ يريدونها لأنفسهم وهو غير مرحب به بينهم. ليسوا بحاجة إليه. رأى أنها لا تحتاج إليه هي الأخرى. لا تتحلّى بتلك الميزة الموجودة لدى معظم النساء في عمرها، أي المرأة التي تريد اللقاء برجل قبل أي شيء آخر. فما أوحت به بدلاً من ذلك هو أنها امرأة سعيدة ومكتفية وبخير لوحدها. وهذا ما أعجبه أيضاً. لا يرغب أبداً بأن يكون مخلّص أحد، بالرغم من أنه يريد أن يكون محور حياة المرأة. ومع ماكسين، لن يكون أبداً كذلك. ثمة إيجابيات وسلبيات في ذلك.

سأل بعفوية «هل تظنين أنهم سيتكيّفون مع فكرة إقامتك علاقة مع أحدهم؟»، وفكّرت ماكسين في الأمر لبرهة.

«ربما. محتمل. يعتمد ذلك على الشخص ومدى تكيّفه مع أولادي. فهذه الأمور تعمل في اتجاهين وتحتاج إلى القليل من الجهد من كلا الطرفين». أومأ تشارلز برأسه. إنه جواب منطقي.

«ماذا عنك؟ هل تظنين أنك تتكيّفين مع فكرة وجود رجل في حياتك مجدداً، ماكسين؟ تبدين مكتفية ذاتياً».

قالت بصراحة: «أنا هكذا». وهي تشرب القليل من الشاي بنكهة النعناع، الختام المثالي لوجبة رائعة. كان العشاء لذيذاً وأنواع الشراب الفرنسي التي اختارها مذهلة. «للإجابة عن سؤالك، لا أعرف. أستطيع التكيّف فقط مع الرجل المناسب. عليّ الاعتقاد فعلاً بأن العلاقة ستنجح. لا أريد ارتكاب خطأ آخر. أنا وبلايك مختلفان كثيراً. لا تلاحظ الأمر كثيراً حين تكون شاباً. لكن بعد مرحلة معينة، حين تنضج وتعرف من تكون، يصبح الأمر مهماً فعلاً. لا يمكنك المزاح في عمرنا والقول إن الأمر سينجح فيما هو لن ينجح أبداً. يصعب كثيراً الادعاء أن الأمور ستتحسن لاحقاً، لأن المشاكل تزداد. يكون الأمر ممتعاً في سن صغيرة. لاحقاً، يصبح وكأنه قصة أخرى. وليس سهلاً العثور على الشريك المناسب، نظراً إلى التضاؤل عدد المرشحين المناسبين، وفي حال وجود الأشخاص الجيدين، يكون هناك الكثير من المشاكل. لذا، لا بد من أن يستحق الرجل الجهد لإجراء التعديل. كما أن أولادي يعطونني عذراً لعدم التجربة. إنهم يبقونني مشغولة وسعيدة. المشكلة هي أنهم سيكبرون يوماً ما، وسأنتهي وحيدة. لست بحاجة إلى مواجهة ذلك في الوقت الحاضر». إنها محقة، وأومأ برأسه. إنهم مخرج للوحدة التي تعاني منها في حياتها، وعذر للتكاسل في العثور على رجل في حياتها. شكّ في أنها تخشى التجربة مجدداً. لديه الانطباع بأن بلايك أخذ جزءاً كبيراً منها معه، وبالرغم من أنهما مختلفان كثيراً، مثلما تقول، لديه الإحساس بأنها لا تزال تحبه. قد تكون هذه مشكلة أيضاً. من يستطيع منافسة أسطورة تحول إلى بليونير ويتمتّع بالكثير من الجاذبية؟ إنه تحدٍّ صعب جداً، تحدٍّ يقبل به عدد قليل من الرجال، ولم يفعل أحد ذلك حتى الآن.

انتقلا بعدها للتحدث في موضوعات أخرى، مرتبطة بعملهما، وحبها للمرضى المراهقين المهددين بالانتحار، وتعاطفها مع أهلهم، وافتتانها بالصدمات الناجمة عن أحداث عامة. وبعد المقارنة، اتضح أن مهنته أقل إثارة من مهنتها. إنه يتعاطى مع الزكام العادي، ومجموعة من الأمراض والأوضاع الشائعة، والحزن المَرَضي لمريض مصاب بالسرطان يحوّله

فوراً إلى اختصاصي ويفقد أي اتصال معه. مهنته لا تتمحور حول الأزمات كما هي مهنتها، بالرغم من أنه يخسر مريضاً بين الحين والآخر، وإن كان ذلك نادراً.

عادا إلى الشقة بعدها، وتناول كوباً من الشراب من مشربها الذي كانت قد خزّنت فيه شتى أنواع الشراب حديثاً. أصبحت مجهزة تماماً الآن لتسلية أي ضيف، حتى لو لم تره مجدداً. ستكون جاهزة تماماً للرجل التالي، بعد خمس أو عشر سنوات. مازحتها زيلدا بشأن ذلك. أصبح لديها مشرب مجهز تماماً نتيجة موعدها معه، مما أقلقها قليلاً مع وجود الأولاد. إنها تنوي إغلاق خزانة الشراب، وإخفاءها عنهم وعن أصدقائهم. لا تريد منحهم أي إغراء. ذكّرتها دافني بذلك.

شكرته ماكسين على العشاء الرائع والأمسية المذهلة. عليها الاعتراف أنه من الجميل التمدن، وارتداء الثياب الجميلة، وتمضية السهرة في التحدث إلى شخص راشد. هذا جميل أكثر من الذهاب إلى بيرغر كينغ أو كيه آف سي مع نصف دزينة من الأولاد حولك، علماً أن هذا هو أسلوبها. لكن عند النظر إليها، في أناقتها الراقية، رأى تشارلز أنها تستحق الذهاب إلى **لا غرونوي** بتواتر أكبر، وأمل أن تسنح له الفرصة لاصطحابها إلى هناك مجدداً. إنه مطعمه المفضل في المدينة، بالرغم من أنه يحب لو سيرك أيضاً. إنه مولع كثيراً بالطعام الفرنسي الممتاز، والأجواء المرافقة له. يحب الفخامة والمظاهر أكثر منها، والسهرات الراشدة. تساءل فيما كان يتحدث إليها إذا كان الخروج مع أولادها ممتعاً أيضاً. هذا محتمل، لكنه غير مقتنع بعد، حتى لو كانوا أولاداً ظرفاء. يفضل التحدث إليها من دون مصدر إلهاء، أو تقيؤ سام على قدميه. ضحكا على ذلك فيما غادر، ووقفا يتحدثان لبرهة في الردهة نفسها حيث حصلت الحادثة.

قال بارتياح: «أودّ رؤيتك مجدداً ماكسين». برأيه، كانت السهرة ناجحة، وبرأيها أيضاً بالرغم من بدايتهما الأولى الفظيعة. الليلة مختلفة تماماً. إنها مثالية.

قالت ببساطة: «أودّ ذلك أيضاً».

قال: «سأتصل بك». ولم يتحرك أبداً لتقبيلها. كانت لتصدم أو تصدّه لو فعل ذلك. لم يكن هذا أسلوبه. إنه يتحرك ببطء وتأنٍّ حين تعجبه امرأة، ويمهّد الطريق لحصول الشيء لاحقاً، إذا اختارا ذلك هما الاثنان. ليس على عجلة، ولا يحب أبداً دفع النساء بقوة أو بسرعة. لا بد من أن يكون القرار متبادلاً، وعرف أن ماكسين ليست أبداً قريبة من هذه المرحلة. إنها بعيدة عن ساحة المواعيد العاطفية منذ زمن بعيد، ولم تنخرط أبداً فيها بشكل جدي. فمبدأ إقامة علاقة مع رجل لم يخطر حتى في بالها. عليه إعادتها إلى هذا المجال ببطء، إذا قرر أن هذا ما يريده. لم يكن واثقاً من ذلك بعد. إنها امرأة لطيفة يحلو التحدث إليها وتمضية الوقت معها، وعليه مراقبة البقية. لا يزال أولادها عقبة كبيرة بالنسبة إليه.

شكرته مجدداً، وأغلقت الباب برفق. كان جاك نائماً في غرفته حينها، بعد عودته من الحفلة التي ذهب إليها، وكانت زيلدا في غرفتها. بدت الشقة هادئة فيما خلعت ماكسين ثيابها، ونظفت أسنانها، وتمددت على السرير وهي تفكّر في تشارلز. كانت السهرة لطيفة، ولا شك أبداً في ذلك، لكنها شعرت بالغرابة لفكرة خروجها مع رجل. السهرة جميلة جداً ولطيفة جداً، وأحسّت خلالها بنضوجه وتهذيبه. لم تتخيل نفسها وهي تتجول معه بعد ظهر يوم الأحد، فيما أولادها حولها، مثلما تفعل حين يكون بلايك في المدينة. لكن بلايك هو والدهم، وحياته لا تتمحور حول هذا المنزل. إنه مجرد سائح يمرّ في حياتهم، لكنه سائح جذاب. بلايك هو مذنّب في سمائهم.

تشارلز رجل صلب، وتجمعها به الكثير من الأمور المشتركة. إنه جدي كثيراً، وأعجبها ذلك فيه. لكنه لم يكن طائشاً أو لعوباً أو مرحاً. اشتاقت لبرهة إلى هذه الأمور في حياتها، ثم أدركت أنه لا يمكنها الحصول على كل شيء. إذا أقامت علاقة جدية مع أي شخص كان، لطالما قالت إنها تريد شخصاً صلباً تستطيع الاعتماد عليه. ولا شك في أن تشارلز هو من هذا النوع من الرجال. ثم فكّرت في نفسها مبتسمة، مدركة لما تتمناه. بلايك مجنون ومرح. تشارلز مسؤول وناضج. من المؤسف أنه لا يوجد

رجل في العالم يجمع هذه الصفات كلها؛ أي أن يكون رجلاً ناضجاً مثل بيتر بان، مع مبادئ جيدة. قد يكون هذا كثيراً، قالت لنفسها ربما لهذا السبب لا تزال وحيدة، وربما ستبقى دوماً كذلك. لا يمكنك العيش مع رجل مثل بلايك، وقد لا ترغب بأن تكون مع رجل مثل تشارلز. لا يهم الأمر ربما لأنه لن يطلب منها أحد القيام بهذا الاختيار. إنه مجرد عشاء في النهاية، مع طعام جيد ورجل ذكي. لا علاقة لذلك بالزواج.

الفصل التاسع

كان بلايك في لندن، يجتمع بمستشاري الاستثمار بشأن ثلاث شركات جديدة ينوي شراءها. وهو يلتقي أيضاً بمهندسين معماريين، واحد لإجراء تعديلات في منزل لندن، والآخر لإعادة هندسة وتجديد القصر الذي اشتراه في المغرب. وهناك ستة مهندسي ديكور يتولّون إنجاز المشروعين، وهذا مثير بالنسبة إليه. إنه يقيم ورشة. ينوي المكوث في لندن لمدة شهر، واصطحاب الأولاد إلى أسبن بعد الميلاد. دعا ماكسين للانضمام إليهم، لكنها قررت عدم المجيء، وقالت إنه يحتاج إلى وقت لوحده مع الأولاد، مما بدا سخيفاً بالنسبة إليه. فهم يمضون دوماً وقتاً جيداً حين تأتي معهم.

في معظم الأوقات، تكتفي بالحضور ليوم هنا ويوم هناك حين يعيرها يخته أو أحد منازله. إنه كريم جداً، ويحب التأكد من أنها تمضي وقتاً جيداً مع أولادهما. غالباً ما يعير منازله إلى الأصدقاء أيضاً. لا يستطيع أن يستعملها كلها طوال الوقت. ولا يفهم لماذا أحدثت ماكسين جلبة كبيرة بشأن السماح لدافني باستعمال شقة نيويورك مع صديقاتها. فهي كبيرة كفاية لعدم إحداث فوضى في الشقة، ويوجد أشخاص لتنظيفها إذا حصل وأحدثت فوضى. رأى أن ماكسين مصابة بجنون الارتياب إذ تظن أن الفتيات سيؤذين أنفسهن هناك. عرف أن ابنته فتاة جيدة، وتساءل هو مقدار المشاكل التي يمكن أن تحصل في الثالثة عشرة من العمر. بعد خمسة اتصالات هاتفية بشأن الموضوع، أذعن أخيراً لرغبات ماكسين، لكن بدا الأمر مخزياً بالنسبة إليه. فشقة نيويورك تبقى فارغة معظم الوقت. يمضي معظم وقته في لندن، لأن الموقع مركزي بالنسبة إلى الأماكن الأخرى التي يحب تمضية وقته فيها. إنه ينوي الذهاب إلى غستاد للتزلج لبضعة أيام قبل العودة إلى نيويورك، استعداداً للذهاب إلى أسبن. فهو لم يتزلج منذ أن قام

برحلة سريعة إلى أميركا الجنوبية في شهر مايو.

خلال الأيام القليلة الأولى التي تلت عودته إلى لندن بعد رؤية أولاده في عطلة الشكر، دعي بلايك لحضور حفلة موسيقية للرولينغ ستونز. هذه الفرقة هي إحدى فرقه الموسيقية المفضلة، وكان هو وميك جاغر صديقين قديمين. عرّف بلايك إلى عدد من العناصر الأخرى في عالم الروك، وإلى عدد من النساء المميزات. علاقة بلايك الوجيزة مع إحدى أهم نجمات الروك في العالم تصدرت العناوين في كل مكان، إلى أن أفسدت النجمة كل شيء، وتزوجت بشخص آخر. ليس هذا هدفه، وهو صادق بشأن ذلك. لم يزعم أبداً أمام أي امرأة أنه يريد الزواج، ولم يكن يوماً منفتحاً على الموضوع. أصبح يملك الكثير من الأموال الآن. الزواج خطير جداً بالنسبة إليه، إلا إذا تزوج بامرأة تملك مالاً بقدره، لكنه لا يسعى أبداً وراء مثل هؤلاء النساء. يحب النساء الشابات والحيويات وغير المقيدات بأي شيء. كل ما يريده هو اللهو. لم يؤذِ أي امرأة. حين تنتهي العلاقة مع المرأة، تتركه مع مجوهرات، وفرو، وسيارات، وهدايا وأفضل الذكريات الممكنة. ثم ينتقل إلى المرأة التالية، وتبدأ القصة مجدداً. حين عاد إلى لندن، كان حراً من دون أي علاقة. ما من امرأة ليصطحبها معه إلى حفلة الرولينغ ستونز، فذهب لوحده ومن ثم ذهب إلى حفلة راقصة رائعة في قصر كينغيستون. حضرت كل الأميرات، وعارضات الأزياء، والممثلات، وسيدات المجتمع، والأرستقراطيات ونجمات الروك. هذا هو تماماً ما يحبه بلايك، وهذا هو عالمه.

تحدث إلى نصف دزينة من النساء تلك الليلة، والتقى ببعض الرجال المهمين، وكان يفكّر في المغادرة حين طلب شراباً أخيراً أمام المشرب، وشاهد سيدة أنيقة ذات شعر أحمر تبتسم له. كانت تضع ماسة على أنفها، وياقوتة حمراء بين حاجبيها وترتدي الساري، وتسرّح شعرها تسريحة غريبة، وظهرت أوشام على طول ذراعيها، وكانت تحدق إليه من دون خجل. لا تبدو هندية، لكن الياقوتة الحمراء بين حاجبيها أربكته، والساري الذي ارتدته كان بلون سماء الصيف، تماماً مثل لون عينيها. لم يشاهد أبداً

امـرأة هندية مـع أوشام من قبل. أما أوشامها هي فكانت عبارة عن أزهار ممتـدة صعـوداً ونزولاً على ذراعيها، مع وشم آخر على معدتها المسطحة التي كشف عنها الساري. كانت تشرب الشراب الخفيف، وتتناول الزيتون من وعاء زجاجي موضوع على رف المشرب.

قال ببساطة: «مرحباً». والتقت عيناه الزرقاوان الساحرتان بعينيها، فاتسعت ابتسامتها شيئاً فشيئاً. إنها المرأة الأكثر جاذبية التي رآها في حياته، واستحال عليه تخمين عمرها. يمكن أن تكون في أي عمر بين الثامنة عشرة والثلاثيـن، ولا يبالـي لعمرها الحقيقي. إنها فاتنة. «من أين أنت؟»، سألها وهو يتوقع أن تقول له بومباي أو نيودلهي، بالرغم من أن شعرها الأحمر يبعد هذه الفرضية أيضاً. ضحكت لسؤاله، وكشفت عن أسنان بيضاء مثالية متراصفة. إنها المرأة الأكثر جمالاً التي رآها في حياته.

قالـت وهـي تضحـك له: «مـن نايتسبريـدج». رنـت ضحكتها مثل الأجراس في أذنيه، وكانت رقيقة وعذبة.

«ماذا عن الياقوتة الحمراء؟».

«أحبهـا. عشت في جايبور لسنتين. أحببت الساري والمجوهرات». ومَـن لا يفعـل؟ بعـد خمس دقائق من اللقاء بهـا، أصبح بلايك مجنوناً بها. سألته «هل ذهبت إلى الهند؟».

قال لها: «مرات عدة». «ذهبت في سافاري مذهلة، والتقطت صوراً للنمور العام الماضي، وكانت أفضل من أي شيء رأيته في كينيا». رفعت حاجبها حينها.

«ولدت في كينيا. عاشت عائلتي في روديسيا قبل ذلك. ثم عدنا إلى الوطن. الأمور متعبة هنا. أعود إلى هناك كلما أتيحت لي الفرصة». إنها بريطانية، لكنتها كلكنة ونبرة الطبقات الراقية، مما جعله يتساءل من تكون، ومن يكون أهلها. لا يهتم لذلك عادة، لكن كل شيء في هذه المرأة حيّره، بما في ذلك أوشامها. «وأنت؟»، سألته. قد تكون المرأة الوحيدة في القاعة التـي لا تعـرف مَـن يكون، وأحب ذلك فيها أيضاً. هذا مثير. وأحس أنهما

انجذبا إلى بعضهما على الفور. بقوة كبيرة.

«بلايـك ويليامز». لم يعطها أي معلومات أخرى، فأومأت برأسها، وأنهـت كوب الشراب الخفيـف. كان يشرب الشراب الروسي. إنه شرابه المفضـل فـي مثل هذه الحفـلات. فالشراب الخفيف يجعله ينزعج في اليوم التالي، فيما الشراب الروسي لا يفعل ذلك.

قالت بطريقة بديهية: «أميركي، هل أنت متزوج؟». سألته باهتمام، فوجد السؤال غريباً.

«لا. لماذا؟».

«لا أتعاطـى مـع الرجال المتزوجين. لا أتحدث حتى إليهم. خرجت مـع رجـل فرنسـي مريع كان متزوجـاً وكذب عليّ. عشـت التجربة مرة واحـدة، وتعلمـت إلى الأبد تقريباً. الأميركيون أفضل حالاً في هذا المجال عـادة. لكـن الفرنسيين ليسوا كذلك. لديهم دوماً زوجة وعشيقة مختبئة في مكان ما، ويخدعون الاثنين معاً. هل تخدع؟»، سألته، كما لو أنها تتحدث عن رياضة مثل الغولف أو التنس، فضحك.

«ليـس عمومـاً. في الواقع لا. لا أظن أنني خدعت امرأة يوماً. ليس لديّ سبب لذلك. فأنا لست متزوجاً، وإذا أردت امرأة أخرى، أنهي العلاقة مـع المـرأة التـي أكون معها. يبـدو لي الأمر أكثر بساطـة هكذا. لا أحب الدراما أو التعقيدات».

«ولا أنا. هذا ما أقصده عن الأميركيين. إنهم بسيطون ومستقيمون. الأوروبيـون أكثـر تعقيداً. يريدون كل شـيء صعباً. يحاول أهلي الطلاق منذ اثني عشر عاماً. يعودان إلى بعضهما ثم ينفصلان مجدداً. الأمر مربك جـداً بالنسـبة إلينـا. لـم أتزوج أبـداً من قبل، ولا أريد ذلـك. يبدو لي هذا مثـل فوضـى كبيـرة». قالت العبارة ببساطة كبيـرة كما لو أنها تتحدث عن الطقس أو عن رحلة، وسُرّ لذلك. إنها امرأة شابة ممتعة جداً، وأنيقة جداً، «مختبلـة جـداً»، بحسب الوصف الذي يعتمده البريطانيون. إنها أشبه بنوع مـن حوريـة الغابات في ثوب الساري والياقوتة الحمراء والأوشام. لاحظ

حينها أنها تضع سواراً ضخماً من الزمرد ضاع بين أوشامها، وخاتماً كبيراً من الياقوت. إنها تملك الكثير من المجوهرات، كائناً من تكون.

«أوافقك على فكرة الفوضى التي يحدثها الأشخاص. أنا صديق ممتاز لزوجتي السابقة. نحب بعضنا البعض أكثر مما كنا أيام الزواج».

هذا صحيح، بالنسبة إليه، وهو واثق من أن ماكسين تشعر بالشيء نفسه أيضاً.

سألته وهي تقدم له بعضاً من الزيتون «هل لديك أولاد؟». وضع حبتين في كوبه.

«نعم، لديّ ثلاثة أولاد. فتاة وصبيان. ثلاثة عشر عاماً واثنا عشر عاماً وستة أعوام».

«كم هذا رائع. لا أريد أولاداً، لكنني أظن أن الآباء هم في غاية الشجاعة لإنجابهم. يبدو لي الأمر مخيفاً. كل تلك المسؤولية، فهم يمرضون، وعليك التأكد من حسن أدائهم في المدرسة، وتعليمهم السلوك الجيد. هذا أصعب حتى من تدريب الحصان أو تربية حيوان أليف، وأنا فاشلة في الاثنين. كان لديّ حيوان أليف ذات مرة يتبرّز في كل أرجاء منزلي. أنا واثقة من أنني أسوأ حالاً مع الأولاد». ضحك على الصورة التي رسمتها، فيما وصل ميك جاغر، وألقى عليها التحية، تماماً مثل عدد من الأشخاص الآخرين. يبدو أن الجميع يعرفونها باستثناء بلايك، ولا يفهم سبب عدم لقائه بها من قبل. فهو يمضي الكثير من الوقت في لندن.

أخبرها حينها عن المنزل في مراكش، وتحمست بوضوح لذلك، ووافقت معه على أن المشروع يبدو مذهلاً. قالت إنها أوشكت على دراسة الهندسة المعمارية، ثم قررت عدم فعل ذلك، إذ لم تتمكن يوماً من استيعاب الرياضيات. قالت إنها كانت فاشلة جداً في المدرسة.

جاء نحوه عدد من الأصدقاء، وألقوا عليه التحية، مثلما فعل عدد من أصدقائها، والشيء التالي الذي عرفه حين التفت للنظر إليها هو أنها اختفت. شعر بلايك بالإحباط وخيبة الأمل. أحب التحدث إليها. إنها غريبة

الأطوار، وذكية، وصريحة، ومختلفة، وجميلة كفاية للفت نظره. سأل ميك جاغر عنها لاحقاً، فضحك على بلايك.

«ألا تعرفها؟». بدا متفاجئاً. «إنها أرابيلا. إنها فيكونتيسة. يفترض أن يكون والدها أغنى رجل في دار اللوردات».

«ماذا تفعل؟». افترض أنها لا تفعل شيئاً، لكنه أحسّ من حديثه معها أن لديها وظيفة أو مهنة معينة.

«إنها رسامة. ترسم الأشخاص. إنها ممتازة. يدفع لها الناس ثروة طائلة لترسمهم، ترسم أيضاً أحصنتهم وحيواناتهم الأليفة. إنها مجنونة تماماً، لكنها في الواقع لطيفة جداً. إنها نموذج المرأة البريطانية غريبة الأطوار. أظن أنها كانت مخطوبة لرجل فرنسي، ماركيز أو ما شابه. لا أعرف ماذا حصل، لكنها لم تتزوجه. سافرت إلى الهند بدلاً من ذلك، وأقامت علاقة مع ثري هندي مهم جداً، ثم عادت إلى هنا مع الكثير من المجوهرات الرائعة. لا أصدق أنك لا تعرفها. كانت في الهند ربما حين جئت إلى هنا. إنها ممتعة كثيراً»، أكد له.

قال بلايك: «نعم، إنها كذلك». وهو مذهول نوعاً ما مما قاله جاغر عنها. كل شيء فيها ممتاز. «هل تعرف كيف أستطيع العثور عليها؟ لم أحصل على رقم هاتفها قبل أن تغادر».

«طبعاً. اطلب من سكرتيرتك الاتصال بسكرتيرتي غداً. لديّ رقم هاتفها. الجميع يملكه. نصف إنكلترا رسمت صورها عندها. يمكنك استخدام ذلك بمثابة عذر للاتصال بها». لم يكن بلايك واثقاً من أنه يحتاج إلى عذر، لكن هذا يبقى احتمالاً. غادر الحفلة حينها، وهو آسف لأنها غادرت قبله، وحصلت له سكرتيرته على الرقم في صباح اليوم التالي. لم يكن الأمر صعباً على الإطلاق.

جلس ينظر إلى قصاصة الورق لدقيقة، ثم اتصل بها بنفسه. أجابت امرأة، وتعرّف إلى الصوت الذي سمعه الليلة الفائتة.

قال وهو يحاول أن يبدو واثقاً: «أرابيلا؟». شعر بالغرابة للمرة

الأولى منذ وقت طويل. إنها أشبه بزوبعة أكثر مما هي امرأة، وأكثر تكلّفاً من كل الفتيات اللواتي تعرّف إليهن.

قالت بلكنتها البريطانية الراقية: «نعم، هي». ثم ضحكت قبل أن تعرف حتى من يكون. إنه رنين الأجراس نفسه الذي سمعه في الليلة الفائتة. إنها فاتنة.

«أنا بلايك ويليامز. التقيت بك الليلة الماضية في الحفلة في قصر كينغستون، أمام المشرب. غادرتِ قبل أن تتاح لي فرصة توديعك».

«بدوت مشغولاً، ولذلك انسحبت. لطف منك أن تتصل». بدت صريحة ومسرورة لسماع صوته.

«أردت في الواقع أن أقول لك مرحباً وليس وداعاً. هل لديك وقت فراغ عند الغداء؟». تطرّق مباشرة إلى الموضوع، وضحكت مجدداً.

قالت بأسف: «لا، أنا أرسم شخصاً، ولا يستطيع زبوني الحضور إلا في أثناء موعد الغداء. إنه رئيس الوزراء، وجدول مواعيده مزدحم جداً. ماذا عن الغد؟».

«أودّ ذلك كثيراً»، قال بلايك وهو يشعر أن عمره اثني عشر عاماً تقريباً. إنها في التاسعة والعشرين من العمر وشعر وكأنه ولد معها، بالرغم من سنواته الست والأربعين. «ماذا عن سانتا لوسيا في تمام الساعة الواحدة؟». كان المطعم المفضل لدى الليدي ديانا لتناول الغداء، وأصبح المطعم المفضل بالنسبة إلى الجميع بعد ذلك.

«مثالي. سأكون هناك»، وعدته. «أراك حينها». وقبل أن يدرك ذلك، أقفلت الخط. لا ثرثرة ولا محادثة إضافية. الكلمات الضرورية فقط لتحديد موعد للغداء. تساءل ما إذا كانت ستأتي مع الياقوتة الحمراء والساري. كل ما يعرفه أنه لا يستطيع الانتظار لرؤيتها. لم يتحمس هكذا لأي امرأة منذ أعوام طويلة.

وصل بلايك إلى سانتا لوسيا في تمام الساعة الواحدة من اليوم التالي، ووقف أمام المشرب ينتظرها. بعد عشرين دقيقة، دخلت أرابيلا بشعرها

الأحمر الناعم، وهي ترتدي تنورة قصيرة ومعطفاً ضخماً من الفرو، وتنتعل جزمة بنية من الجلد السويدي عالية الكعب. بدت مثل شخصية في فيلم سينمائي، ولم يظهر أي أثر للياقوتة الحمراء بين حاجبيها. بدت وكأنها آتية من ميلانو أو باريس، وتلألأت عيناها باللون الأزرق السماويّ الذي تذكّره. ابتسمت ابتسامة عريضة ما إن رأته، وعانقته بحرارة.

«لطف منك أن تدعوني إلى الغداء»، قالت كما لو أن هذا لم يحصل لها أبداً من قبل، لكن الحال ليست كذلك طبعاً. إنها ساحرة جداً، وفي الوقت نفسه غير مغرورة، وأحب بلايك ذلك فيها. شعر وكأنه جرو أمام قدميها، وهذا نادراً ما يحصل له، فيما اصطحبهما النادل إلى طاولتهما، ورحّب كثيراً بأرابيلا بقدر ما رحب ببلايك.

جرت المحادثة بسلاسة خلال الغداء. سألها بلايك عن عملها، وأخبرها عن تجربته في عالم الإنترنت والتكنولوجيا، الأمر الذي وجدته رائعاً. تحدثا عن الفن، والهندسة المعمارية، والإبحار بالمراكب الشراعية، والأحصنة، والحيوانات الأليفة وأولاده. تبادلا الأفكار عن كل شيء يخطر في البال، وغادرا المطعم عند الساعة الرابعة. قال إنه يحب رؤية عملها، فدعته إلى الاستوديو في اليوم التالي، بعد انتهاء جلستها مع رئيس الوزراء. أخبرته أنها باستثناء ذلك فإنّ جدول مواعيدها غير ضاغط خلال الأسبوع، وستغادر إلى الريف يوم الجمعة. كل الذين يعيشون في إنكلترا يذهبون إلى الأرياف خلال عطلة نهاية الأسبوع، إلى منازلهم أو منازل أشخاص آخرين. وحين تركا بعضهما في الشارع، بالكاد استطاع الانتظار لرؤيتها مجدداً. أصبح فجأة مهووساً بها، وأرسل إليها الأزهار بعد الظهر مرفقة ببطاقة كتب عليها عبارة لطيفة. اتصلت به لحظة وصلت الأزهار. أرسل إليها أزهار الأوركيدة والورود، مع سوسن الوادي. قصد أفضل بائع زهور في لندن، وأرسل إليها كل شيء غريب خطر في باله، وبدا لها ذلك مناسباً. رأى بلايك أنها المرأة الأكثر إثارة التي التقاها، وهي جذابة على نحو يفوق التصديق.

ذهب إلى الاستوديو الخاص بها في وقت متأخر من صباح اليوم

التالـي، مباشـرة بعد مغادرة طوني بلير، وذهل تماماً لمظهر أرابيلا. إنها امـرأة متعـددة الوجوه، غريبة وفاتنة وطفولية وجذابة، فتكون ملكة جمال لبرهة وجنية صغيرة لبرهة أخرى. فتحت له باب الاستوديو وهي ترتدي جينـزاً ضيقـاً ملطخـاً بألوان مختلفة، وقميصاً قطنيـاً أبيض اللون، وتنتعل حـذاء كونفيرس أحمر اللون، وقد وضعت سواراً كبيراً من الياقوت حول معصمهـا، وكانـت تضـع الياقوتة الحمراء بين حاجبيهـا مجدداً. كل شيء فيها مجنون قليلاً، وإنما مذهل كثيراً بالنسبة إليه. أرته عدة صور متتالية، وبعض الصـور القديمة التي رسمتها لنفسها. هنـاك بعض الصور الجميلة للخيـول، ورأى أن صـورة رئيس الوزراء جيدة جـداً. إنها موهوبة جداً مثلما قال ميك جاغر.

قال لها: «إنها رائعة، مذهلة جداً، أرابيلا». فتحت قنينة شراب خفيف للاحتفـال بحسب قولها بزيارته الأولى إلى الاستوديو الخاص بها، وأملت أن تكـون الزيـارة الأولـى في سلسلة من الزيـارات. شرب كوبين معها، بالرغـم مـن كرهه للشـراب الخفيف. لكنه بدا مستعـداً لشرب السم كرمى لها، واقترح عليها العودة معه إلى شقته. أراد أن يريها كنوزه الآن. يملك بعض التحف الفنية المهمة، ومنـزلاً رائعاً يحبه ويفتخر به. عثرا على سيارة أجرة بسهولة، وبعد نصف ساعة، كانا يتجولان في منـزله وهي تصرخ من شـدة إعجابهـا بالفن الذي شاهدته. فتح لها قنينة شراب خفيف أخرى، لكنه شـرب الشـراب الروسي هذه المرة. أدار جهاز الموسيقى وأراها المسرح الـذي أنشـأه في المنـزل، وأظهر لهـا كل شيء، وعند الساعة التاسعة كانا في السرير.

الفصل العاشر

مسـاء يـوم الجمعة، نجح تشارلز وماكسين في تناول عشاء راقٍ في مطعم **لا غرونوي**. تناولا المحار ويخنة الكمأة بالأرز رائعة المذاق. كان العشـاء ممتـازاً. ومرة جديدة، استمتعت ماكسين بالوجبة، لا بل أكثر هذه المرة. أحبت حديثهما الذي ينمّ عن نضوج وذكاء، ولم يكن تشارلز جدياً كثيراً كمـا بـدا قبـلاً. فهو يتمتّع بحس الدعابة، لكنه يبقـي كل شيء تحت السيطرة. لا يبدو أي شيء في تشارلز خارجاً عن السيطرة. قال إنه يفضل أن يكون كل شيء في حياته منظماً ومرتباً، ومعتدلاً ويمكن التوقع به. إنها الحياة التي لطالما أرادتها ماكسين، والتي استحال عليها عيشها مع بلايك. ولـم تكـن مناسبـة كثيراً لها أيضاً، مع ثلاثـة أولاد والعناصر التي لا يمكن التوقـع بهـا في حياتهم، ونوع المهنة التـي تمارسها، حيث تحصل الأمور غيـر المتوقعـة بشـكل منتظم. لكن شخصيتيهما تتناسبـان. إنه أقرب إلى ما تريـده ممـا كان عليـه بلايك، وقالت لنفسها إنه لو كان تشارلز أقل عفوية، لـكان هـذا مطمئناً أيضاً نوعاً مـا. تعرف ما يمكن توقعه منه. وهو شخص لطيف يروق لها أيضاً.

كانا في سيارة الأجرة في طريق عودتهما إلى المنـزل، بعد عشائهما الثانـي فـي مطعـم **لا غرونوي**. وعدها بالذهاب إلى **لو سـيرك** في المرة المقبلـة، وربمـا إلى **دانيال** أو **مقهى بولود** بعد ذلك، وكلها مطاعم مفضلة لديـه يريـد أن يصطحبهـا إليهـا. رنّ هاتفها الخلوي، وافترضـت أنه أحد أولادها يبحث عنها. تتولى تيلما واشنطن الرد على اتصالات المرضى في عطلة نهاية الأسبوع. تبين أن الاتصال هو من المستشفى في محاولة للعثور عليهـا وإحالتهـا إلى الدكتورة واشنطن، وأدركت ماكسين أن الأمر خطير مع أحد مرضاها. فهذا هو السبب الوحيد الذي يدفع تيلما واشنطن للاتصال

بها في عطلات نهاية الأسبوع. في بقية الحالات، تعالج كل شيء بنفسها باستثناء الحالات التي تعرف أن ماكسين تريد الاطّلاع عليها والمشاركة فيها. سمعت صوت تيلما عبر الهاتف بعدما حوّلتها المستشفى.

قالت ماكسين بسرعة: «مرحباً. ماذا يجري؟». وظن تشارلز أنه أحد أولادها. أمل ألا تكون حالة طارئة. لقد أمضيا أمسية جميلة جداً، ولا يريد أن يعكّر صفوها أي شيء. كانت ماكسين تصغي بانتباه، مقطبة حاجبيها، ومغمضة عينيها، ولم يجد تشارلز الأمر جيداً. «ما هو عدد وحدات الدم التي أعطيت لها؟». ساد الصمت مجدداً فيما استمعت ماكسين إلى الجواب. «هل يمكنكم إحضار جراح قلب وصدر على الفور؟ جربوا جونز... اللعنة... حسناً... سآتي على الفور». التفتت إلى تشارلز مع نظرة قلقة. «أنا آسفة. أكره فعل ذلك معك. تم إدخال أحد مرضاي للتو إلى المستشفى، والحالة خطيرة. هل أستطيع تحويل سيارة الأجرة إلى مستشفى كولومبيا بريسبيتريان؟ ليس لديّ وقت للذهاب إلى المنزل وتبديل ثيابي. أستطيع إيصالك إلى المنزل في طريقي». كان عقلها مشغولاً بما قالته لها تيلما. إنها فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تعاينها منذ بضعة أشهر فقط. لقد حاولت الانتحار، وهي على شفير الموت. أرادت ماكسين أن تكون هناك واتخاذ القرارات الممكنة. بدا تشارلز حزيناً على الفور، وقال إنها تستطيع طبعاً أخذ سيارة الأجرة.

«لمَ لا أذهب معك؟ أستطيع الوقوف هناك وتوفير الدعم المعنوي على الأقل». يستطيع تقدير صعوبة هذه الحالات، وماكسين تتعامل معها باستمرار. لا يستطيع تخيل نفسه وهو يتعاطى مع مثل هذه الحالات بشكل يومي، لكنه قدّرها كثيراً على ذلك. من الناحية الطبية، يمكن القول إن هذا المجال أكثر إثارة من مجال اختصاصه، وإنما أكثر توتراً أيضاً وأكثر أهمية نوعاً ما.

«قد أبقى هناك طوال الليل. هذا ما أتمناه على الأقل». فالسبب الوحيد الذي يدفعها لعدم البقاء هو موت مريضتها، وهذا احتمال كبير في الوقت الحاضر.

«لا مشكلة. إذا تعبت من الانتظار، أذهب إلى المنزل. أنا طبيب أيضاً، وليس هذا غريباً عني». ابتسمت له. تحب وجود هذا الأمر المشترك بينهما. فتشارك المهن الطبية يولّد رابطاً قوياً. أعطيا السائق عنوان المستشفى، وانطلقا شمالاً بينما شرحت ماكسين الوضع أمام تشارلز. لقد حاولت الفتاة الانتحار، فجرحت معصميها، وطعنت نفسها في القلب بواسطة سكين مطبخ. فعلت شيئاً مريعاً. وبمحض الصدفة، اكتشفتها أمها بسرعة كافية لإحداث فرق بين الحياة والموت. وصل رجال الإسعاف إلى مكان الحادث في غضون دقائق قليلة. أعطوها وحدتين من الدم حتى الآن، وتوقف قلبها مرتين خلال الطريق إلى المستشفى، لكنهم نجحوا في إنعاشها مجدداً. إنها على شفير الموت، لكنها لا تزال على قيد الحياة. هذه محاولتها الثانية.

«يا الله، لا يفعلون ذلك بطريقة جزئية، أليس كذلك؟ ظننت دوماً أن الأولاد يفعلون ذلك لجذب الانتباه ويقومون بمحاولات زائفة». لكن لا شيء زائف في هذا. تحدثا عن الأمر بهدوء خلال الطريق، وسارعت ماكسين إلى العمل فور وصولهما. كانت ترتدي فستان سهرة أسود اللون، وتنتعل حذاء عالي الكعب. خلعت معطف السهرة الأسود، وارتدت الثوب الأبيض فوق فستانها، وعثرت على تيلما، وقابلت فريق الطوارئ. عاينت مريضتها، واتصلت بجراح القلب بنفسها، وتحدثت إلى الطبيب المناوب والطبيب المسؤول. أعيد تقطيب معصمي مريضتها، ووصل جراح القلب بعد خمس عشرة دقيقة، فأدخل الفتاة التي أصبحت في غيبوبة إلى غرفة العمليات، وتولت ماكسين طمأنة أهلها. وفيما فعلت ذلك، كان تشارلز وتيلما يتحدثان بهدوء في الممر.

قال تشارلز بإعجاب: «إنها مهمة، أليست كذلك؟». إنها أشبه بزوبعة فعلية حين تعمل. عادت إليهما في الممر بعد نصف ساعة. وافقت تيلما تماماً على آراء تشارلز، وأعجبت بتأثره وأيضاً باحترامه الكبير لعمل ماكسين.

«كيف حالها؟». سألت تيلما ماكسين. بقيت في المستشفى لتوفير صحية

لتشارلز أكثر من أي شيء آخر. ماكسين هي المسؤولة عن الحالة الآن.

قالت ماكسين وهي تدعو الله كي لا تخسرها: «بين الحياة والموت. إنها حالة صعبة».

بقيت إيلويس، مريضتها، في غرفة العمليات لأربع ساعات، وأوشكت الساعة على الخامسة فجراً قبل أن تعرف ماكسين شيئاً حاسماً. لكن ما أذهلها هو أن تشارلز بقي معها. ذهبت تيلما إلى منزلها قبل ساعات عدة.

دخل الجراح إلى غرفة الأطباء وهو يبدو منتصراً، فيما ابتسم ابتسامة عريضة لكل من تشارلز وماكسين. «أقسم إنه أحياناً تحصل أمور يعجز أي منا عن تفسيرها. لقد فوتت شيئاً كبيراً بعملها السخيف الأحمق. أخفقت في قتل نفسها، . كما يمكن أن تحصل الكثير من المشاكل في الأيام القليلة المقبلة، لكنني أظن أنها ستنجو». أصدرت ماكسين صرخة فرح، ووضعت ذراعيها حول عنق تشارلز. عانقها وابتسم. كان مرهقاً، لكن على الصعيد الطبي، كانت إحدى أهم الليالي في حياته، لناحية الاطلاع على الحالة التي أمامهم، وما فعلوه لمعالجتها، وكانت ماكسين مسؤولة عن كل ذلك.

ذهبت لإخبار أهل إيلويس، وبعد الساعة السادسة بقليل، غادرت المستشفى مع تشارلز. ستعود ماكسين خلال ساعات قليلة. ستتنقل كثيراً خلال الأيام القليلة المقبلة، لكن الأسوأ قد انتهى. أعطيت إيلويس عدداً من وحدات الدمّ عوضاً عن الدم الذي نزفته، وعالجوا قلبها. كان أهلها مرتاحين جداً، وكذلك كانت ماكسين. لا يزال تفاؤلها مشوباً بالحذر، لكنها تشعر أنها ستكسب هذه الحالة، وانتشلت النصر من فكّي الموت.

«لا أعرف كيف أخبرك عن مدى تأثري بما تقومين به»، قال تشارلز بهدوء، ووضع ذراعه حول كتفيها، وكانت تتكئ عليه خلال عودتهما إلى المنزل. لا تزال مبتهجة كثيراً من العمل الذي أنجزته الليلة، لكنها متعبة أيضاً. عرف كلاهما أنه ستمضي ساعات عدة قبل أن تخف سعادتها، وعليها العودة حينها إلى المستشفى، من دون نوم ربما. إنها معتادة على ذلك.

قالت وهي تبتسم له: «شكراً على بقائك معي. كان وجودك هناك

لطيفاً. أكون عادة لوحدي في مثل هذه الليالي. أتمنى أن نربح هذه الحالة. أشعر أننا سنفعل».

«وأنا أيضاً. جراح القلب بارع جداً». ظن تشارلز أنها هي الأخرى بارعة.

«نعم هو كذلك»، وافقت ماكسين.

توقفت سيارة الأجرة أمام مبناها، وأدركت فجأة كم هي متعبة فيما نزلت من السيارة. شعرت أن ساقيها مثل الإسمنت، وآلمها كثيراً الكعب العالي. لا تزال ترتدي الثوب الأبيض فوق فستان السهرة، وتحمل معطفها الأسود. كان تشارلز يرتدي بذلة داكنة رسمية حسنة المظهر، وقميصاً أبيض ويضع ربطة عنق كحلية. تحب طريقة اختياره لملابسه. لا يزال يبدو مرتباً جداً بعد الليلة الطويلة.

قالت له: «أشعر وكأن أحداً يجرّني إلى الخلف عبر أجمة». فضحك.

«لا تبدين كذلك. كنت رائعة جداً الليلة».

«شكراً. كل هذا بفضل الفريق، وليس بفضل شخص واحد، والحظ الذي يحصل خلال الليل. لا تعرف أبداً كيف تجري الأمور. تبذل ما في وسعك، وتدعو كثيراً. أفعل دوماً ذلك».

نظر إليها بعينين مليئتين بالاحترام والإعجاب. كانت الساعة السادسة والنصف صباحاً، وتمنى فجأة لو أنه يستطيع الذهاب إلى المنزل والنوم. يودّ النوم وذراعاه تتطوقانها، بعد الليلة التي تشاركاها. لكنه انحنى بدلاً من ذلك، فيما وقف خارج المبنى معها، ولامست شفتاه شفتيها. حصل الأمر أسرع مما توقعه كل منهما، لكن الليلة غيّرت الكثير من الأمور بالنسبة إليهما. لقد أنشأ رابطاً بينهما. قبّلها مجدداً، بقوة أكبر هذه المرة، وقبّلته فيما وضع ذراعيه حولها، وأمسكها بالقرب منه.

«سأتصل بك لاحقاً»، همس لها. أومأت برأسها، ودخلت المبنى حيث تسكن.

جلست في المطبخ لوقت طويل بعد ذلك، وهي تفكر في كل شيء، في مريضتها والليلة الطويلة وقبلة تشارلز. يصعب تحديد أيٌّ من الأمور الثلاثة أثر فيها أكثر. إنها بلا شك محاولة مريضتها للانتحار، لكنها شعرت وكأن صاعقة أصابتها حين قبلها تشارلز. بدا ذلك جميلاً أيضاً. أحبت وجوده هناك كرمى لها. في العديد من النواحي، بدا تشارلز كل ما أرادته في حياتها. وبعد أن أصبح الآن هنا، باتت خائفة مما قد يحصل ومن طريقة تعاطيها مع المسألة. ليست واثقة من أنه يوجد مكان له ولأولادها في حياتها. إنها قلقة بشأن ذلك.

أخيراً، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً حين توجهت إلى السرير. لا يزال أولادها نياماً وتأمل أن تحظى ببعض النوم قبل أن تضطر إلى النهوض للاهتمام بهم. ولم تكن مستعدة لهجوم دافني، حين نهضت أخيراً بعد ساعتين من النوم، وكانت تشرب كوب القهوة في المطبخ قرابة الساعة الحادية عشرة. كانت دافني تحدق إليها بغضب شديد. لم تعرف ماكسين لماذا، لكنها واثقة من أنها ستدرك السبب سريعاً.

«أين كنت الليلة الماضية؟»، سألتها دافني وقد بدت شاحبة اللون.

«في المستشفى. لماذا؟». لم تفهم ماكسين السؤال. ما هي مشكلتها؟

«لم تكوني هناك! كنتِ معه!». قالت ذلك مثل العاشق الغاضب.

أفظع ما يغضب الولد أن يوضع أمام الحبيب الجديد لأحد والديه، أو حتى الشك في ذلك.

قالت أمها بهدوء: «كنت معه لتناول العشاء، مثلما قلت، تلقيت اتصالاً وأنا في طريقي إلى المنزل، إذ حاولت مريضة من مرضاي الانتحار، وتوجب عليّ الذهاب. أظن أننا نجحنا في إنقاذها إذا لم تحصل أي مشكلة اليوم». تخبرهم غالباً عن الحالات الطارئة التي تعيشها في الليل. «إذاً، ما هي مشكلتك؟».

«لا أصدقك. أظن أنك كنت في شقته طوال الليل». لفظت الكلمات أمام أمها بغضب شديد، فيما نظرت إليها ماكسين مذهولة. لم تكن تتوقع

ذلك أبداً، لكن ماكسين أدركت أي نوع من المقاومة قد تواجهه من أولادها بسبب تشارلز. أو من دافني على الأقل.

«قد يحصل ذلك يوماً ما معه أو مع شخص آخر. وإذا أصبحت على علاقة جدية مع أحد في حياتي، فسأطلعكم عليها. لكنني أؤكد لك دافني أنني كنت في العمل الليلة الماضية. وأظن أنك خارج الموضوع تماماً». بدت غاضبة هي الأخرى فيما التفتت بعيداً، وبدت دافني لبرهة هادئة ثم التفتت إليها مجدداً.

«ولماذا أصدقك؟»، سألت فيما دخل سام إلى الغرفة، ونظر إلى أخته بقلق. بدت وكأنها تتصرف بحقارة مع أمهم، وهذه هي الحال فعلاً.

قالت ماكسين بصرامة: «لأنني لم أكذب أبداً عليك، ولا أنوي الشروع في ذلك الآن. ولا أحب اتهاماتك. إنها قاسية وغير دقيقة وغير ضرورية. لذا، توقفي وأحسني التصرف». بعد ذلك، خرجت ماكسين من المطبخ من دون التفوه بأي كلمة أخرى أمام الولدين.

وبّخ سام أخته «والآن انظري ماذا فعلت، أثرت غضب أمي. وهي متعبة ربما من السهر طوال الليل، وستبقى الآن مرهقة لبقية اليوم! شكراً جزيلاً!».

قالت دافني: «أنت لا تعرف شيئاً!». وخرجت مسرعة من المطبخ أيضاً، فيما هزّ سام رأسه، وسكب لنفسه القليل من حبوب الذرة لتناول فطوره. بدا جلياً أن اليوم لن يكون سهلاً.

عادت ماكسين إلى المستشفى عند الظهر، وسُرّت لوجود إيلويس بصحة جيدة. لقد استعادت وعيها، واستطاعت ماكسين التحدث إليها، بالرغم من أنها لم تسألها عن سبب محاولة انتحارها. أوصت ماكسين بإبقائها لفترة طويلة في المستشفى، ووافق أهلها على ذلك. لا يريدون المجازفة بإمكانية حصول ذلك مجدداً، مهما كلّف الأمر.

عادت ماكسين إلى أولادها عند الساعة الثانية. خرجت دافني مع صديقاتها، للتسوق للميلاد بحسب ما ادعت، لكن ماكسين كانت واثقة من

أن ابنتها تتجنبها، وهذا يلائمها تماماً. لا تزال غاضبة من اتهامات دافني لها هذا الصباح. كالمعتاد، كان سام رائعاً في التعويض عمّا اقترفته أخته. ذهبا معاً لمشاهدة جاك وهو يلعب كرة القدم. فاز فريق جاك بالمباراة، مما بعث فيهما السرور. في الوقت الذي عادوا فيه جميعاً إلى المنزل عند الساعة الخامسة، كانت معنوياتهم مرتفعة. كانت دافني قد عادت إلى المنزل حينها وبدت غاضبة جداً.

حين اتصل بها تشارلز عند الساعة السادسة، قال لها إنه استيقظ للتو، وذُهل لسماعها تقول إنها عملت طوال اليوم.

«أنا معتادة على ذلك»، ضحكت. «لا راحة للمرهق. على الأقل حين يكون هناك أولاد».

«لا أعرف كيف تنجحين في ذلك. أشعر وكأن باصاً صدمني. أنا مرهق تماماً. كيف حال مريضتك؟». بدا نعساً وجذاباً.

«بخير. الحمد لله أن هؤلاء الأولاد ما زالوا صغاراً. ننجح في معظم الأوقات في إنقاذهم، ولكن ليس دوماً».

«أنا مسرور لأن هذه الفتاة نجت». أصبح مهتماً جداً الآن. «ماذا ستفعلين الليلة؟».

«سنذهب لمشاهدة فيلم في السينما عند الساعة الثامنة، وربما نتناول البيتزا أو الطعام الصيني قبل ذلك». ثم خطرت لها فكرة. افترضت أنه متعب جداً للانضمام إليهم، وبدأت تشعر بالتعب هي أيضاً، لكنهم يتناولون دوماً ليلة الأحد عشاء أكثر احتفالية من بقية أيام الأسبوع. «ما رأيك في تناول العشاء معنا غداً؟».

«أنت وأولادك؟». بدا متردداً، وأقل حماسة مما تمنت. إنه مفهوم جديد بالنسبة إليه.

«نعم، هذه هي الفكرة. يمكننا طلب طعام صيني أو شيء آخر إذا كنت تفضل».

«أحب الطعام الصيني. لكنني لا أريد التطفل على عشاء عائلي».

«أظن أننا نستطيع تدبر الأمر. ما رأيك؟». كانت تبتسم، ولم يستطع التفكير في عذر مناسب لعدم قبول الدعوة.

«حسناً»، قال وهو يبدو وكأنه وافق للتو على القفز من أعلى مبنى الإمباير ستايت، في الحقيقة، لقد فعل ذلك وفق معاييره. قدّرت ماكسين رغبته ببذل الجهد. بدا واضحاً أنه خائف كثيراً.

«أراك غداً عند الساعة السادسة»، قالت فيما وقفت دافني في الغرفة وحدقت إليها.

«هل دعوته لتناول العشاء غداً؟»، سألت دافني ما إن أقفلت أمها الخط.

«نعم، فعلت». ولن نطلب الإذن لذلك. فالأولاد يحضرون أصدقاءهم على الدوام، وترحب بهم ماكسين كثيراً. لديها الحق في دعوة أصدقائها أيضاً، حتى لو كانت تمارس هذا الحق نادراً.

قالت دافني بغضب: «إذاً، لن أتناول العشاء معكم غداً».

قالت ماكسين بهدوء: «بلى، ستفعلين». وذكّرتها أن أصدقاءها مرحّب بهم في المنزل أيضاً. «لا أعرف لماذا تضخّمين هذه المسألة، دافني. إنه شخص لطيف جداً. أنا لا أهرب معه. وتتعاطين مع صديقات والدك على الدوام».

«هل هو صديقك؟». بدت دافني مذعورة، فيما هزّت ماكسين رأسها.

«لا، ليس هكذا، لكن هذا لن يكون أسوأ شيء قد يحصل. الغريب أكثر هو أنني لم أواعد رجلاً منذ أعوام. لا داعي لأن تحدثي جلبة كبيرة حول هذا الموضوع». لكنها ربما فعلت. شعرت بوضوح أنها مهددة من تشارلز ومبدأ وجود رجل قرب أمها. ولم يحب جاك الأمر أيضاً. «لن يحصل أي شيء هنا، داف. هوّني عليك أرجوك. دعينا نتعاطى مع المسألة كما هي. صديق آتٍ إلى العشاء. إذا تبين أن العلاقة تعدت ذلك يوماً ما، فسأخبركم. في الوقت الحاضر، هذا مجرد عشاء. مفهوم؟». بينما قالت

ذلك، تذكرت قبلته لها هذا الصباح. إذاً، لم تكن دافني تجافي الحقيقة تماماً. إنه أكثر من مجرد عشاء. لم تتفوه دافني بكلمة، وخرجت من غرفة أمها بصمت.

حين وصل تشارلز في اليوم التالي، كانت دافني في غرفتها، واضطرت ماكسين إلى تملقها، وتوسلها، وتهديدها لإقناعها أخيراً بالمشاركة في العشاء. دخلت المطبخ، لكنها أوضحت بلغة جسدها وسلوكها أنها موجودة هنا تحت الضغط. تجاهلت تشارلز تماماً، ونظرت إلى أمها بغضب. وحين قدموا العشاء الصيني عند الساعة السابعة، رفضت دافني تناول الطعام. إلا أن سام وجاك عوّضا عن ذلك. هنأ تشارلز جاك على فوزه في المباراة في اليوم السابق، وسأله عن تفاصيل المباراة.

بعد ذلك، انخرط سام وتشارلز في محادثة حيوية. نظرت دافني إلى أخويها كما لو أنهما خائنان، وعادت إلى غرفتها بعد عشرين دقيقة. ذكر تشارلز الأمر أمام ماكسين فيما كانت تنظف المطبخ وترمي الفضلات. كان العشاء جيداً، وتصرف تشارلز بشكل جيد. بذل جهداً واضحاً للتحدث إلى الأولاد، لكنه حاول. الأمر غريب تماماً عليه.

قال وهو يبدو منزعجاً: «دافني تكرهني». فيما تناول قطعة حلوى أخرى بقيت على الطاولة.

«لا تكرهك. لا تعرفك. إنها فقط خائفة. لم أواعد أحداً أبداً من قبل، ولم أدعُ أي شخص لتناول العشاء في المنزل. إنها خائفة مما قد يعنيه ذلك».

«هل قالت لك هذا؟». بدا محتاراً، فضحكت ماكسين.

«لا. لكنني أم وأخصائية في التعامل مع المراهقين. تشعر أنها مهددة».

«هل قلت شيئاً أزعجها؟». بدا قلقاً.

«لا. كنت رائعاً». ابتسمت له ماكسين. «قررت فقط أخذ موقف. أنا شخصياً أكره الفتيات المراهقات»، قالت ماكسين بمرح، وضحك هذه

المرة، نظراً إلى مهنتها. «في الواقع، يصبح عمر الخمسة عشر عاماً أسوأ. لكن الأمور تبدأ في عمر الثالثة عشرة. الهرمونات وكل تلك الأشياء. تستمر الحال على هذا المنوال إلى أن يبلغن السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر».

«من الفظيع أن تقول ذلك امرأة تقوم مهنتها على التعاطي مع فتيان وفتيات في مثل هذه السن».

«على الإطلاق. أعرف عما أتحدث. كل الفتيات يثرن المشاكل مع أمهاتهن في هذا العمر. آباؤهن هم الأبطال».

قال بكآبة: «لاحظت ذلك». فقد تبجحت وتباهت دافني كثيراً بوالدها في أول لقاء لهما. «وكيف تصرّفتُ مع الصبيين؟».

قالت مجدداً: «بشكل رائع». ونظرت إلى عينيه مبتسمة ابتسامة لطيفة. «شكراً على قيامك بذلك. أعرف أن هذا ليس من اهتماماتك».

قال بلطافة: «لا، وإنما أنت من اهتماماتي، أفعل ذلك لأجلك».

قالت بنعومة: «أعرف». وقبل أن يدركا ماذا حصل، كانا يقبلان بعضهما في المطبخ ودخل سام.

قال لحظة رآهما: «آه». وقفزا بعيداً عن بعضهما، وهما يشعران بالذنب، وفتحت ماكسين البراد وحاولت أن تبدو مشغولة. قال لأمه: «ستقتلك دافني إذا رأتك تقبلينه». فضحكت وتشارلز.

قالت ماكسين: «لن يحدث ذلك مجدداً. أعدك. أنا آسفة، سام». هزّ سام بكتفه، وأمسك بقطعتي حلوى، وخرج من الغرفة مجدداً.

قال تشارلز بحنان: «أحبه فعلاً».

قالت بهدوء: «من الجيد لهم جميعاً وجودك معهم، حتى دافني، هذا حقيقي أكثر من وجودي أنا فقط معهم».

قال تشارلز بتأوه: «لم أكن أعرف أنني هنا في مهمة تدريبية». فضحكت مجدداً.

جلسا في غرفة الجلوس، وتحدثا لبعض الوقت بعد ذلك، ثم غادر

تشارلـز قرابـة الساعـة العاشرة. بالرغم من عدائيـة دافني خلال العشاء، كانت الأمسية ممتعة جداً. تصرف تشارلز كما لو أنه نجح في عبور شلالات نياغارا بواسطة برميل، وبدت ماكسين سعيدة حين دخلت غرفتها، ووجدت سام مستلقياً على سريرها، نصف نائم تقريباً.

«هـل ستتزوجينـه أمي؟»، همس لها، وبالكاد استطاع فتح عينيه فيما قبّلته.

«لا، لن أفعل. إنه مجرد صديق».

«إذاً، لماذا كنت تقبّلينه؟».

«هكذا، لأنه يعجبني. لكن هذا لا يعني أنني سأتزوجه».

«هل تقصدين مثل بابا والفتيات اللواتي يخرج معهن؟»

«نعم، نوعاً ما. ليست مسألة مهمة».

«يقول لي دوماً ذلك أيضاً». بدا سام مرتاحاً، ثم خلد إلى النوم فيما نظرت إليه. لا شك في أن دخول تشارلز إلى الساحة أثّر في الجميع، لكنها لا تـزال تـرى أنـه أمر جيد. ومن الممتع لهـا وجود رجل تخرج برفقته. ليست هـذه جريمـة، قالت لنفسهـا. عليهم الاعتياد فقط علـى الأمر. وفي النهاية، بلايك يواعد النساء. فلمَ لا تفعل ذلك هي أيضاً؟.

الفصل الحادي عشر

الوقت الذي أمضاه بلايك مع أرابيلا في لندن قبل الميلاد كان رائعاً تماماً. لـم يكـن يوماً سعيـداً هكذا أو مفتوناً بأي كان فـي حياته. حتى إنها رسمـت لـه صورة صغيرة. أحب كل لحظة أمضاها معها. أخذها إلى سان موريتـز لتمضيـة عطلـة نهاية الأسبوع، وتزلج معها على الجليد. ذهبا إلى باريس لثلاثة أيام لتسوق الهدايا للميلاد، وأقاما في الريتز. ذهبا حتى إلى البندقيـة وأقامـا في القصر الذي يملكه هنـاك. إنها أكثر اللحظات رومنسية التـي تشاركهـا مـع أي امرأة. فـي النهاية، دعاها للمجيء معـه إلى أسبن بعـد الميـلاد، لتمضيـة العطلة معـه ومع أولاده. سيمضي مـع أرابيلا ليلة الميـلاد فـي لنـدن. تريده أن يتعرف إلى عائلتهـا، لكنه فضّل البقاء لوحده معهـا والاستمتـاع بكل لحظة. لا يحب كثيـراً التعرف إلى عائلة أي كان. فالأمور تفشل عادة حين يفعل ذلك، وتثار توقعات زائفة. في حالة أرابيلا، أرادها فقط أن تكون له، وهي راغبة كثيراً بذلك. فهي تقيم معه في منزله في لندن منذ التقيا. وظهرت صورهما معاً في المجلات مرات عدة.

لمحتهمـا دافنـي في مجلة بيبول، وعرضتهـا لأمها مع نظرة استياء. «يبدو وكأن والدي واقع في الغرام مجدداً».

«امنحيه فرصة، دافني. لا تكون الأمور جدية أبداً معه. إنه يستمتع فقـط». أصبحـت دافني قاسية على والدها ووالدتها هذه الأيام، على بلايك وماكسين على حدٍّ سواء.

«قـال إنـه سيأتي لوحده إلى العطلة هذه المرة». هذا ما أرادته دافني فعـلاً، أن تمضـي الوقت لوحدها معه، وتكـون الأنثى الوحيدة في حياته. ونظراً إلى من يكون بلايك، عرفت ماكسين أن هذا لن يحصل، ورأت أن المـرأة الجديـدة في حياته جميلة جداً. إنها سعيدة مع تشارلز، ولم يزعجها

الأمر على الإطلاق. لم يحصل ذلك أبداً. «أتمنى ألا يحضرها معه»، كررت دافني، وقالت ماكسين إنه سيفعل ذلك على الأرجح. بدا من الأفضل تحذيرها وجعلها تعتاد على الفكرة.

قبلت أرابيلا دعوة بلايك إلى أسبن. لم تذهب إلى هناك من قبل، وأحبّت فكرة تمضية العطلة مع أولاده الرائعين. شاهدت صورهم، وأخبرها عنهم جميعاً. ساعدته على شراء الهدايا لدافني، واختارا معاً سواراً ماسياً صغيراً جميلاً من غراف، أكدت له أرابيلا أنه سيناسبها تماماً. قالت إنه ملائم لأميرة. عاد إلى المتجر، واختار هدية ملائمة لفيكونتيسة، عبارة عن سوار مذهل من الياقوت. وحين قدمه لها، أعجبها كثيراً. احتفلا بليلة الميلاد، ثم توجها إلى نيويورك في طائرته الخاصة في اليوم التالي. وصلا إلى شقته في نيويورك في وقت متأخر من بعد الظهر يوم الميلاد، واتصل بماكسين ما إن وصلا. لقد عادت هي والأولاد للتو من احتفال مع أهلها، وكان الأولاد مستعدين للمغادرة في اليوم التالي. إنها توضب لهم الأغراض ليومين.

مازحته «أرى أنك مشغول، كنا نقرأ أنا ودافني عنك في مجلة بيبول». لم تخبره أن دافني لم تكن مسرورة.

«انتظري حتى تلتقي بها. إنها مذهلة».

«بالكاد أستطيع الانتظار»، ضحكت ماكسين. لا تدوم النساء في حياته عادة لوقت كافٍ حتى تلتقي بهن. بدأت هذه العلاقة قبل بضعة أسابيع فقط. إنها تعرف بلايك، ولا تصدّقه حين يقول إن هذه مختلفة. يقول دوماً ذلك. لا تستطيع تخيله على علاقة جدية مع أي كان، بالرغم من أن هذه المرأة أكبر سناً من خياراته الاعتيادية، لكنها لا تزال فقط في التاسعة والعشرين من عمرها، وهي صغيرة برأي ماكسين. ثم أخبرته ماكسين عن أحوالها. قالت من دون مبالاة: «أنا أواعد شخصاً أيضاً».

«حسناً، هذا خبر جديد. ومن هو الرجل المحظوظ؟».

«طبيب أمراض داخلية، التقيت به عن طريق مريض».

«يبدو هذا مثالياً. هل هو لطيف؟».

«أظن ذلك». لم تكن شاعرية، وعرف أن هذا هو طبعها. ماكسين تتحفظ في كل شيء.

«وما هو رأي الأولاد في ذلك؟». أصبح فضولياً الآن.

«آه...»، تنهدت. «هذه قصة أخرى. دافني تكرهه بقوة، وجاك ليس متحمساً، ولا أظن أن سام يبالي فعلاً».

«ولماذا تكرهه داف؟».

«إنه رجل. يتصورون جميعاً أنه عليّ الاكتفاء بهم، وهذا صحيح. لكن التغيير جيد. أشعر بالنضوج للتحدث إلى رجل بين مواعيد المرضى ونقل الأولاد بالسيارة».

«يبدو لي هذا جيداً».

ثم رأت ماكسين أنه يجدر بها تحذيره بشأن ابنته. «إنها غاضبة منك أيضاً».

«حقاً؟». بدا متفاجئاً. «لماذا؟». لم يتخيل السبب. إنه ساذج جداً.

«علاقتك العاطفية الجديدة. يبدو أنها تحب الاستئثار بنا هذه الأيام. قالت إنك وعدتها بالذهاب إلى أسبن لوحدك هذه المرة. هل ستفعل؟».

تردد. «آه... لا... ليس تماماً. ستكون أرابيلا معي».

«تصورت ذلك. أخبرت دافني أن هذه هي الحال على الأرجح. قد تواجه ورطة كبيرة. كن مستعداً».

«رائع. من الأفضل إخبار أرابيلا. إنها تتطلع إلى لقائهم».

«سيكون الصبيان جيدين. إنهما معتادان على نسائك. أخبرها فقط ألا تأخذ موقف دافني على محمل الجد كثيراً. إنها في الثالثة عشرة من عمرها، وهذا عمر صعب».

قال لها: «هذا ما يبدو». لكنه كان واثقاً من أن أرابيلا تستطيع التغلب على أي كان، حتى دافني. لا يظن أن المسألة مهمة. قال لماكسين: «سآخذهم غداً صباحاً عند الثامنة والنصف».

«سيكونون جاهزين»، وعدته. «أتمنى أن يحصل كل شيء على ما يرام». لم تتقبل دافني فكرة تشارلز بعد، لكنها رأته فقط بطريق عرضية، وبقي بعيداً خلال عطلة الأعياد. لا يحب الميلاد، ولم يعد لديه أي عائلة، لقد ذهب إلى منزله في فيرمونت. ستلتقي به ماكسين هناك بعد أن يذهب الأولاد مع بلايك. ستذهب بسيارتها في اليوم التالي، وهي متوترة قليلاً بشأن ذلك.

جاء بلايك لاصطحاب الأولاد في الصباح مثلما وعد، ولم تنزل ماكسين إلى الأسفل لرؤيته. طلبت من الأولاد إبلاغه حبها. لا تظن أنه من الجيد التطفل عليه مع أرابيلا. تشبث سام بأمه لبرهة، وأخبرته أنه يستطيع الاتصال بها على هاتفها الخلوي في أي وقت، وحذرت الولدين الكبيرين بضرورة الانتباه إليه والنوم بجانبه خلال الليل. كانت دافني منزعجة أصلاً، لأن أمها أخبرتها أن بلايك أحضر أرابيلا معه. «لكنه وعدني...»، قالت وهي تبكي الليلة الفائتة، فيما طمأنتها ماكسين أن هذا لا يعني أنه لا يحبها أو لا يريد تمضية الوقت معها، وإنما يحب فقط وجود امرأة معه. وعرفت كلتاهما أن أرابيلا، مهما بدت مهمّة بالنسبة إلى والدها، فلن تبقى معه لوقت طويل. فهذه هي حال نسائه، ولِمَ ستكون هذه المرأة استثناء على القاعدة؟ عانقت دافني أمها، وركضت للّحاق بالمصعد حيث انتظر جاك وسام.

بدت الشقة هادئة كثيراً بعدما غادروا. رتبت ماكسين وزيلدا الأثاث معاً، وبدّلت زيلدا أطقم الأسرّة قبل أن تذهب إلى المسرح لحضور مسرحية. ثم اتصلت ماكسين بتشارلز في فيرمونت. إنه متلهف لحضورها، وهي تتطلع لرؤيته، لكنها متوترة بشأن مشاريعهما. لقد اعتذر قبلاً عن كوخه في الجبال، مثلما وصفه، بعد أن عرف طبيعة الفخامة التي عاشتها مع بلايك. قال إن منزله في فيرمونت بسيط وعادي جداً. إنه قريب من منتجع تزلج، وهو يتطلع إلى التزلج معها، لكنه أشار إلى أن المكان ليس شبيهاً أبداً بسان موريتز، أو أسبن، أو أي من الأماكن التي تعرفها جيداً.

طمأنته «توقف عن القلق بشأن ذلك، تشارلز، لو كان هذا مهماً بالنسبة إليّ، لبقيت متزوجة ببلايك. تذكر أنني أنا التي تركته. أريد فقط تمضية الوقت معك. لا أهتم لمدى بساطة البيت. أنا قادمة من أجلك، وليس من أجل المنزل». وهي تقصد ذلك فعلاً.

ارتاح كثيراً لأن يكون وحيداً معها. لا يزال يشعر بالتوتر من تواجده مع أولادها. اشترى لهم جميعاً أسطوانات للميلاد، لفرق موسيقية اقترحتها أمهم، وبعض الأفلام لسام. ليست لديه فكرة عما يحبونه، وشعر بالتوتر عند اختيار الهدايا لهم. اشترى لماكسين وشاحاً رسمي المظهر من شانيل، ورأى أنه جميل، وأعجبها. أعطاها إياه في آخر مرة تناولا العشاء معاً قبل مغادرته إلى فيرمونت، قبل أربعة أيام من الميلاد. يفضل مغادرة المدينة قبل أن يصاب الناس بجنون العطلات. ليس هذا أسلوبه، ورأت هي أن هذا مؤسف فعلاً. لكنه أكثر سهولةً عليها بهذه الطريقة مع وجود الأولاد. كانت دافني لتصاب بانهيار عصبي لو كان موجوداً خلال الميلاد، وتوقع تمضية الوقت معهم، ولذلك عملت كل الأمور لمصلحتها.

قدّمت له ماكسين ربطة عنق من هيرمس مع وشاح جيب متناغم. وضعهما خلال العشاء تلك الليلة. إنها علاقة مريحة بالنسبة إليهما، غير جدية كثيراً، مع الكثير من المجال لكل منهما للاستمرار في مهنته وحياته. لا تعرف ماكسين كم ستتغير الأمور. لا تستطيع تخيل بقائه في المنزل مع أولادها، وقال تشارلز قبلاً إنه لن يفعل ذلك أبداً. قال إنه يخاف أن تقتله دافني خلال نومه.

غادرت المدينة عند الظهر، وكانت تنوي البقاء بعيداً عنها حتى يوم رأس السنة. توقعت أن تصل إلى فيرمونت عند الساعة السادسة من تلك الليلة. اتصل بها تشارلز وهي في طريقها إليه مرتين، للتأكد من أن كل شيء على ما يرام. الثلج يتساقط شمال بوسطن، لكن الطرقات مفتوحة، بالرغم من أن الثلج أصبح أكثر كثافة حين وصلت إلى نيوهمبشاير، وتلقت حينها اتصالاً من أولادها. اتصلت بها دافني لحظة وصلوا إلى أسبن، وبدت مسرورة.

«أكرهها أمي»، همست لها. أصغت ماكسين وحرّكت عينيها. «إنها مريعة!».

«كيف مريعة؟». حاولت ماكسين إبقاء عقلها متفتحاً بالرغم من أنه عليها الاعتراف بأن بعض نساء بلايك مريعات فعلاً. أصبحت ماكسين تنظر إلى المسألة بطريقة فلسفية خلال الأعوام الخمسة الماضية. لا تدوم علاقاته طويلاً على أي حال، ولا تستحق بالتالي أن يثور غضب دافني أو غضب ماكسين بشأنها، إلا إذا فعلت النساء شيئاً خطيراً للأولاد. لكن الأولاد كبروا الآن كفاية على ذلك على أي حال، ولم يعودوا أطفالاً.

«لديها أوشام صعوداً ونزولاً على ذراعيها!». ابتسمت ماكسين على الصورة.

«هكذا كانت المرأة الأخيرة، وعلى ساقيها، ولم يزعجك ذلك. هل هي لطيفة؟». ربما تتصرف بفظاظة مع الأولاد. أملت ماكسين ألا تفعل ذلك، لكنها لا تظن أن بلايك يسمح بحصول ذلك. إنه يحب أولاده، حتى لو كان يحب نساءه.

قالت دافني بفخر: «لا أعرف. لن أتحدث إليها».

«لا تكوني فظة، داف. ليس هذا لطيفاً، وسينزعج والدك. هل هي لطيفة مع أخويك؟».

«أخذت بعض الصور التافهة لسام. إنها رسامة أو ما شابه. وهي تضع ذلك الشيء الغبي بين عينيها».

«أي نوع من الأشياء؟».

«تعرفين، مثل النساء الهنديات. إنها زائفة جداً».

«تقصدين مثل الياقوتة الحمراء؟ هيا، داف. لا تكوني قاسية عليها. إذاً، إنها غريبة قليلاً. امنحيها فرصة».

«أكرهها». عرفت ماكسين أن دافني تكره تشارلز أيضاً. إنها تكره الكثير من الأشخاص هذه الأيام، حتى والديها. هذا هو عمرها.

«ربما لن تريها أبداً بعد هذه العطلة، لذلك لا تبددي الكثير من الطاقة

عليها. تعرفين كيف يحصل ذلك».

قالت دافني وقد بدت مكتئبة: «هذه مختلفة، أظن أن والدي مغرم بها».

«أشك في ذلك. يعرفها والدك منذ بضعة أسابيع فقط».

«تعرفين كيف هو. يُجنّ فيهنّ جميعاً في البداية».

«نعم، ثم يختفين مثل الدخان وينسى أمرهن. لذلك استرخي». لكنها تساءلت بعدما أقفلت الخط ما إذا كانت دافني محقة وستكون هذه المرأة الاستثناء. كل شيء ممكن. لا تستطيع تخيل بلايك وهو يتزوج مجدداً أو يبقى مع المرأة نفسها لوقت طويل، لكن، لا أحد يعلم. قد يفعل ذلك يوماً ما. تساءلت ماكسين كيف ستشعر حين يحصل ذلك. قد لا يكون الأمر رائعاً. تماماً مثل أولادها، تحب الأمور مثلما هي الآن. ليس التغيير سهلاً أبداً، لكنها قد تضطر إلى مواجهته يوماً ما. في حياة بلايك وحياتها هي. هذه هي الحال مع تشارلز. التغيير. الأمر مخيف جداً بالنسبة إليها.

استغرقت الرحلة وقتاً أطول مما توقعت بسبب الثلج، ووصلت إلى منزل تشارلز عند الساعة الثامنة مساء. إنه منزل صغير ومرتب مع سقف مائل وسور ريفي حوله. بدا مثل منزل على بطاقة بريدية. خرج لإلقاء التحية عليها ما إن وصلت، وحمل حقائبها إلى الداخل. ثمة شرفة أمامية مع أرجوحة عليها، وفي الداخل توجد غرفة نوم كبيرة، وغرفة جلوس مع موقد وسجادة عتيقة، ومطبخ ريفي حميم. خاب أملها حين لاحظت أنه لا يوجد مكان لأولادها، إذا حصل وأتوا. لا توجد حتى غرفة للضيوف حيث تستطيع وضعهم هم الثلاثة في سرير واحد. إنه منزل ملائم لشخص عازب، أو على الأكثر لثنائي، ولا شيء آخر، وهذه هي طريقة عيشه. وهو يحب حياته بهذه الطريقة. أوضح لها ذلك.

كان المنزل دافئاً حين دخلت، ووضع حقائبها في غرفة النوم، وأراها الخزانة حيث تستطيع تعليق أغراضها. إنه لشعور غريب أن تتواجد لوحدها هنا معه. شعرت فجأة أنها شجاعة كفاية للقدوم، وانتابها الخجل فيما رافقها في

المنزل وهو يريها مكان الأشياء. مناشف، شراشف، الغسالة، الحمام، علماً أنه يوجد حمام واحد فقط. وكان كل شيء في مطبخه دقيقاً ومرتباً. حضّر لها الدجاج البارد وبعض الحساء، لكنها بعد الرحلة الطويلة شعرت بتعب كبير لتناول الطعام. سعدت بالجلوس قرب الموقد معه وبشرب كوب شاي.

سأل بتهذيب «هل الأولاد بخير؟».

«إنهم بخير. اتصلت دافني حين وصلوا إلى أسبن. إنها غاضبة قليلاً لأن والدها أحضر صديقته الجديدة معه. وعد ألا يفعل ذلك هذه المرة، لكنه التقى مؤخراً بامرأة جديدة فأحضرها معه. يتحمس أكثر من اللزوم قليلاً في البداية».

«إنه رجل مشغول»، قال تشارلز وهو يبدو غير موافق. لطالما شعر بالانزعاج كلما ذكرت بلايك.

«سيعتاد الأولاد. يفعلون ذلك دوماً».

«لست واثقاً كثيراً من أن دافني ستعتاد عليّ». لا يزال قلقاً بشأن ذلك، ولم يكن معتاداً على الغضب الشديد للفتيات المراهقات. لم تتأثر ماكسين كثيراً.

«ستكون بخير. تحتاج فقط إلى بعض الوقت».

جلسا وتحدثا قرب الموقد لوقت طويل، وكان المشهد في الخارج رائع الجمال. وقفا على الشرفة الخارجية، ونظرا إلى الثلج حولهما. كان المشهد رائعاً فيما وضع تشارلز ذراعيه حولها وقبّلها. ما إن فعل ذلك، حتى رنّ هاتفها الخلوي. إنه سام يتصل بها ليقول لها تصبحين على خير. أعطته قبلة، وودعته، ثم التفتت إلى تشارلز مجدداً ولاحظت أنه متوتر.

علّق بطريقة جافة «يبدو أنهم يعثرون عليك، حتى هنا، ألا تحصلين أبداً على وقت فراغ؟».

قالت بهدوء: «لا أريد ذلك، إنهم أولادي. إنهم كل ما أملك. إنهم حياتي». هذا هو تماماً ما يخشاه، ولهذا السبب يخاف منهم كثيراً. لا يتخيل نفسه وهو يبعدهم عنها.

قال بهدوء: «تحتاجين في حياتك إلى شيء أكثر منهم». بدا وكأنه يتطوع لأداء المهمة، وتأثرت. قبّلها مجدداً، ولم يتصل أحد هذه المرة، ولم يزعجهما أحد. لحقت به إلى الداخل، وتناوبا على الاستحمام. كان الأمر محرجاً قليلاً ومضحكاً نوعاً ما، فيما قهقهت ماكسين عند ذهابها إلى السرير. كانت ترتدي ثوب نوم طويلاً من الكشمير مع رداء متناغم فوقه، وجوربين. بالكاد بدت رومنسية، لكنها لم تستطع تخيل نفسها وهي ترتدي شيئاً آخر. كان هو يرتدي ثياب نوم مخططة، وشعرت وكأنها مثل والديها في غرفة نومهما فيما استلقت وتشارلز جنباً إلى جنب على السرير المزدوج.

«يبدو هذا غريباً قليلاً»، اعترفت له بهمس، ثم قبّلها ولم يعد الأمر غريباً أبداً.

أمسكا ببعضهما بقوة بعد ذلك، وأخبرها كم هي جميلة وقال لها إنه يحبها، وصدمت لسماع الكلمات. تساءلت ما إذا كان مجبراً على قولها لها. قال إنه وقع في غرامها منذ التقيا. وأخبرته بلطف أنها تحتاج إلى المزيد من الوقت قبل أن تعرف ذلك. هناك الكثير من الأشياء التي تعجبها فيه، وتأمل أن تشعر بالكثير من الأمور تجاهه حين تتعرف إليه بصورة أفضل. شعرت بالأمان معه، وهذا مهم لها. إنها تثق به، تهامسا في الظلام، و.... بعد ذلك، نامت بين ذراعيه، وكانا سعيدين ومرتاحين وراضيين وفي سلام تام.

الفصل الثاني عشر

في صباح اليوم التالي، ارتدى تشارلز وماكسين ثيابهما، وذهبا في نزهة طويلة في الثلج. حضّر لها الفطور فكان عبارة عن فطائر مقلية مع رقاقات هشة من اللحم المقدد. نظرت إليه بحنان، وقبّلها عبر الطاولة. هذا ما كان يحلم به منذ التقيا. كان يصعب حدوث مثل هذا الأمر في حياتها. اتصل أولادها مرتين قبل الفطور. أعلنت دافني الحرب المفتوحة على الحب الجديد لوالديها. وفيما أصغى تشارلز إلى جانب ماكسين من المحادثة، قطّب حاجبيه. وصُدمت بما قاله لها حين أقفلت الخط.

«أعرف أن هذا قد يبدو مجنوناً لك ماكسين، لكن ألا تظنين أنهم كبروا كفاية ليبقوا في المنزل؟».

«كنت نفكر ربما في أنه يجدر بهم الالتحاق بالمارينز أو الدخول باكراً إلى الجامعة؟». ففي النهاية، لا يزال جاك ودافني في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمرها.

«كنت في مدرسة داخلية حين كنت في عمرها. كانت أفضل تجربة عشتها. أحببتها، وحضّرتني للحياة». أصيبت ماكسين بالذعر لمجرد سماعه يقول ذلك.

قالت بصرامة: «أبداً، لا أفعل ذلك أبداً مع أولادي. لقد خسروا بلايك تقريباً. ولن أتخلى عنهم أنا أيضاً. ولماذا؟ كي أعيش حياة اجتماعية أفضل؟ من يهتم لذلك؟ هذه هي السنوات التي يحتاج فيها الأولاد إلى أهل، ويحتاجون إلى تعلّم القيم، وإبعاد المشاكل عنهم. لا أريد من أستاذ في مدرسة داخلية أن يعلّم أولادي هذه الأمور. أريدهم أن يتعلموا ذلك مني». إلا أنها صُدمت.

«لكن ماذا عنك أنت؟ هل تريدين تأجيل عيشك الحياة إلى أن يذهبوا

إلى الجامعة؟ هذا ما يعنيه بقاؤهم حولك طوال الوقت».

قالت بهدوء: «هذا ما وقعت عليه حين أنجبتهم، لهذا السبب وجد الأهل. أرى النتائج في مكتبي كل يوم حين لا يكون الأهل متفرّغين لأولادهم. وحتى لو كانوا متفرّغين لهم، فقد تسلك الأمور المسار الخطأ. إذا غادرت ووضعتهم في مدرسة داخلية في هذه الأعمار، فأنت بالتأكيد تبحث عن المشاكل».

قال بنبرة دفاعية: «لكنني على ما يرام».

قالت بفظاظة: «نعم، لكنك قررت عدم إنجاب الأولاد، هذا يثبت شيئاً أيضاً. لقد فوّتت ربما شيئاً في طفولتك. انظر إلى البريطانيين. إنهم يرسلون أولادهم بعيداً في عمر السادسة أو الثامنة، وينحرف بعض الأولاد بسبب ذلك ويتحدثون عن الأمر لاحقاً حين يكبرون. لا يمكنك إرسال ولد بعيداً في هذا العمر، وعدم تحمّل أي نتيجة على الإطلاق. يواجه الناس مشاكل في الارتباط بعد ذلك. وأنا لا أثق بمسألة إرسال أولاد مراهقين إلى مدرسة داخلية. أريد أن أكون موجودة لأرى ماذا يفعلون ولأشارك مبادئي معهم».

قال بصرامة: «تبدو لي هذه تضحية كبيرة».

قالت له: «على الإطلاق». متسائلة ما إذا كانت تعرفه فعلاً. لا شك في أنه يوجد جزء ناقص في شخصية تشارلز، في ما يتعلق بالأولاد، ورأت أن هذا مؤسف جداً. قد يكون هذا هو الجزء الذي جعلها تتردد بشأنه حتى الآن. أرادت أن تحبه، لكنها تحتاج إلى التأكد من أنه يستطيع حب أولادها أيضاً، وليس إرسالهم بعيداً إلى مدرسة داخلية. مجرد التفكير في ذلك جعلها ترتعد. لاحظ ذلك، وتراجع على الفور. لا يريد إزعاجها، بالرغم من ظنه أنها ستكون فكرة رائعة، لو رغبت بذلك. لكنها لا تريد. هذا واضح.

ذهبا للتزلج بعد ظهر ذلك اليوم في شوغاربوش، وكان التزلج معه سهلاً وممتعاً. لم تكن يوماً محترفة بقدر بلايك، لكنها تجيد التزلج، وكانت هي وتشارلز بالمستوى نفسه، واستمتعا بالجولات نفسها. شعرا بالاسترخاء

والسعادة بعد ذلك، ووضعت جانباً اختلافهما البسيط ذلك الصباح بشأن المدرسة الداخلية. يحق له التعبير عن وجهة نظره، طالما أنه لم يجبرها على المسألة. لم تسمع شيئاً من أولادها تلك الليلة، وشعر تشارلز بالارتياح. من الجميل تمضية وقت غير متقطع معها. أخذها لتناول العشاء خارجاً، وحين عادا إلى المنزل، ذُهلت لمدى الارتياح والاسترخاء اللذين تشعر بهما معه. بدا وكأنهما مع بعضهما منذ زمن. كان الثلج يتساقط خارجاً، وشعرت ماكسين كأن الوقت توقف وكانا لوحدهما في عالم غريب.

في منزل بلايك في آسبن، كانت الأمور أقل هدوءاً مما هي في فيرمونت. الستريو يصدح بصوت عالٍ. جاك وسام يلعبان ألعاب النينتندو، وجاء أصدقاء للزيارة، وقد صممت دافني على جعل حياة أرابيلا تعيسة قدر المستطاع. أصدرت تعليقات فظة وقاسية وملاحظات لئيمة بشأن الثياب التي ارتدتها أرابيلا. وكلما حضّرت أرابيلا الطعام، رفضت دافني الأكل. سألتها إذا فحصت نفسها لمرض الأيدز بسبب الأوشام على ذراعيها وجسدها. لم تعرف أرابيلا كيف تتعاطى معها، لكنها أخبرت بلايك أنها مصممة على الصمود. أصرّ على أنهم أولاد جيدون.

أراد أن ينجح الأمر مع أولاده. تبذل دافني كل شيء ممكن كي لا ينجح الأمر. كانت تحاول تحريض الصبيين ضد أرابيلا، لكن خطتها لم تنجح حتى الآن. رأيا أنها جيدة، بالرغم من أن أوشامها وتسريحة شعرها وطريقة لباسها غريبة نوعاً ما.

لم يكترث جاك أبداً لأرابيلا تقريباً، وكان سام مهذباً. استفسر سام عن الياقوتة الحمراء بين الحاجبين، وأخبره والده أن أرابيلا تضعها لأنها عاشت في الهند، ورأى أنها جميلة فعلاً. اعترف سام أنه يراها جميلة هو الآخر. هزّت دافني كتفيها استهجاناً، وأخبرت أرابيلا أنهم رأوا الكثير من النساء اللواتي يظهرن ويختفين من حياة والدهن ولذلك لم يعودوا يتكلفون عناء التعرف إليهن. طمأنت أرابيلا في أنه سيتخلص منها خلال الأسابيع القليلة المقبلة. كان هذا التعليق الوحيد الذي أثّر فعلاً في أرابيلا، ووجدها بلايك في حمامهما تبكي.

«حبيبتي... صغيرتي... بيلا عزيزتي... ما القصة؟». كانت تبكي وكأن قلبها سيتوقف عن الخفقان، والشيء الوحيد الذي لا يستطيع تحمله هو النساء اللواتي يبكين، ولا سيما النساء اللواتي يحبّهن. «ماذا حصل؟». أرادت أرابيلا أن تقول له إن ابنته هي المسؤولة، لكنها كبتت نفسها، بسبب حبها له. إنها مغرمة فعلاً به، وهو مجنون بها أيضاً.

أخيراً، كررت أرابيلا العبارة التي قالتها لها دافني وجعلتها تنفجر في البكاء. «لقد خفت كثيراً، وتساءلت فجأة إذا كنت ستتخلص مني حين نعود إلى لندن». نظرت إلى بلايك بعينين كبيرتين، وبدأت تبكي مجدداً فيما وضع ذراعيه حولها.

طمأنها بلايك «لن يتخلص أحد من أحد هنا، أنا مجنون بك. لن أذهب إلى أي مكان، ولا أريد قول أي شيء عن ذلك، ولا أنت، ولوقت طويل. أكره قول ذلك، لكن ابنتي تغار منك». تحدث إلى دافني عن الموضوع في وقت لاحق من بعد الظهر، وسألها عن سبب تصرّفها بفظاظة مع أرابيلا. ليس هذا عادلاً فعلاً، ولم تفعل هذا مع أي من صديقاته السابقات.

«ما الأمر، داف؟ تعرفت إلى الكثير من النساء، ولتكن صريحين، كانت بعضهن في قمة الغباء». ضحكت دافني على صراحته. كانت هناك بعض النساء الغبيات فعلاً، جميلات وإنما غبيات، ولم تطاردهن دافني أبداً أو حتى تسخر منهن.

قالت دافني على مضض: «أرابيلا مختلفة».

«نعم، إنها أكثر ذكاء ولطافة من البقية، وفي عمر أكثر حكمة. إذاً، ما هي مشكلتك؟». انزعج منها، وبدا عليه ذلك. إنها تجعل حياة أرابيلا بائسة من دون سبب.

أجابت دافني «هذه هي النقطة، بابا، إنها أفضل من البقية... ولذلك أكرهها...».

«اشرحي ذلك لي». كان مذهولاً تماماً.

تحدثت دافني بصوت هادئ، وبدت فجأة مثل طفلة مجدداً. «أخشى

أن تبقى ملتصقة بك».

«إذاً؟ ماذا سيحصل طالما أنها لطيفة معك؟».

«ماذا لو تزوجتها؟». بدت دافني مشمئزة من الفكرة، وبدا والدها مذهولاً.

«أتزوجها؟ ولماذا أفعل ذلك؟».

«لا أعرف. يفعل الأشخاص ذلك».

«أنا لا أفعل. فعلت ذلك قبلاً وعشت التجربة. تزوجت بأمك. لديّ ثلاثة أولاد رائعون. لا أحتاج إلى الزواج مجدداً. أنا وأرابيلا نستمتع فقط. هذا كل شيء. لا تضخّمي الأمور كثيراً. لن نتزوج، ولمَ نفعل ذلك؟».

«تقول إنها تحبك، بابا». كانت عينا دافني مفتوحتين على وسعهما. «وقد سمعتك تقول لها إنك تحبها أيضاً. الأشخاص الذين يحبون بعضهم يتزوجون، ولا أريدك أن تتزوج بأحد، باستثناء ماما».

قال بطريقة بديهية: «حسناً، لن يحصل هذا، لا نريد أنا وأمك أن نتزوج، لكننا نحب بعضنا بهذه الطريقة. وهناك مجال كبير لامرأة في حياتي، لا أريد الزواج بها، وهناك أيضاً مجال لكم جميعاً. لا حاجة إلى القلق بشأن ذلك. أقسم لك داف. لن تريني أبداً متزوجاً. بأي كان. هل هذا أفضل؟».

«نعم، ربما». لا تزال تبدو غير واثقة. «ماذا لو بدّلت رأيك؟». عليها الاعتراف أن أرابيلا جميلة المظهر وذكية ومضحكة. تبدو نوعاً ما مثل المرأة المثالية له، وهذا ما أخاف دافني كثيراً.

«إذا بدّلت رأيي، سأناقش الأمر معك أولاً. أعطيك إذني لفعل ما تشائينه لإقناعي بالعدول عن الفكرة. هل اتفقنا؟ لكن لا حاجة إلى أن تتصرّفي بطريقة مزعجة مع أرابيلا الآن. ليس هذا عادلاً. إنها ضيفتنا، وهي تمضي وقتاً مريعاً».

قالت دافني بابتسامة منتصرة: «أعرف». عملت بكدّ للوصول إلى ذلك.

«أنهي الموضوع. كوني لطيفة معها. إنها فتاة لطيفة. وأنت أيضاً».

«هل أنا مجبرة على ذلك بابا؟».

قال بصرامة: «نعم». بدأ يتساءل ما إذا كانت دافني ستفعل هذا مع كل نسائه من الآن وصاعداً. فقد أعطت عدة ملاحظات مزعجة عن تشارلز، صديق أمها، أيضاً. يبدو أنها تريد أن يبقى والداها عازبين هذه الأيام، وليس هذا واقعياً جداً. كان بلايك سعيداً لأن ماكسين عثرت أخيراً على أحد. تستحق القليل من الراحة والصحبة في حياتها. لا يكرهها أبداً على ذلك. لكن دافني تفعل من دون شك، وهي مستعدة لفعل أي شيء حيال ذلك. لا يحب أن يراها تتصرف بهذه الطريقة. لقد تحولت إلى فتاة صغيرة مزعجة بين ليلة وضحاها، وتساءل ما إذا كانت ماكسين محقة بشأن العمر. لا يتطلع أبداً إلى مواجهة الكثير من ذلك. سيصبح من الصعب جداً اصطحابها في العطلات، لأنه يحضر دوماً امرأة معه، ولا ينوي أبداً الامتناع عن ذلك.

«أريدك أن تبذلي جهداً معها الآن. من أجلي أنا»، توسّل إليها، ووافقت دافني على مضض.

لم تظهر نتائج حديثه معها بصورة بديهية في الليلة الأولى، وإنما تحسنت قليلاً بعد يومين. باتت تجيب حين تتحدث أرابيلا إليها، وتوقفت عن إعطاء الملاحظات بشأن أوشامها وشعرها. هذا إنجاز على الأقل. ولم تبك أرابيلا منذ أيام. تبين له أن الرحلة باتت مصدر توتر، ولا يحصل ذلك أبداً حين يكون مع الأولاد، وشعر بالأسف تقريباً لأنه أحضر أرابيلا معه، من أجلها هي وليس من أجل أولاده.

كان يتزلج بسلام مع أرابيلا بعد ظهر أحد الأيام، وتوجب عليه الاعتراف أنه من الجميل الابتعاد قليلاً عن الأولاد. توقفا مرات عدة لالتقاط أنفاسهما في المنعطفات الصعبة، وانحنى صوبها وقبّلها. اعترفت له أرابيلا أنها بالكاد تستطيع الانتظار للعودة إلى لندن، بالرغم من أنها سعيدة

بلقاء أولاده. لكنها لم تحرز تقدماً باهراً معهم، وتشعر وكأنها تنظم لهم الأمور باستمرار. بدا جلياً أنها لا تستطيع أبداً أن تكون وداڤني صديقتين. أفضل ما يمكن أن تتمناه هو هدنة صعبة، وهذا ما توصلت إليه حتى الآن. إلا أن ذلك يبقى تحسناً كبيراً في سلوك داڤني نسبة إلى البداية. بلايك لا يحسد زوجته السابقة إذا كانت مضطرة إلى مواجهة ذلك كلما تواجد صديقها الحالي معها. ذُهل بقدرة الرجل على تحمل ذلك. شك في أن أرابيلا لن تستطيع الصمود طويلاً، لو لم تتراجع داڤني أخيراً.

للمرة الأولى في حياته، شعر بالارتياح لإعادتهم إلى ماكسين في نيويورك. لقد عادت من فيرمونت في ذلك اليوم، ووصلت إلى المنزل مباشرة قبل أن يوصلهم بلايك. كانت أرابيلا تنتظره في شقته، وسيغادران إلى لندن هذه الليلة.

ألقى سام فوراً بذراعيه حول أمه مع صرخة فرح وكاد يوقعها أرضاً. وبدا جاك وداڤني سعيدين بعودتهما إلى المنزل أيضاً.

«كيف كانت العطلة؟»، سألت بلايك بنظرة مسترخية. لاحظت في عينيه أن العطلة كانت أقل من مثالية، وانتظر حتى غادرت داڤني الغرفة لإجابتها.

قال مبتسماً ابتسامة حزينة: «لم تكن سهلة كالمعتاد. احذري من داف، ماكس، وإلا ستتحولين إلى عانس عجوز». ضحكت على التحذير. هذا آخر ما يهمها، لقد أمضت وقتاً رائعاً مع تشارلز في فيرمونت. لقد عادت مسترخية وسعيدة، وأقرب إليه مما كانت إلى أي رجل منذ أعوام. إنهما متشابهان في العديد من النواحي، وهما الثنائي المثالي. فمهنتاهما تنسجمان تماماً، ويحبان التدقيق في التفاصيل والترتيب والتنظيم. مع عدم وجود أي شخص آخر معهما، بدا الأمر مثالياً. سيكون التحدي في رؤية ما سيحصل حين يعود الجميع إلى المنزل مجدداً.

«هل أفسدت كل شيء؟»، استفسرت ماكسين عن ابنتها. وهزّ بلايك رأسه.

«ليس تماماً». توقفت عن إعطاء التعليقات المقيتة مثلما فعلت في البداية، لكنها نجحت في جعل حياة أرابيلا تعيسة في كل طريقة ممكنة. «أنا متفاجئ لأنها بقيت».

«أفهمها إذا لم يكن لديها أولاد. هذا مفيد دوماً»، قالت ماكسين وهزّ هو رأسه.

قال وهو يضحك: «سترابط أنابيبها على الأرجح بعد هذه العطلة. لا ألومها. لكن هذا يناسبني أيضاً». وتأوهت ماكسين تعاطفاً معه.

«امرأة مسكينة. لا أعرف ماذا نستطيع أن نفعل. تشتهر الفتيات في الثالثة عشرة من عمرهنّ بهذا النوع من السلوك. سيسوء الأمر كثيراً قبل أن يتحسن مجدداً».

قال بلايك فيما كان يستعد للمغادرة: «اتصلي بي حين تُنهي دراستها الجامعية». توقف أمام غرف أولاده لرؤيتهم جميعاً، وقبّلهم قبلة الوداع، ثم وقف أمام الباب لدقيقة مع ماكسين.

«اعتني بنفسك، ماكس. أتمنى أن يكون هذا الرجل جيداً لك. إذا لم يكن كذلك، قولي له إنه سيضطر إلى مواجهتي».

قالت وهي تعانقه: «قل هذا لأرابيلا أيضاً». شعرت بالأسف لأن داڤني أزعجتهما كثيراً خلال العطلة. «إلى أين ستذهب الآن؟».

«إلى لندن لبضعة أسابيع، ومن ثم إلى مراكش. أريد مباشرة العمل في المنزل. وهو في الواقع ليس منزلاً وإنما أشبه بقصر. عليك أن تذهبي لرؤيته في وقت ما». لكنها لا تعرف متى سيحصل ذلك. «ربما سأكون في سان بارتس في نهاية شهر يناير. سآخذ اليخت من هناك وأجول فيه قليلاً». تعرف القصة. لن يراه الأولاد ربما قبل وقت طويل. ليس قبل العطلة الصيفية على الأرجح. إنهم معتادون على ذلك، لكنها تشعر بالحزن عليهم. فهم يحتاجون إلى رؤية بلايك أكثر مما يفعلون حالياً. «سأبقى على اتصال بكم». يفعل ذلك أحياناً ولا يفعل أحياناً أخرى، لكنها تعرف أين تجده، إذا اضطرت إلى ذلك.

قالت وهي تعانقه أمام المصعد: «اعتنِ بنفسك».

قال لها وعانقها: «وأنت أيضاً». ثم غادر. إنه شعور غريب بالنسبة إليها حين تقول له وداعاً. يجعلها ذلك تتساءل أحياناً ما إذا كانت الحياة ستكون هكذا لو بقيا متزوجين. كان سيبقى غائباً طوال الوقت، مثلما هي الحال الآن. ليس هذا كافياً بالنسبة إليها، أن يكون لها زوج بالاسم فقط. فما تحتاج إليه هو ما عثرت عليه أخيراً، أي رجل مثل تشارلز يبقى موجوداً على الدوام. إنه رجل ناضج تماماً.

الفصل الثالث عشر

حين عاد بلايك وأرابيلا إلى لندن، توجب عليهما القيام بالكثير من الأشياء. لديه اجتماعات، ومسألة الاهتمام بمنزليه، وعليها إنجاز رسم لشخص ما. سيمضيان أسبوعين كاملين قبل أن يتمكنا من الخروج من المدينة. وحين فعلا، شعر بلايك بالارتياح. الطقس بارد جداً في لندن، وهو متعب من الشتاء. الطقس بارد في أسبن ونيويورك أيضاً، لكنه يستطيع التزلج على الأقل في أسبن. إلا أنه يتوق إلى الذهاب إلى المغرب. لم تذهب أرابيلا أبداً إلى هناك من قبل، ولا يستطيع الانتظار لمشاركتها الرحلة. كانت متحمسة بقدره يوم غادرا. سيقيمان في لا مامونيا، وسيصطحب مهندسه المعماري معه. بات لديه مخططات للمنزل، وبدت رائعة بالنسبة إليه. سيستغرق المشروع سنة كاملة على الأقل، وهذا ملائم لبلايك. القسم الأفضل هو التخطيط، وحماسة مشاهدة إنجاز العمل. ومع الحس الفني لأرابيلا، ستكون مشاركة الأمر معها ممتعة جداً. تحدثا بحماسة عن الموضوع طوال الرحلة. وصُدمت بجمال المكان لحظة حطّت الطائرة. وصلا عند غروب الشمس، مع وهج ناعم فوق جبال الأطلس حين حلّقا فوقها.

ثمة سيارة في انتظارهما لاصطحابهما إلى الفندق، وكانت أرابيلا مذهولة حين تجولا في المدينة. منارة كوتوبيا الرائعة كانت أول علامة في مراكش لفتت نظرها، وعبرا أمام الساحة المركزية، عند الشفق. بدا المشهد مثل ديكور لفيلم سينمائي. حتى في رحلاتها إلى الهند، بالكاد شاهدت شيئاً رائع الجمال بقدر هذا. فهناك راقصون، وبهلوانيون، وتجار يبيعون أشياء للشرب، وبغال يقودها أصحابها، ورجال في أثواب طويلة في كل مكان. إنه مشهد من ألف ليلة وليلة. أخبرها بلايك أنه يريد اصطحابها

إلى الأسواق، ولا سيما سوق الزربية، والمدينة، والمدينة المسوّرة، وحدائق المنارة، التي قال إنها أكثر مكان رومنسي في العالم. ثمة جوّ رائع حولهما، وفيما أخفضت النوافذ الملونة لرؤية المشاهد بصورة أفضل، شمّت رائحة التوابل والأزهار والأشخاص والحيوانات التي اجتمعت مع بعضها لتوليد هالة لها خصائصها. كانت زحمة السير حولهما مجنونة. ثمة دراجات نارية وهوائية تتنقل بين السيارات، وزحمة السير خانقة وغير منظمة، فيما الأبواق تصفر، والناس يصرخون، وأضاف موسيقيو الشوارع المزيد من الضجيج إلى تنافر الأصوات. التفتت أرابيلا إلى بلايك مبتسمة ابتسامة عريضة وسعيدة وكانت عيناها تتلألآن. المشهد هنا أفضل من المشهد في الهند بالنسبة إليها، لأنها تتشاركه معه.

قالت بحماسة: «أحب هذا!». فيما ابتسم لها. ولم يستطع الانتظار ليريها قصره. رأى أن مراكش هي المكان الأكثر رومنسية الذي زاره، ووافقت معه أرابيلا. فبالرغم من أسفارها إلى الهند، أحبت المكان هنا أكثر. تستعيد أرابيلا حيويتها في الأماكن الغريبة بطرائق لم يعهدها بلايك من قبل.

عبرا بين أشجار النخيل العملاقة المحيطة بجانبي الطريق، واقتربا من القرميد مشمشي اللون لفندق لا مامونيا. سمعت أرابيلا عنه طوال سنوات، ولطالما أرادت المجيء إلى هنا، وكان القيام بذلك مع بلايك أفضل ما يمكن على الإطلاق. ألقى التحية عليهما رجال يرتدون العباءات المغربية البيضاء مع الأحزمة الحمراء، وانتبهت أرابيلا إلى الخشب المحفور ونقوش الفسيفساء خارج الفندق، فيما ظهر المدير. جاء بلايك إلى هنا مرات عدة من قبل منذ شرائه القصر القديم، وحجز إحدى الفيلات الثلاث الخاصة والفخمة في الفندق، والتي ما زال يحتفظ بها حتى الانتهاء من إعادة ترميم وزخرفة قصره.

دخلا البهو الرئيسي للفندق حيث وقفا على أرض رخامية بيضاء، مؤطرة برخام أسود، وفوقهما ثريا ضخمة ومتكلّفة. دخلا القاعة عبر الأبواب الزجاجية الملونة بالأحمر والأصفر والأزرق، فيما أحاطت بهما

مجموعة من الرجال الذين يرتدون العباءات البيضاء، والسترات الرمادية ويعتمرون القبعات الحمراء، وألقوا التحية على أرابيلا وبلايك. هناك خمسة مطاعم فخمة وخمسة مشارب تلبي أذواق الضيوف، وحمامات تركية، وكل وسائل الراحة الممكنة. وحين أخذهما المدير إلى فيلا بلايك الخاصة، كانت مجموعة من الموظفين في انتظارهما هناك. تشتمل الفيلا على ثلاث غرف نوم، وغرفة جلوس، وغرفة طعام ومطبخ صغير، ومطبخ كامل منفصل ليعدّ فيه الطاهي الوجبات لهما إذا لم يرغبا بتناول الطعام في المدينة أو في أي من مطاعم الفندق. لديهما مدخل خاص، وحديقة، وجاكوزي، بحيث إذا لم يرغبا برؤية أحد خلال فترة إقامتهما هنا، يستطيعان ذلك أيضاً. لكن أرابيلا متشوقة لرؤية المدينة معه. طلب بلايك من السائق انتظارهما إذ يريد وأرابيلا الخروج والاستكشاف، بعد تناولهما وجبة هادئة في حديقتهما. التواجد هنا رائع وغريب.

استحما، وبدّلا ثيابهما، وتناولا وجبة خفيفة في الحديقة، ثم خرجا معاً يداً بيد. مشيا في الساحة الرئيسية، وبقيا بعيدين عن الرجال الذين يقيمون عروضاً مع الأفاعي، وركبا في عربة للتجول حول أسوار المدينة. إنه كل ما أملته أرابيلا، وبعد الجلوس في الجاكوزي في حديقتهما الخاصة، واستنشاق عطر الأزهار، وتوجها إلى غرفة نومهما حيث ناما أخيراً بين ذراعي بعضهما.

في صباح اليوم التالي، حضّر لهما الموظفون في الفيلا فطوراً فاخراً. عرض لها بلايك تصاميمه للقصر الذي يعيد ترميمه، وذهبا لرؤيته بعد تناول الفطور. كان القصر مذهلاً أكثر مما توقعت. فهو يحتوي على أبراج صغيرة وقناطر، مع فناء داخلي ضخم وفسيفساء قديمة جميلة مرصعة في الجدران، وكانت غرف المنزل عملاقة. إنه بالفعل قصر، وتلألأت عينا بلايك حين تمشى فيه مع المهندس المعماري وأرابيلا. قدّمت بعض الاقتراحات المذهلة لناحية ألوان الطلاء والديكور. وفجأة، فيما كان يتجول فيه، عرف أنه يريد مشاركته معها. شدّها بين ذراعيه إلى شرفة مطلة على جبال الأطلس، وقبّلها بالشغف الذي طبع علاقتهما منذ البداية.

«أريد أن يكون هذا عشّ حبنا. سيكون مثالياً لنا. يمكنك الرسم هنا».
رأى نفسه وهو يمضي أشهراً هنا دفعة واحدة بعد الانتهاء من ترميمه. إنها قرية صغيرة مثالية، مع المطاعم والأسواق والمعارض الغريبة، وجمال الطبيعة خلفهما. وثمة حياة اجتماعية حيوية أيضاً. فلأرابيلا العديد من الأصدقاء الفرنسيين الذين انتقلوا إلى مراكش، وتناولت العشاء معهم هي وبلايك قبل أن يغادرا. كانت رحلة مذهلة.

تركا المهندس المعماري في لندن، ثم طارا إلى الأزور، ومن هناك إلى سان بارتس. أحبت أرابيلا منزله هناك، وأبحرا بعد أسبوع على يخته. إنه أكبر يخت رأته في حياتها، وتوجها إلى جزر الغرنادين، شمال فنزويلا. توجب عليها إعادة تنظيم كل مواعيد جلسات الرسم لتكون معه، وتسافر معه، لكن الأمر يستحق العناء. استلقت على متن اليخت معه، فيما انزلقا بهدوء عبر المياه الزرقاء الشفافة. إنه شهر فبراير، ووافقا على أنها الحياة المثالية. الثلج يتساقط في كل مكان آخر في العالم لكن الصيف لانهائي هنا. والأفضل من كل ذلك أنه صيف حبهما.

كانت ماكسين تسير عبر الثلج المكدس وهي في طريقها إلى عيادتها، وكانت مشغولة أكثر من أي وقت مضى. لديها عدد من الحالات الجديدة، ومجموعة من اللقاءات المدرسية في أرجاء البلاد مما أجبرها على السفر إلى مدن عدة للتشاور مع العديد من الأطباء النفسيين والسلطات المحلية حول كيفية التعاطي مع الأولاد المتأثرين.

في حياتها الشخصية، كانت الأمور تجري على ما يرام مع تشارلز. الشتاء أوشك على الانتهاء. وحتى دافني بدأت تهدأ. قد لا تصبح أبداً وتشارلز صديقين عزيزين، لكنها توقفت عن إصدار تعليقات قاسية بشأنه، حتى إنها سمحت لها ذات مرة بالبقاء معها في أثناء تواجده، وضحكا كثيراً. إنه يبذل جهداً فائقاً مع أولادها. الأمر أسهل عليه مع جاك وسام، وقد اصطحبهما إلى عدة مباريات لكرة السلة. كانت دافني مشغولة جداً في حياتها الاجتماعية للانضمام إليهما، بالرغم من أنه دعاها هي الأخرى.

كانت ماكسين حريصة كثيراً على عدم جعلهم يعرفون مدى تقدم

علاقتها مع تشارلز. فهو لا يبقى أبداً في الشقة، إلا إذا كان الأولاد جميعهم عند أصدقائهم. تحاول البقاء في شقته مرة أو مرتين أسبوعياً، لكنها تعود دوماً إلى المنزل قبل أن ينهض الأولاد للذهاب إلى المدرسة. يجعل ذلك الليالي قصيرة لهما، مع فترات نوم قليلة جداً لها، لكنها رأت أنه من المهم فعل ذلك. وبين الحين والآخر، يذهبان بعيداً لتمضية عطلة نهاية أسبوع. هذا أفضل ما يمكنهما فعله.

في الرابع عشر من شباط كان قد مرّ على تواعدهما شهران ونصف، وحجز تشارلز طاولة لهما في مطعم **لا غرونوي**. إنه مطعمهما المفضل للعشاء، ويطلقان عليه اسم الكافتيريا الخاصة بهما ويصطحبها إلى هناك مرة على الأقل كل أسبوع. بات يشارك بانتظام في عشائهم العائلي ليلة الأحد، حتى إنه يطهو لهم الطعام بين الحين والآخر.

تأثرت ماكسين حين تلقت منه دزينتين من الورود الحمراء في عيادتها يوم الرابع عشر من شباط. كتب على البطاقة ببساطة «أحبك. تشارلز». إنه رجل لطيف جداً. أحضرتها سكرتيرتها لها وهي تبتسم. إنها تحب تشارلز هي الأخرى. وارتدت ماكسين فستاناً أحمر جديداً لتناول العشاء معه تلك الليلة. قال لها إنها تبدو رائعة حين جاء لاصطحابها، وابتسم سام حين قبّلها تشارلز عند وصوله، لكنهم أصبحوا معتادين على ذلك الآن.

كانت سهرة مثالية، وصعد تشارلز معها إلى المنزل بعد ذلك. سكبت له كوباً من الشراب، وجلسا في غرفة الجلوس، مثلما يفعلان غالباً، يتحدثان عما يجري في حياتهما. إنه مفتون بعملها، وبعد اللقاءات المدرسية الأخيرة، يفترض أن تتحدث أمام الكونغرس مجدداً. سيذهب معها هذه المرة. أخبرها أنه فخور بها، ثم اقترب منها وأمسك بيدها. كان الأولاد نياماً جميعاً.

قال بلطافة: «أحبك، ماكسين». فابتسمت له. لقد تخطّت هذا الحاجز أخيراً هي الأخرى، خصوصاً بعدما شعرت أنه يبذل جهداً حقيقياً مع أولادها.

«وأنا أحبك أيضاً تشارلز. شكراً على يوم الرابع عشر من شباط الرائع». لم تعش مثل هذا اليوم منذ أعوام. علاقتهما مثالية بالنسبة إليها. ليست علاقة مبالغاً فيها، فهو لا يحتكر وقتها، وتستطيع الاعتماد على رؤيته مرات عدة في الأسبوع. يبقى لديها الكثير من الوقت لعملها وأولادها. إنه تماماً ما تريده.

قال بهدوء: «كان الشهران الأخيران رائعين، الأفضل في حياتي حسبما أظن». إنه يتشارك معها أموراً أكثر من تلك التي تشاركها مع زوجته طوال واحد وعشرين عاماً. أدرك منذ وقت طويل أن ماكسين هي المرأة التي انتظرها طوال حياته. لقد حسم أمره خلال الأسبوعين الماضيين، وسيتشارك أفكاره معها الليلة.

«وهما رائعان بالنسبة إليّ أيضاً»، قالت فيما انحنت وقبّلته. تركا الأنوار مطفأة في غرفة الجلوس، بحيث كان الجو مريحاً ورومنسياً بهذه الطريقة، واستطاعت تذوّق طعم الشراب عن شفتيه.

«أريد تمضية المزيد من الوقت معك، ماكسين. نحتاج إلى المزيد، لا يمكنك الاستمرار في النهوض عند الساعة الرابعة فجراً حين نمضي الليل معاً». في الواقع، قررا ألا يفعلا ذلك هذه الليلة لأنها ستعاين مرضى باكراً في اليوم التالي، وكذلك هو. عند الإصغاء إليه، خافت فجأة من رغبته بالانتقال إلى منزلها. وعرفت جيداً أن هذا سيولّد صدمة عند أولادها. لقد اعتادوا أخيراً على مواعدتها له. لكن العيش مع بعضهما سيكون كثيراً بالنسبة إليهم، وليس هذا أسلوبها. تحب أن تكون لديها شقتها، ولديه هو شقته.

قالت بهدوء: «أظن أن الوضع مناسب في الوقت الحاضر». فهزّ رأسه.

«ليس بالنسبة إليّ. ليس على المدى الطويل. لا أظن أن أياً منا يحب أسلوب المواعدة، ماكسين. وأظن أننا كبيران كفاية لنعرف ما نريده ومتى يكون ذلك صحيحاً». فتحت عينيها فيما استمعت إليه. لا تعرف ماذا تقول،

أو حتى ماذا يقول هو لها. «عرفت الأمر معك على الفور... نحن مثل توأمين... كلانا طبيبان. لدينا الآراء نفسها بشأن العديد من الأمور. أحب صحبتك. أصبحت معتاداً على أولادك... ماكسين... هل تتزوجينني؟». شهقت فجأة لما قاله، وصمتت لدقيقة طويلة فيما انتظرها، وهو ينظر إليها في الضوء النافذ إلى الغرفة من الشارع. لاحظ الخوف في عينيها الكبيرتين. «ستكون الأمور على ما يرام. أعدك. أعرف أن هذا صحيح». لم تكن واثقة مثله. الزواج هو إلى الأبد. ظنت أنه سيكون كذلك مع بلايك أيضاً، ولم يحصل. كيف يمكنها التأكد مع تشارلز الآن؟

«الآن؟ الوقت باكر جداً، تشارلز... مضى شهران فقط».

صحح لها: «شهران ونصف، أظن أننا نعرف أن هذا مناسب». تعرف ذلك هي الأخرى، لكن حتى لو كان كذلك، لا يزال الوقت باكراً جداً بالنسبة إلى أولادها. إنها أكيدة من ذلك. لا تستطيع إخبارهم بأنها ستتزوج به. ليس بعد. سيجن جنونهم.

قالت بهدوء: «أظن أن الأولاد يحتاجون إلى المزيد من الوقت، ونحن أيضاً. إلى الأبد هو وقت طويل، ولا يريد أي منا ارتكاب خطأ. لقد فعلنا ذلك قبلاً».

قال بهدوء: «لكننا لا نريد أن ننتظر إلى الأبد أيضاً. أريد أن أعيش معك، بصفتي زوجك». هذا ما ترغب به العديد من النساء، رجل يعرض الزواج خلال أشهر، وهو جدي في ذلك. وعرفت أن تشارلز جدي. لكن يجب أن تكون جدية هي الأخرى، وليست مستعدة بعد. «ماذا تريدين أن تفعلي؟».

إنها تفكر بسرعة. تفاجأت حين أدركت أنها لا تريد خذله، لكنها ليست مستعدة للزواج به بعد. يجب أن تتأكد. «أود التريث في إخبار الأولاد حتى شهر يونيو. تكون قد مضت ستة أشهر على بداية علاقتنا. هذا مقبول. يكونون قد انتهوا من المدرسة حينها، وإذا أصيبوا بصدمة، يمكنهم التكيف معها خلال الصيف. لا يزال الوقت مبكراً لإخبارهم الآن».

بـدا خائـب الأمل قليلاً، لكنه مـدرك تماماً أنها لم تخذله، وسُرّ كثيراً بذلـك. كان خائفـاً مـن هـذا. «ومتى تتـزوج؟». حبس أنفاسـه، منتظراً الجواب.

«أغسطس؟ يعطيهم ذلك شهرين للاعتياد على الفكرة. وهو وقت كافٍ للتكيف، وإنما غير كافٍ تماماً لاستيعاب المسألة. وهذا وقت جيد لنا أيضاً، قبل أن يعودوا إلى المدرسة».

«هـل يتمحـور كل شيء في حياتك حـول أولادك، ماكسين؟ أما من شيء لك أنت أو لنا؟».

قالـت بنبـرة اعتذار: «لا أعتقد، لكن من المهم أن يشعروا بالارتياح حيـال ذلـك، وإلا سيصبـح الأمـر أصعـب علينا»، خصوصـاً عليه هو إذا عارضـوا. خشيـت أن يبقـوا معارضين، حتى في شهر يونيو. عرفت أنهم لـن يتحمسـوا للأمر. فبالكاد تقبّلـوه، ولا يخطر في بالهم أبداً أنها ستتزوج مجـدداً. توقفـوا عـن القلق بشـأن ذلك منذ البداية، حيـن طمأنتهم بأنها لن تفعـل، وكانـت تعتقـد ذلك حينها. وستقلـب الآن كل شيء رأساً على عقب بهذا الإعلان. «أريد أن يكون أولادي سعداء أيضاً».

قال بصرامة: «سيكونون هكذا في النهاية، حين يعتادون على الفكرة، أعتقد أنني أستطيع انتظار الزفاف حتى شهر أغسطس، وإخبارهم في شهر يونيـو. كنـت أتمنـى لو نستطيع إخبار الناس على الفور». ابتسم لها. «هذا مثير جداً. لكنني أقبل الانتظار!». شدّها بالقرب منه حينها، واستطاع سماع قلبها يخفق. كانت تشعر بالخوف والحماسة في الوقت نفسه. إنها تحبه، لكن هـذا مختلـف كثيـراً عن الشعور الذي عاشته مـع بلايك. لكن مرة جديدة، أصبحـت هـي وتشارلـز أكبر سناً، وهذا منطقي أكثـر. تشارلز هو الرجل الصلب والموثوق به الذي أرادته دوماً، وليس رجلاً مجنوناً مثل بلايك، مهمـا كان جذّابـاً، وإنما لا تستطيـع أبداً الاعتماد عليه. تشارلز ليس نذلاً، وإنما هو رجل. وكان طلبه منطقياً، حتى لو كان مفاجئاً. فقد صُدمت حين سألها.

بـدت كل الأمـور مستعجلـة جـداً بالنسبة إلى ماكسيـن، لكنها وافقت معـه. فـي عمرهما، يعرفان ماذا ينفع ومـاذا يريدان. فلِمَ تبديد المزيد من الوقت؟.

همست له «أحبك». وقبّلها.

قال لها بعد ذلك: «وأنا أحبك أيضاً، أين تريدين أن نتزوج؟».

«مـاذا عـن منزلـي فـي ساوثامبتون؟». خطر فـي بالها حين طرح السؤال. «إنه كبير كفاية لنقيم فيه جميعاً، ويمكننا وضع خيم في الحديقة». فهما يعرفان معاً عدداً كبيراً من الأشخاص.

«يبدو هذا مثالياً». ذهبا إلى هناك لتمضية عطلة نهاية الأسبوع مرتين، وأحـب المكان. لكنـه بدا قلقاً فجأة. «هل علينـا اصطحاب الأولاد معنا في شهر العسل؟»، سأل، وضحكت هي وهزّت رأسها.

«لا، لن نفعل». ثم خطرت في بالها فكرة. «قد يعيرنا بلايك يخته. سيكون رائعاً لشهر العسل». قطّب تشارلز حاجبيه حين قالت ذلك.

قال بصرامة: «لا أريد تمضية شهر عسلي على يخت زوجك السابق، مهما كان كبيراً. ستكونين زوجتي الآن ولست زوجته». لقد غار من بلايك منذ البداية، وتراجعت ماكسين عن فكرتها على الفور.

«أنا آسفة. هذا غباء مني».

قـال بطريقـة حالمة: «ربما البندقية». لطالما أحب المدينة. لم تقترح عليـه استعـارة قصـر بلايك هناك. لا شك فـي أن تشارلز نسي وجود ذلك القصر.

«أو باريـس، قـد يكون ذلك رومنسياً». إنها إحدى المدن القليلة التي لا يملك فيها بلايك منزلاً.

«سنتدبـر الأمـر. أمامنا وقت حتى شهر يونيو لإعداد الخطط». أراد أن يقـدم لهـا خاتـم خطوبة أيضاً، وأرادها أن تساعده على انتقائه. لكنها لا تستطيـع وضعـه في إصبعها قبل شهر يونيـو، لأنهما لن يخبرا الأولاد قبل ذلك. أسف على ذلك. لكنه أدرك أن شهر أغسطس سيحين قبل أن يستوعبا

حتى ذلك. خلال ستة أشهر، ستصبح السيدة تشارلز ويست. أحب ذلك، وهي أيضاً. ماكسين ويست. إنه اسم جميل.

جلسا وتهامسا، وأعدا الخطط. اتفقا على بيع شقته، والانتقال للعيش معها. نظراً إلى كون شقته صغيرة وحجم عائلتها كبيراً، يبدو هذا الترتيب المنطقي الوحيد. بعدما تحدثا، تمنت لو أنهما يستطيعان الذهاب إلى السرير. قام على سريرها، يغط في نوم عميق. وافقت على الذهاب إلى شقته في الليلة التالية، «لإتمام الصفقة» مثلما قال. بالكاد يستطيعان الانتظار الآن لتمضية الليل كله معاً، والنهوض صباحاً تحت سقف واحد. وسيكون كل الذين تحبهم تحت سقف واحد. بدا هذا رائعاً لها.

قبّلا بعضهما لوقت طويل قبل أن يغادر. كان لطيفاً وحنوناً ورقيقاً. بينما دخل المصعد، همس لها «عمت مساء سيدة ويست». ابتسمت له ابتسامة عريضة، وهمست له «أحبك». وفيما أقفلت الباب وتوجهت إلى غرفة نومها، راجعت الأمور في عقلها. لم يكن هذا على الإطلاق ما توقعته، لكن بعد أن اتخذا القرار الآن، تبدو لها الخطة رائعة. أملت فقط أن يتقبل الأولاد الخبر جيداً. سعدت كثيراً لأن تشارلز وافق على الانتظار. أحبت الفكرة كلها. إنه الرجل الذي كان يجدر بها الزواج به منذ البداية. لكن لو فعلت، لما كانت رزقت بالأولاد الرائعين الذين رزقت بهم. إذاً، في النهاية، حصل كل شيء كما يجب. ولديها تشارلز الآن. هذا كل ما يهم.

الفصل الرابع عشر

بالرغم من أن تشارلز وماكسين لم يخبرا الأولاد بخططهما، وأبقيا الأمر سراً في الوقت الراهن، فإن الاتفاق بينهما غيّر كل الأمور بطريقة ما. أصبح تشارلز فجأة يفرض جواً سلطوياً عند تواجده مع ماكسين أو الأولاد، واستوعبت دافني الموضوع بسرعة.

«من يظن نفسه؟»، تذمرت في أحد الأيام حين طلب من جاك نزع حذائه وتبديل قميصه قبل أن يخرجوا لتناول العشاء. لاحظت ماكسين ذلك أيضاً، لكنها كانت مسرورة لأن تشارلز يحاول التكيف وأخذ مكانه، ولو بطريقة غريبة. عرفت أن نواياه جيدة. إنها خطوة كبيرة بالنسبة إليه أن يكون زوج أم لثلاثة أولاد.

قالت ماكسين لدافني: «نيته طيبة». وهي تعتذر على تصرفه أكثر مما ترغب ابنتها.

«لا، ليس كذلك. إنه متعجرف. لا يقول أبي أبداً هذا. لا يبالي لما يرتديه جاك قبل الخروج لتناول العشاء، أو إذا انتعل حذاءه في السرير».

اقترحت ماكسين «قد لا يكون هذا أمراً جيداً، ربما نحتاج إلى المزيد من الأوامر هنا». كان تشارلز مرتباً جداً، ويحب كل شيء في مكانه وتحت السيطرة. إنه أحد الأشياء المشتركة بينهما. أما بلايك فكان النقيض المقابل.

«ما هذا؟! مخيم هتلر للشباب؟»، صرخت دافني في وجهها وخرجت مسرعة. سُرّت ماكسين لأنهما أجّلا إعلان خطوبتهما وزواجهما حتى الصيف المقبل، الأولاد ليسوا مستعدين لسماع ذلك بعد. تأمل أن يتقبلوا الموضوع شيئاً فشيئاً خلال الأشهر القليلة المقبلة.

كان شهر مارس ضاغطاً كثيراً بالنسبة إلى ماكسين. شاركت في محاضرتين في طرفي البلاد، واحدة في سان دييغو حول تأثيرات الأحداث الوطنية الصادمة في الأولاد ما دون الثانية عشرة من العمر، حيث كانت المحاضرة الأساسية. وواحدة ثانية حول الانتحار عند المراهقين في واشنطن العاصمة. كانت ماكسين عضواً في هيئة افتتحت المؤتمر، وألقت محاضرة منفصلة خاصة بها في اليوم الثاني للمؤتمر. ثم توجب عليها العودة بسرعة إلى نيويورك لتمضية إجازة الربيع مع أولادها. أملت في إقناع بلايك برؤيتهم خلال عطلة الربيع، لكنه قال إنه في المغرب، يعمل على المنزل الجديد، وهو غارق حتى أذنيه في أعمال الترميم والخطط، ومشغول جداً لأخذ إجازة. يخيب أمل أولادها وتشعر بالتوتر حين تأخذ إجازة لتمضية أسبوع معهم. تهتم تيلما بمرضاها حين تفعل ذلك.

اصطحبت ماكسين أولادها إلى التزلج في نيوهمبشاير لمدة أسبوع خلال الإجازة، ولسوء الحظ، لم يستطع تشارلز مرافقتهم. إنه مشغول في مهنته، ولذلك ذهبت ماكسين إلى نيوهمبشاير مع أولادها، وصديق واحد لكل منهم، فكانوا مجموعة كبيرة. حين أخبرت تشارلز بما تفعله، اعترف لها أنه مرتاح كثيراً لانشغاله الكبير وعدم الانضمام إليهم. ستة أولاد هم أكثر مما تستطيع أعصابه التحمل. ثلاثة أولاد يبدون كثيرين بالنسبة إليه. ستة أولاد يعني الجنون. أحبت ماكسين ذلك، واتصلت به من نيوهمبشاير مرات عدة في اليوم لإعطائه التقارير. وفي اليوم الذي تلا عودتهم، غادرت للمشاركة في محاضرة في واشنطن العاصمة. جاء تشارلز لزيارتها لليلة واحدة، أخيراً التقيا في سريرها عند منتصف الليل. كان أسبوعاً ضاغطاً كثيراً.

يشعر بالقليل من التوتر حين تكون مشغولة كثيراً، لكنه يتفهم مبدئياً. إنها امرأة صاحبة مهنة طبية متطلّبة، مع ثلاثة أولاد، يتوجب عليها تربيتهم لوحدها، من دون أي مساعدة أو توجيه من بلايك. لا تستطيع حتى الاتصال به في معظم الأوقات، لذلك لم تعد تحاول ذلك، وباتت تتخذ القرارات بمفردها.

كان بلايك منهمكاً جداً في مغامرة منزله الأخير، وحياة المرح، فيما تعمل هي بكدّ وتهتم بأولادهما. الشخص الوحيد الذي يساعدها هو زيلدا، ولا أحد غيرها. شعرت ماكسين بامتنان كبير لها وبأنها تدين لها بالكثير. لا يعرف تشارلز ولا بلايك مقدار الجهد اللازم لتسير الحياة على ما يرام ويكون أولادها في مظهر جيد. إن اقتراح تشارلز بين الحين والآخر، بضرورة أخذها شهر إجازة، للاسترخاء والتخطيط للزفاف، جعلها تضحك. ماذا؟ كيف؟ متى؟ أبداً. كانت غارقة في عملها، وعاد بلايك ليصبح الرجل غير المرئي لأولاده. لقد كان رائعاً معهم في أسبن. لكنه لا ينوي رؤيتهم مجدداً قبل يوليو أو أغسطس. سيتوجب عليهم الانتظار لوقت طويل، ويبقى كل شيء على عاتق ماكسين حتى ذلك الحين.

مع حلول فصل الربيع والطقس الدافئ، باتت تعاين المزيد والمزيد من الأولاد الواقعين في محنة. يستجيب مرضاها دوماً بصورة سلبية للربيع والخريف، ولا سيما أشهر مارس وأبريل ومايو ويونيو وسبتمبر. في الربيع، يبدأ كل الأشخاص الذين يعانون من كآبة الشتاء بالشعور بالتحسن، فالطقس يصبح أكثر دفئاً، والشمس تشرق، والأزهار تتفتح، والفرح في الأجواء، ويشعر المرضى الحقيقيون بعجز أكثر من أي وقت مضى. يشعرون كأنهم مثل الصخور على الشاطئ بعد انحسار المدّ، ويغرقون في ظلمتهم، وبؤسهم، ويأسهم. إنه وقت خطير للأولاد المهددين بالانتحار.

شعرت بالحزن الكبير بالرغم من كل جهودها حين انتحر اثنان من مرضاها في شهر مارس، والثالث في شهر أبريل. إنه وقت مريع بالنسبة إليها، وخسرت تيلما أحد مرضاها أيضاً، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره عملت معه طوال أربع سنوات، وتحطّم قلبها على العائلة، وحزنت على الشاب. سبتمبر هو أيضاً شهر خطر، وأهم وقت لانتحار الصبيان المراهقين إحصائياً.

تحدثت تيلما وماكسين عن مرضاهما الذين ماتوا خلال تناولهما الغداء، وأبلغتها ماكسين خبر خطوبتها السرية. أسعدها الخبر كثيراً، وبدا مثل بارقة أمل في عالم ماكسين.

قالت تيلما وهي تبدو متحمسة لها: «واو! هذا خبر رائع!». إنه موضوع أكثر مرحاً من السبب الذي جمعهما على الغداء. «كيف سيتفاعل أولادك برأيك». أخبرتها ماكسين أنها لن تبلغهم قبل شهر يونيو، فيما الزواج مخطط لشهر أغسطس.

«أتمنى أن يكونوا مستعدين لسماع الخبر حينها. يحلّ يونيو بعد شهرين فقط، لكن يبدو أنهم يتكيفون مع تشارلز شيئاً فشيئاً. يحبون مبدئياً الأمور مثلما هي، أن أكون أنا لهم، من دون وجود رجل يشاركني معهم أو يعرقل سير حياتهم». بدت ماكسين قلقة فيما قالت ذلك، وابتسمت تيلما.

«سيجعلهم ذلك أولاداً لطفاء ومكتفين وطبيعيين. فمن الجيد بالنسبة إليهم أن تكوني لهم فقط، من دون رجل ينافسهم على لفت انتباهك».

قالت ماكسين وهي تبدو متفائلة: «أظن أن تشارلز سيكون إضافة رائعة إلى عائلتنا. إنه الرجل الذي احتجنا إليه على الدوام».

قالت تيلما بحكمة: «سيجعل ذلك الأمر أصعب عليهم، لو كان أحمق، لاستطاعوا جعله سخيفاً في نظرك، ولتخلّصوا منه، وكذلك أنت. لكنه مرشح منطقي ورجل محترم. ويجعله ذلك العدو العام رقم واحد برأيهم، لفترة معينة على الأقل. شدّي أحزمتك، ماكس، لأن شيئاً ما يشعرني أنك ستواجهين بعض المشاكل حين تخبرينهم. لكنهم سيتخطون المسألة. أنا سعيدة فعلاً لأجلك»، قالت تيلما مبتسمة ابتسامة عريضة.

«شكراً، وأنا أيضاً». ابتسمت لها ماكسين وهي لا تزال قلقة بشأن أولادها. «أظن أنك محقة بشأن المشاكل. لا أتطلع كثيراً إلى ذلك، ولهذا أجّلنا إخبارهم قدر المستطاع». لكن شهر يونيو بات على الأبواب، بعد شهرين فقط. كانت ماكسين قلقة بشأن الإعلان الكبير. وفي الوقت الراهن، يجعل ذلك مشاريع زفافهما متوترة قليلاً، ومزة وحلوة نوعاً ما، أو غير حقيقية إذا جاز التعبير، إلى حين إخبار الأولاد.

ذهبت وتشارلز إلى متاجر كارتييه واختارا خاتماً في شهر أبريل، طلبا تعديل مقاسه، وقدّمه لها تشارلز بصورة رسمية خلال العشاء، لكنها

عرفا أنها لا تستطيع وضعه في إصبعها الآن. احتفظت به في درج مقفل في مكتبها في المنزل، وكانت تخرجه لتنظر إليه، وتجرّبه كل ليلة. أحبته. إنه جميل، ولمعت فيه الماسة بطريقة لا تصدق. بالكاد تستطيع الانتظار لوضعه في إصبعها. في الحقيقة، إن الحصول على الخاتم جعل مشاريعهما أكثر واقعية. كما أنهما حدّدا موعداً مع متعهد تقديم الطعام في ساوثامبتون في شهر أغسطس. زفافهما بعد أربعة أشهر فقط. وتريد البحث عن فستان. تريد إخبار بلايك أيضاً، وأهلها، ولكن ليس قبل إخبار الأولاد. تشعر أنها تدين لهم بذلك.

أمضت وتشارلز والأولاد عطلة الفصح في ساوثامبتون، وكان وقتاً رائعاً. تهامس تشارلز وماكسين عن خطط زواجهما في الليل، وضحكا مثل ولدين صغيرين، وقاما بنزهات رومنسية على الشاطئ يداً بيد فيما حرّكت دافني عينيها تعبيراً عن انزعاجها. كان شهر مايو حين أجرت ماكسين حديثاً جدياً على نحو غير متوقع مع زيلدا. واجهت يوماً سيئاً. ماتت صديقة لها في حادث سير، وللمرة الأولى في حياتها، تحدثت بحزن عن أسفها لعدم إنجابها الأولاد. تعاطفت معها ماكسين، وتصوّرت أن المسألة ستمرّ. إنه مجرد يوم سيئ.

قالت ماكسين وهي تحاول بثّ الفرح: «لم يفت الأوان بعد، لا يزال بإمكانك التعرف إلى شخص ما وإنجاب طفل». تأخر الوقت، لكنه لم يفت تماماً بالنسبة إليها. «تنجب النساء الأطفال في وقت متأخر عمّا كنّ يفعلن قبلاً، مع القليل من المساعدة». تحدثت وتشارلز أيضاً عن الموضوع، وأحبت ماكسين ذلك، لكن تشارلز رأى أن ثلاثة أولاد هم كفاية. شعر أنه أصبح كبيراً جداً لينجب أولاداً، الأمر الذي اعتبرته ماكسين مؤسفاً. كانت تودّ إنجاب طفل آخر، لو رغب هو بذلك. لكنه لا يرغب بذلك.

قالت زيلدا بطريقة عملية: «أظن أنني أفضل التكفل بطفل، اعتنيت بأولاد الأشخاص الآخرين طوال حياتي. ليس لديّ مشكلة في ذلك. أحبهم كأنهم أولادي». ابتسمت ماكسين وعانقتها. عرفت أن هذا صحيح. «يجدر بي الاستفسار ربما عن التكفل في وقت ما»، تابعت زيلدا بطريقة

غامضة، فأومأت ماكسين برأسها. إنه أحد الأمور التي يقولها الأشخاص حتى يشعروا بالتحسن، لكنهم لا يقصدون بالضرورة ما يقولونه. كانت ماكسين واثقة تقريباً من ذلك.

لا تعرف زيلدا أي شيء عن زواج ماكسين الوشيك. لكنهما ينويان إخبار الأولاد بعد ثلاثة أسابيع حين ينتهون من المدرسة. كانت ماكسين قلقة من ذلك، وإنما متحمسة أيضاً. لقد حان الوقت لمشاركة الخبر المهم معهم. لم تذكر زيلدا فكرة التكفل مجدداً، ونسيت ماكسين الأمر. افترضت أن زيلدا نسيت أيضاً.

كان آخر يوم في المدرسة، في بداية شهر يونيو، حين تلقّت ماكسين اتصالاً من المدرسة. كانت واثقة من أنه مجرد اتصال روتيني من نوع ما. يفترض أن يعود الأولاد إلى المنزل بعد ساعة، وهي تعاين المرضى في عيادتها. كان الاتصال متعلقاً بسام. لقد صدمته سيارة بينما كان يعبر الشارع للذهاب إلى السيارة التي ستقلّه إلى المنزل. تم نقله إلى مستشفى نيويورك بواسطة سيارة الإسعاف. ذهبت معه إحدى المعلمات.

«آه، يا الله، هل هو بخير؟»، وأي خير هذا وقد تم نقله بواسطة سيارة الإسعاف؟ كانت ماكسين مذعورة.

«يعتقدون أن ساقه مكسورة، دكتورة ويليامز... أنا آسفة جداً. كانت فوضى كبيرة في آخر يوم. صدم رأسه أيضاً، لكنه ظلّ واعياً حين أخذوه. إنه ولد شجاع». شجاع؟ اللعنة عليهم. كيف يمكن أن يسمحوا بحصول ذلك لابنها؟ كانت ترتجف حين أقفلت الخط، وعادت مسرعة إلى مكتبها. إنها تعاين فتىً عمره سبعة عشر عاماً، يزورها منذ عامين، وقد تلقّت الاتصال من مكتب السكرتيرة. شرحت لمريضها ما حصل، وأخبرها عن مدى أسفه. اعتذرت عن إنهاء الجلسة معه، وطلبت من سكرتيرتها إلغاء بقية المواعيد خلال بعد الظهر. أمسكت بحقيبة يدها، وأدركت أنه يجدر بها الاتصال ببلايك أيضاً بالرغم من أنه لا يستطيع فعل أي شيء. لكن سام هو ابنه أيضاً. اتصلت بمنزله في لندن، وقال لها كبير الخدم إنه في المغرب وقد يكون في الفيلا في لا مامونيا. حين اتصلت بالفندق

في مراكش، أخذوا الرسالة منها لكنهم رفضوا تأكيد وجوده هناك. هاتفه الخلوي محوّل إلى المجيب الصوتي. شعرت بعصبية شديدة، ثم اتصلت بتشارلز. قال إنه سيوافيها إلى غرفة الطوارئ. بعد ذلك، خرجت مسرعة من الباب.

كان من السهل العثور على سام في غرفة الطوارئ. يعاني من كسرين في الذراع والساق، مع ضلعين مكسورين أيضاً، وارتجاج في الدماغ، وبدا وكأنه في صدمة. لم يكن حتى يبكي. كان تشارلز رائعاً معه. دخل غرفة العمليات مع سام حين قاموا بتجبير ساقه وذراعه. لا يستطيعون فعل أي شيء في الضلعين باستثناء لفّ صدره، وكان ارتجاج الدماغ خفيفاً لحسن الحظ. كانت ماكسين تحتدم غيظاً فيما انتظرت. في وقت لاحق من بعد الظهر، سمحوا لها بإعادته إلى المنزل. لا يزال تشارلز معها، وكان سام يمسك بيدي كليهما. انفطر قلبها لرؤيته على هذه الحالة، ووضعاه في سريرها. أعطياه مسكّنات للألم وكان مترنحاً جداً. تأثر جاك ودافني كثيراً حين شاهداه. لكنه بخير، وعلى قيد الحياة، وستتم معالجة كل الإصابات. اتصلت الأم التي كانت ستعيده في سيارتها إلى المنزل، واعتذرت كثيراً، وقالت إنهم لم يروا أبداً السيارة قادمة. كان السائق منهاراً أيضاً. لكن ليس بقدر ماكسين. شعرت بالامتنان لأن الوضع ليس أسوأ.

بقي تشارلز في المنزل، ونام على الأريكة، وساعدها على مراقبة سام. ألغيا مواعيد مرضاهما لليوم التالي، واستمرت زيلدا في زيارة الغرفة للاطمئنان على سام أيضاً. ذهبت ماكسين إلى المطبخ لتحضير كوب شاي في منتصف الليل. إنه دورها مع سام، وصادفت دافني التي حدّقت إليها.

«لماذا ينام هنا؟»، سألت وهي تشير إلى تشارلز.

«لأنه يهتم بنا». كانت ماكسين متعبة، وليست في مزاج لتقبل تعليقات دافني. «كان رائعاً مع سام في المستشفى. دخل غرفة العمليات معه».

«هل اتصلت بأبي؟»، سألت دافني بوضوح، وضاقت ماكسين ذرعاً.

«نعم، فعلت. إنه في المغرب ولا يستطيع أحد العثور عليه. لم يرد على اتصالاتي. إذاً، ما الجديد؟ هل يجيب ذلك عن سؤالك؟». بدت دافني مجروحة حينها، وتوجهت بسرعة إلى غرفتها. لا تزال تريد أن يكون والدها شيئاً ليس عليه، ولن يكونه أبداً. جميعهم يريدون ذلك. جاك يريد أن يكون والده بطلاً، لكنه ليس كذلك. إنه مجرد رجل. والجميع، بمن فيهم ماكسين، يريدونه أن يكون مسؤولاً، وفي مكان يستطيعون العثور عليه. لكنه ليس كذلك أبداً. ولم تكن هذه المرة مختلفة. لهذا السبب تحديداً تطلّقا.

احتاجت ماكسين إلى خمسة أيام للعثور عليه في المغرب. قال إنه حصل زلزال هناك، زلزال كبير. تذكرت ماكسين فجأة سماعها هذا الخبر. لكن كل ما ركّزت عليه خلال الأسبوع الماضي كان سام. كان يتألم كثيراً من ضلعيه، وعانى من الصداع أياماً عدة نتيجة ارتجاج الدماغ. لم تعد الذراع والساق في وضع سيئ جداً نتيجة وضعهما في جبيرة. وبدا بلايك منزعجاً حين أخبرته.

«كان جميلاً لو تواجدت في مكان ما حيث أستطيع الاتصال بك. هذا سخيف بلايك. إذا حصل أي شيء، فلا أستطيع أبداً العثور عليك». لم تكن تمزح بل كانت غاضبة جداً منه.

«أنا آسف فعلاً، ماكس. تعطّلت كل خطوط الهاتف. لم يعمل هاتفي الخلوي وبريدي الإلكتروني إلا اليوم. كان زلزالاً كبيراً، وقُتل الكثير من الأشخاص في قرى غير بعيدة من هنا. كنت أحاول المساعدة عبر تنظيم جسور جوية للمساعدات».

«ومنذ متى تؤدي دور الطبيب؟». كانت غاضبة منه فعلاً. تواجد تشارلز لأجلها. وكالعادة، لم يفعل بلايك.

«إنهم يحتاجون إلى المساعدة. ثمة أشخاص يجوبون الشوارع من دون طعام والجثث منتشرة في كل مكان. انظري، هل تريدين أن أحضر لرؤية سام؟».

قالت وهي تهدأ: «لست بحاجة إلى ذلك. إنه بخير، لكن الوضع أخافنا جميعاً. خصوصاً هو. إنه نائم الآن، لكن عليك الاتصال به بعد بضع ساعات».

قال صادقاً: «أنا آسف، ماكس، لديك ما يكفي من الهموم لمواجهة هذا أيضاً».

«أنا بخير. كان تشارلز هنا».

قال بلايك بهدوء: «أنا مسرور لذلك». وأدركت أنه يبدو متعباً أيضاً. قد يكون فعلاً منهمكاً في شيء مفيد في المغرب، بالرغم من أنه يصعب تصديق ذلك. «سأتصل بسام لاحقاً. قبّليه بالنيابة عني».

«سأفعل».

بالفعل، اتصل بسام بعد بضع ساعات. تحمّس سام للتحدث إلى والده، وأخبره كل شيء. قال له إن تشارلز بقي معه في غرفة العمليات، وأمسك بيده. أخبر بلايك أن أمه كانت غاضبة وأن الطبيب لم يسمح لها بالدخول، وهذا ما حصل بالفعل. كاد يغمى عليها بسبب قلقها على ابنها. كان تشارلز بطل اليوم. ووعد بلايك بالمجيء لرؤية سام عما قريب. في ذلك الحين، كانت ماكسين قد قرأت كل شيء عن الزلزال في المغرب. كان زلزالاً كبيراً، تسبّب في تدمير قريتين بالكامل، ، وأدّى إلى مقتل كل من كان فيهما. ثمة أضرار كبيرة في المدن. كان بلايك يقول الحقيقة. لكنها لا تزال غاضبة لأنها لم تستطع الاتصال به لأجل ابنهما. هذا نموذجي في بلايك. لا يتغير أبداً. سيبقى نذلاً حتى نهاية حياته. أو وهماً على أي حال. الحمد لله أن لديها تشارلز.

بقي نائماً على الأريكة حتى نهاية الأسبوع، وكان موجوداً بالقرب منهم جميعاً كل ليلة بعد العمل، وكان طيباً جداً مع سام. اتفقا أن الوقت ملائم لمشاركة مشاريعهما مع الأولاد. حان الوقت. إنه شهر يونيو، والمدرسة انتهت.

جمعت ماكسين الجميع في المطبخ صباح يوم السبت. كان تشارلز

موجوداً معها، علماً أنها لم تقتنع تماماً بأنها فكرة جيدة، لكنه أراد أن يكون موجـوداً حيـن تخبرهـم، وشعرت أنها تدين له بذلـك. لقد أثبت عن حسن نواياه مع سام، ولا تستطيع صدّه الآن. يستطيع الأولاد التعبير عن آرائهم لاحقاً أمامها، إذا أرادوا قول أي شيء حول الموضوع.

بدت غامضة قليلاً في البداية، وتحدثت عن لطافة تشارلز معهم خلال الأشهـر القليلـة الماضية. نظرت إلى كل واحد من أولادها فيما قالت ذلك، كمـا لـو أنها تحـاول إقناعهم وكذلك تذكيرهم. لا تزال خائفة من رد فعلهم تجاه الخبر. ولم يبقَ بعدها أي شيء سوى زفّ الخبر.

«لـذا قررنـا أنا وتشارلز أن نتزوج في شهر أغسطس». ساد صمت رهيب في الغرفة من دون أي رد فعل على الإطلاق فيما حدّقوا جميعاً إلى أمهم. بدوا مثل التماثيل.

أضـاف تشارلـز «أنا أحب أمكم وأحبكم». وهو يبدو رسمياً أكثر مما يريـد. لكنـه لـم يفعل أي شيء مثل هذا من قبل، وكانوا مجموعة مروّعة. كانت زيلدا تحوم في الخلفية.

«هـل تمزحيـن؟». كانت دافنـي أول من تفاعـل، وأجابتها ماكسين بجدية.

«لا. نحن لا نمزح».

«بالكاد تعرفينه». تحدثت إلى أمها، وتجاهلت تشارلز.

«نحـن نتواعـد منذ سبعة أشهر تقريباً، ونعرف في عمرنا متى تكون الخطـوة الصحيحـة». كررت عبارات تشارلز، ونهضت دافني عن طاولة المطبـخ، وخرجـت من المطبخ من دون التفوه بـأي كلمة أخرى. سمعوا باب غرفتها يغلق بقوة بعد دقيقة.

سأل جاك «هل يعرف بابا؟».

أجابتـه أمـه «ليس بعد، أردنا إخباركم أولاً. سأخبر بعدها بابا والجدّ والجدة. لكنني أردت إبلاغكم أنتم أولاً».

قال جاك: «آه». ثم اختفى هو الآخر. لم يغلق باب غرفته بقوة وإنما

بهدوء، وانفطر قلب ماكسين. كان الأمر أصعب مما تصورت.

قال سام بهدوء وهو ينظر إليهما معاً: «أظن أن هذا جيد، كنت لطيفاً جـداً معـي في المستشفى، تشارلـز. أشكرك». إنه يتصرف بتهذيب، وبدا أقـل انزعاجـاً مـن الآخرين، لكنه لم يتحمس أيضـاً. عرف بسهولة أنه لن يستطيـع النـوم بجانب أمه بعد الآن. سيأخذ تشارلز مكانه. أزعجهم الأمر جميعـاً، بقـدر مـا هم معتبـون، إذ كانت حياتهم بخير قبـل تشارلز. «هل أستطيع مشاهدة التلفاز في غرفتك الآن؟»، سأل سام. لم يستفسر أي منهم عـن تفاصيـل الزفاف أو متى سيكون بالتحديد. لا يريدون أن يعرفوا. بعد برهة، غادر سام على عكازيه بعد أن أصبح يستعملهما جيداً. بقي تشارلز وماكسين لوحدهما في المطبخ، وتحدثت زيلدا عبر الباب.

قالـت بهـدوء: «تهانينا، سيعتادون على ذلك. إنه نوع من الصدمة. بدأت أشك في أن هذا ما يخطر في بالكما». ابتسمت، لكنها بدت حزينة هي الأخرى. إنـه تغير كبير بالنسبة إليهـم جميعاً، وهم معتادون على الأمور مثلما هي، ويحبونها بهذه الطريقة.

«لن يتغير أي شيء معك، زيلي»، طمأنتها ماكسين. «سنحتاج إليك، ربما أكثر». ابتسمت ماكسين.

«شكـراً. لا أعـرف مـاذا سأفعل بنفسي لو كنـت لا تريدينني». نظر إليهـا تشارلـز وابتسم. بدت له امـرأة لطيفة. بالرغم من أنه لا يحب فكرة مصادفتها في ثياب النوم في وقت متأخر من الليل حين ينتقل للعيش هنا. إنه يستعـد لحيـاة جديدة تماماً، مع زوجة وثلاثة أولاد ومربية داخل المنزل. أصبحـت خصوصيتـه شيئـاً من الماضي. لكنه لا يـزال يرى أن هذا جيد. «سيتكيّف الأولاد»، طمأنتهما زيلدا مجدداً. «إنهم يحتاجون فقط إلى بعض الوقت». أومأت ماكسين برأسها.

قالت ماكسين بنبرة تشجيعية: «كان يمكن أن تصبح الأمور أسوأ».

قـال تشارلـز وهو يبدو مثبط العزيمة: «ليـس كثيراً، كنت أتمنى أن يُسرّ بعضهم. ربما ليس دافني، لكن الصبيين على الأقل».

ذكرتـه ماكسين: «لا أحد يحب التغيير، وهذا تغيير كبير جداً بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلينا». انحنت وقبّلته، وابتسم لها بحزن فيما عادت زيلدا إلى غرفتها، وتركتهما لوحدهما.

قال لها: «أحبك، أنا آسف لأن أولادك انزعجوا».

«سيتخطون ذلك. سيضحكون يوماً على ذلك، مثل أول لقاء لنا».

قال وقد بدا قلقاً: «ربما هذا نذير شؤم».

قالت ماكسين: «لا... سيكون كل شيء رائعاً. سترى». وقبّلته مجدداً. وأمل تشارلز بصمت أن تكون محقة فيما أخذها بين ذراعيه. حزن لأن أولادها لم يفرحوا لأجلهما.

الفصل الخامس عشر

بقي الأولاد في غرفهم خلال الساعات التي تلت صدمة إعلان أمهم زواجها بتشارلز، وقرر تشارلز الذهاب إلى المنزل. لم ينم هناك منذ أيام عدة، ورأى أن الوقت جيد لترك ماكسين لوحدها مع أولادها. غادر، وهو لا يزال منزعجاً، وطمأنته ماكسين مجدداً بأنهم سيتكيفون، لكنه لم يكن واثقاً جداً. لن يتراجع، لكنه خائف. وكذلك الأولاد.

انهارت ماكسين على كرسي أمام طاولة المطبخ بعدما غادر، مع كوب شاي، وارتاحت لرؤية زيلدا تدخل المطبخ من غرفتها.

قالت لزيلدا: «ثمة شخص هنا على الأقل لا يزال يتحدث إليّ». بينما سكبت لنفسها كوب شاي أيضاً.

«الجو ساكن جداً هنا»، علّقت زيلدا فيما جلست أمام ماكسين. «سيمرّ بعض الوقت قبل أن تهدأ الأمور».

«أعرف. أكره إغضابهم، لكنني أظن أن هذا أمر جيد». أثبت تشارلز عن حسن نواياه تجاهها مرة جديدة في حادثة سام. كان كما أملت أن يكونه، والرجل الذي تحتاج إليه في حياتها منذ سنوات.

قالت زيلدا: «سيعتادون على الأمر، ليس الأمر سهلاً عليه أيضاً». وهي تشير إلى تشارلز. «تذكّري أنه لم يعش أبداً مع أولاد». أومأت ماكسين برأسها. لا يمكن الحصول على كل شيء. ولو كان لديه أولاد، ربما لما أحبوا الأمر. هذا أكثر بساطة.

حضّرت ماكسين العشاء للأولاد تلك الليلة، وترك الجميع طعامهم في أطباقهم. لم يستطع أي منهم الأكل، بما في ذلك ماكسين. لم تحب النظرة على وجوههم. بدت دافني وكأن شخصاً عزيزاً عليها قد مات.

«كيف يمكنك فعل ذلك أمي؟ إنه حقير». من الفظيع قول ذلك عنه، وتدخّل سام.

«لا، ليس كذلك. إنه لطيف معي. وكان لطيفاً معك لو لم تكوني مزعجة جداً معه». ما قاله صحيح، ولم تقل ذلك، لكن ماكسين وافقت. «ليس معتاداً على الأولاد». عرفوا جميعاً أن هذا صحيح.

قال جاك مع نظرة قلقة: «حين اصطحبني إلى لعبة كرة السلة، حاول إخباري أنه يجدر بي الذهاب إلى مدرسة داخلية، هل سترسلينني الآن أمي؟».

«طبعاً لا. ذهب تشارلز إلى مدرسة داخلية وأحبها، ولذلك يعتقد أنه يجدر بالجميع الذهاب. لن أرسلكم أبداً بعيداً».

علّقت دافني «هذا ما تقولينه الآن، انتظري حتى تتزوجي به ويقنعك».

«لن يقنعني في إرسالكم بعيداً عني. أنتم أولادي، ولستم أولاده».

قالت دافني وهي تحدّق إلى أمها: «إنه لا يتصرف بهذه الطريقة. يظن أنه يملك العالم».

«لا، ليس صحيحاً». دافعت عنه ماكسين، لكنها مسرورة لأن أولادها يعبّرون عما في داخلهم. على الأقل، خرج كل شيء إلى العلن بينهم. «إنه معتاد على إدارة حياته الخاصة، لكنه لن يدير حياتكم. لا يريد ذلك، وأنا لن أسمح له».

قال جاك بطريقة بديهية: «يكره بابا».

«لا أظن أن هذا صحيح أيضاً. قد يغار منه، لكنه لا يكرهه».

سألت دافني باهتمام «ماذا سيقول أبي برأيك؟ أراهن أنه سيحزن إذا تزوجت، أمي».

«لا أظن ذلك. لديه عشرة ملايين صديقة. هل لا يزال مع أرابيلا؟». لم تسمع أي شيء عنها في الآونة الأخيرة.

قالت دافني وقد بدت حزينة: «نعم، أتمنى فقط ألا يتزوجها. هذا كل

ما تحتاج إليه». بدوا جميعاً وكأن شيئاً مريعاً قد حصل. لم يكن الخبر جيداً بالنسبة إليهم. توقعت ذلك، لكن الأمر صعب على أي حال. وحده سام بدا وكأنه موافق، فهو يحب تشارلز أكثر من الآخرين.

اتصل تشارلز بها بعد العشاء للاطّلاع على حالهم. اشتاق إليها، لكنه ارتاح للعودة إلى المنزل. كان الأسبوع الماضي صعباً عليهم جميعاً. أولاً، حادث سام، والآن هذا. شعرت ماكسين أنها عالقة في الوسط.

قالت بطريقة منطقية: «إنهم بخير. يحتاجون فقط إلى بعض الوقت للاعتياد على الفكرة».

«إلى كم مثلاً؟ إلى عشرين سنة؟». كان غاضباً جداً من ذلك.

«لا. إنهم أولاد. امنحهم بضعة أسابيع. سيرقصون في عرسنا مثل أي شخص آخر».

«هل أخبرت بلايك؟».

«لا. سأتصل به لاحقاً. أردت إخبار الأولاد أولاً. وسأتصل بوالديّ غداً. سيتحمسان!». التقى بهما تشارلز مرة واحدة، وأحبهما كثيراً. يحب فكرة الارتباط بعائلة أطباء.

افتقد الأولاد إلى الحماسة لبقية فترة المساء. بقوا في غرفهم وشاهدوا الأفلام. عاد سام لينام في غرفته مجدداً. من المضحك التفكير، فيما استلقت على سريرها تلك الليلة، أنه خلال شهرين سيعيش تشارلز هنا. يصعب تخيل العيش مع أي كان بعد كل هذه السنوات. كان سام محقاً، فهو لن يتمكن من النوم في سريرها. ستشتاق إلى ذلك. فبالرغم من أنها تحب تشارلز، كان للخبر الجيد سلبيات على الجميع، حتى عليها. هذه هي الحياة. تقايض بأشياء من أجل أخرى. لكن يصعب إقناع الأولاد بذلك. وحتى هي أحياناً.

اتصلت ببلايك بعد منتصف الليل تقريباً، وكان هو في فترة الصباح بحسب التوقيت المحلّي للمغرب. بدا مشغولاً وشارد الذهن، واستطاعت سماع الآلات والصراخ في البعيد. كان من الصعب التحدث إليه.

قالت بصوت عالٍ: «أين أنت؟ ماذا تفعل؟».

«أنـا فـي الشارع، أحـاول المساعدة على ترتيـب الأمور. أحضرنا بالطائـرات بعضـ الجرافات لمساعدتهـم. لا يزالون يخرجون الأشخاص من تحت الأنقاض. ماكس، هناك أولاد يمشون هنا في الشوارع من دون أن يكون لديهم مكان يذهبون إليه. ماتت عائلات بكاملها، ولا يزال هناك أولاد يبحثـون عـن أهلهم. ثمة أشخاصـ مصابون يستلقون في كل مكان، لأن المستشفيات مليئة. لا يمكنك تخيل حقيقة المشهد».

قالـت بحـزن: «بلى، أستطيع، ذهبـت إلى أماكن كوارث طبيعية في عملي. ما من شيء أسوأ».

«ربمـا يجـدر بك الحضـور إلى هنا والمساعدة. إنهـم يحتاجون إلى أشخاصـ لنصحهـم بشـأن ما يجب فعله مع الأولاد، وكيفية معالجة الأمور بعـد ذلـك. أنت من يحتاجون إليه. هل فكّرت في الأمر؟»، قال وهو يبدو كئيبـاً. لا يـزال منزله غيـر مدمر، وكان باستطاعته المغادرة، لكنه أحب البلد والشعب كثيراً وأراد فعل كل ما في وسعه للمساعدة.

«سأفعل إذا طلب مني أحد ذلك. لا أستطيع السفر إلى هناك والشروع في نصحهم في ما يجب فعله».

«أستطيع أنا طلبك». أراد فعل كل ما هو ممكن.

«لا تكن سخيفاً. أفعل ذلك مجاناً لأجلك. لكنني أريد أن أعرف نوع النصيحة التي يريدونها مني. فما أفعله محدد جداً. إنه بشأن ضبط الصدمات عنـد الأولاد، علـى الفور وعلى المدى الطويل. أبلغني إذا كان في وسعي فعل أي شيء».

«سأفعل. كيف حال سام؟».

«إنــه بخيـر. يبلي بلاءً حسناً مع عكازين». ثم تذكرت سبب اتصالها بــه. لقـد صــرف انتباههـا لدقيقة بقصصــه عن أضرار الزلـزال، ورعب الأولاد اليتامـى الذيـن يجوبون الشوارع. قالت برزانة: «أريد أن أخبرك أمراً ما».

«عن حادث سام؟». بدا قلقاً. لم تسمعه أبداً كئيباً هكذا. لمرة واحدة،

كان يفكر في شخص غير نفسه.

«لا. عنـي أنـا. سأتـزوج. بتشارلـز ويسـت. سنتـزوج فـي شهر أغسطس». بقي صامتاً لدقيقة.

«هل غضب الأولاد؟». توقّع أن يكونوا غاضبين.

«نعـم». كانـت صريحـة معه. «إنهـم يحبون الأشيـاء مثلما هي. لا يريدون تغيير أي شيء».

قال بلايك وهو يبدو جدياً أكثر مما كان طوال سنوات: «هذا طبيعي. لن يحبوا الأمر لو تزوجت أنا أيضاً. أتمنى أن يكون جيداً لك، ماكس».

«إنه كذلك».

«إذاً، تهانينا». ضحك بعدها وبدا كعادته. «لم أتوقع أن يحصل ذلك بسرعة هكذا. لكنه جيد لك وللأولاد. لا يدركون ذلك بعد. اسمعي، سأتصل بـك حيـن أستطيع، عليّ الذهاب الآن. ثمـة الكثير من الأمور التي تجري هنا لأتحدث معك مطولاً. اعتني بنفسك وقبّلي الأولاد... وماكس، تهانينا مجدداً...». وقبل أن تتمكن حتى من شكره، كان قد أقفل الخط، فعادت إلى السرير. وهي تفكر في بلايك وسط الخراب بعد زلزال المغرب، وفي كل ما يفعله لمساعدة اليتامى والمصابين، وإزالة الركام، وإحضار الأدوية والطعام. إنه يفعل للمرة الأولى شيئاً أكثر من وهب ماله للأعمال الخيرية، إذ ينخرط في العمل بنفسه. لا يبدو مثل بلايك الذي تعرفه، وتساءلت ما إذا كان قد نضج أخيراً. إذا كان هذا صحيحاً، يكون الأوان قد فات.

اتصلت ماكسين بوالديها في الصباح، وأخيراً تحمس شخص ما للخبر. قـال والدهـا إنه مسرور وإنـه يحبه، وإن تشارلز هو الرجل الذي أمل أن تعثر عليه وتتزوجه يوماً ما. وهو مسرور لأنه طبيب هو الآخر. طلب منها تهنئة تشارلز، وقدّم لها أطيب تمنياته، وهذا ما كان يجب فعله. ثم أخذت أمها الاتصال، وسألتها عن كل ما يتعلق بالزفاف.

سألت، «هل تحمّس الأولاد؟». فيما ابتسمت ماكسين وهزّت رأسها. لم يستوعبوا الفكرة.

«ليس تماماً. إنه تغيير كبير بالنسبة إليهم».

«إنه رجل لطيف جداً. أنا واثقة من أنهم سيسرّون على المدى البعيد بزواجك به».

قالت وهي تبدو أقل ثقة من أمها: «أتمنى ذلك».

«عليكما أن تأتيا أنتما الاثنان لتناول العشاء قريباً».

قالت ماكسين: «نودّ ذلك». أرادت أن يتعرف تشارلز إليهما بصورة أفضل، خصوصاً وأنه ليس لديه عائلة.

من الجيد أن والديها كانا سعيدين لأجلهما، ووافقا على الفكرة. هذا مهم كثيراً بالنسبة إلى ماكسين، وأملت أن يكون الأمر هكذا بالنسبة إلى تشارلز أيضاً. سيفيد ذلك في موازنة قلّة حماسة الأولاد.

تناول تشارلز العشاء معها ومع الأولاد تلك الليلة، وكانت وجبة هادئة. لم يكن هناك تعليقات مزعجة، ولم يتفوه أحد بأي شيء فظ، لكنهم لم يكونوا سعداء أيضاً. اكتفوا بتناول العشاء ثم توجهوا إلى غرفهم. ليست هذه هي الطريقة التي تمناها تشارلز.

أخبرته ماكسين عن اتصالها الهاتفي بوالديها، وبدا مسروراً.

قال وهو يبدو مرتاحاً: «ثمة شخصان على الأقل يحبّانني هنا، يجدر بنا ربما دعوتهما إلى مطعم **لا غرونوي**».

«يريدان دعوتنا أولاً، وأظن أن هذا ضروري». تريده أن يعتاد على تقاليدهم، وتدخله إلى عائلتها.

بعد العشاء، خطرت في بالها فكرة. فتحت درج مكتبها، وأخرجت الخاتم الذي كانت تنتظر وضعه منذ أشهر. طلبت من تشارلز أن يضعه في إصبعها، وبدا متحمساً. لقد أصبح أخيراً ما يقولانه حقيقة فعلية. إنهما مخطوبان وسيتزوجان، مهما بدا أولادها غير سعداء حيال ذلك. إنه شيء رائع، وقبّلها تشارلز فيما نظرا معاً إلى الخاتم. لمع الخاتم بقوة تماماً مثل أملهما بالزواج، وحبهما لبعضهما الذي لم يخفّ أبداً في الأيام الأخيرة الصعبة. لم يتغير أي شيء. إنها واحدة من المشاكل التي عرفا أنهما

سيواجهانها. توقعت ماكسين ذلك أكثر منه. شعر بالسرور لأنها لا تزال تحب خاتمها، وتحبه. سيتزوجان بعد تسعة أسابيع.

قالت وهي تشعر بالحماسة والشباب مجدداً: «علينا الانهماك الآن في التحضير للزفاف». من الجميل عدم إبقاء الأمر سراً على أحد.

قال وهو يمازحها: «آه يا الله، كم سيكون فاخراً؟». لقد طلبت بطاقات الدعوة. ستجهز خلال ثلاثة أسابيع، لا يزال عليهما إعداد اللوائح النهائية، وتحدثت عن حجز لائحة الهدايا في متاجر تيفاني. «هل يفعل الناس ذلك في الزواج الثاني؟»، سألها وهو يبدو متفاجئاً. «ألسنا كبيرين قليلاً على ذلك؟».

قالت له وهي تبدو مستهترة: «طبعاً لا، لا يزال عليّ العثور على فستان». تحتاج إلى فستان لدافني أيضاً. خشيت ماكسين قليلاً أن ترفض حضور الزفاف، ولذلك لم تشأ الضغط عليها.

فيما أعدّا لوائح المدعوين تلك الليلة، اتفقا على دعوة ما لا يزيد عن مئتي شخص إلى الزفاف، مما يتركهما مع مئة وخمسين شخصاً تقريباً، وهذا ملائم لكل منهما. وقالت إنها تريد دعوة بلايك. توقف تشارلز عند ذلك.

«لا يمكنك دعوة زوجك السابق إلى الزفاف. ماذا لو دعيت زوجتي السابقة؟».

«يعود ذلك إليك، ولا مشكلة لديّ إذا كان هذا ما تريده. بالنسبة إليّ، بلايك هو العائلة، وسيغضب الأولاد كثيراً إذا لم يكن موجوداً». دمدم تشارلز فيما أصغى إلى ذلك.

«ليس هذا تعريفي للعائلة الموسعة». عرف حينها أنه وقع على مجموعة غير اعتيادية من الأشخاص. ما من شيء عادي أو طبيعي فيهم، ومن الأغرب الإدراك أنه يتزوج بالزوجة السابقة لبلايك ويليامز. أخرجهم ذلك عن المعيار التقليدي. أخيراً قال: «افعلي ما تريدينه، أشعر أننا نتخطى كل الحدود هنا. من أنا لأقول لك ما يجب فعله؟ أنا العريس

فقط». كان يمزح نوعاً ما، وبدا غريباً له أن تخبره زوجته المستقبلية بأن زوجها السابق سينزعج إذا لم تدعُه إلى زواجهما. شعر أنه لا يملك أي خيار سوى الاستسلام، إلا إذا أراد مواجهة معركة شرسة، وجعل أولاد زوجته يكرهونه أكثر مما يفعلون حالياً.

سأل تشارلز وهو يبدو قلقاً «لن يسلمني إياك، أليس كذلك؟».

«طبعاً لا، أيها السخيف. سيفعل أبي ذلك». بدا تشارلز مرتاحاً، وعرفت، من دون أن يعترف تشارلز بذلك، أنه واجه دوماً مشكلة مع بلايك. يصعب على أي رجل الشعور بأنه في مستواه. لو كان المال معيار النجاح الذي يستعمله معظم الأشخاص، لكان بلايك على رأس القمة. لكن هذا لا يغير حقيقة كونه شخصاً غير مسؤول، ولطالما كان كذلك، ولم يتواجد أبداً لأجل أولاده. من الممتع التواجد برفقة بلايك، ولطالما أحبته. لكن تشارلز هو الرجل الذي تريد أن تتزوج به، من دون أي شك.

قبّلها حين غادر تلك الليلة بعد أن ناقشا معظم التفاصيل. ضحكا بسرور فيما لمع خاتمها.

قال بهدوء: «تصبحين على خير، سيدة ويست». وبينما قال ذلك، أدركت أنها ربما قد تبقي على اسم ويليامز في العمل. سيكون معقداً جداً تغييره لكل المرضى، وفي كل الأمور المهنية التي تنجزها. هكذا، حتى لو أصبحت السيدة ويست اجتماعياً، فستبقى الدكتورة ويليامز وتحمل اسم بلايك إلى الأبد. ثمة أمور لا يمكن تغييرها.

الفصل السادس عشر

اتصل بلايك بماكسين في العيادة بين مواعيد المرضى، وكان يوماً مجنوناً بالنسبة إليها. لقد عاينت ثلاث حالات جديدة، وكانت تتناقش للتو مع متعهد تقديم الطعام في ساوثامبتون حول سعر الخيمة لزفافهما. كان السعر مرتفعاً جداً، لكنهم يحتاجون إلى واحدة من دون أي شك. عرض عليها والداها دفع تكاليفها، لكن في عمرها لم تشعر أنه من الملائم السماح لهما بفعل ذلك. من جهة أخرى، لم تشأ أن ينتهزها متعهد تقديم الطعام أيضاً. الخيم باهظة الثمن، خصوصاً الخيم ذات الجوانب الشفافة التي تريدها. وإلا سيصاب المدعوون برهاب الأماكن المغلقة. كانت لا تزال منزعجة حين تلقّت اتصال بلايك.

«مرحباً»، قالت بفظاظة. «ما الأمر؟».

«آسف ماكس. وقت سيئ؟، سأتصل بك لاحقاً إذا أردت». ألقت نظرة سريعة على ساعتها، ولاحظت أن الوقت متأخر بحسب التوقيت المحلّي للمغرب. لم تكن واثقة إذا كان قد عاد إلى لندن مجدداً، أو لا يزال هناك، لكن في كلتا الحالتين يكون الوقت متأخراً في المساء، ولاحظت من صوته أنه متعب.

«لا، لا. لا بأس. أنا آسفة. لديّ بضع دقائق قبل مريضي التالي. هل أنت بخير؟».

«نعم. لكن ما من أحد بخير حولي. لا أزال في إمليل، على مسافة ثلاث ساعات تقريباً من مراكش. لحسن الحظ أنهم يملكون محطة إرسال للهاتف الخلوي، وإن كانت غير جيدة كفاية، بحيث أستطيع الاتصال بك. أنا منهمك مع هؤلاء الأولاد هنا، ماكس. ما حصل لهم مريع فعلاً. لا يزالون ينتشلون الأشخاص من تحت الركام، حيث دفنوا مع كل الضحايا

مـن عائلاتهـم طـوال أيام. ثمة أشخاص يجولون في الشوارع وهم يبدون مذهولين. إنهم فقراء مساكين في القرى، ومثل هذه الكارثة تقضي عليهم. يقولون إن أكثر من عشرين ألف شخص قد قتلوا».

قالـت ماكسيـن بحزن: «أعـرف، قرأت المقالات فـي مجلة التايمز وشاهـدت التقاريـر علـى السي آن آن». صُدمت لأنها لم تتمكن من العثور عليه حين تأذى ابنها، لكنه يحاول فجأة شفاء جروح العالم. هذا على الأقل أفضـل مـن تنقّله بين حفلة وأخرى على متن طائرته الخاصة في كل أرجاء العالم. لم تكن مشاهد الكوارث غريبة بالنسبة إليها بسبب عملها. لكنها المرة الأولى التي تسمعه فيها منزعجاً جداً من شيء لا يعنيه مباشرة. لكنه يرى الكارثـة عـن قـرب. لقد واجهت مثل هذه الظـروف من قبل، في كوارث طبيعية حيث تم إرسالها لتقديم المشورة، في الولايات المتحدة وفي الخارج على حدٍّ سواء.

قال لها: «أحتاج إلى مساعدتك». كان منهكاً. بالكاد نام خلال عشرة أيـام. «أحـاول تنظيم مساعدة للأولاد. التقيـت ببعض الأشخاص المهمين وأصحـاب النفـوذ هنا، منذ شرائي للمنـزل. الأجهزة الحكومية ضائعة جداً بحيث يحاول القطاع الخاص رؤية ما يمكن فعله للمساعدة. تبنّيت مشروعاً ضخمـاً لـلأولاد، وأنـا أنفذه بنفسي. أحتاج إلـى بعض النصائح حول نوع المساعدة التي يحتاجون إليها، على المدى البعيد والآن. هذا هو اختصاصك بالتحديد. أحتاج إلى خبرتك، ماكس». بدا متعباً وقلقاً وحزيناً.

تنهـدت بقـوة فيمـا أصغـت إليه. هـذا طلب كبيـر. قالت لـه: «أودّ المساعـدة». تأثـرت بأهمية ما يقوم به، لكـن عليها أن تكون واقعية حيال ذلك أيضاً. قالت بحزن: «لست واثقة تماماً من أنني أستطيع إعطاء النصائح عبر الهاتف، لا أعرف الأنظمة الحكومية المتوافرة هناك، وعليك أن تكون موجـوداً لرؤيـة الأمور عن كثب. لا يقتصـر الأمر على النظريات في مثل هذه الكوارث. عليك أن تكون موجوداً هناك، مثلما أنت الآن، لفهم الحالة والقيام بما هو مناسب».

قـال لهـا: «أعرف، ولهذا السبب أتصل بك. لم أعرف ما يجب عليّ

فعلـه». تـردد لبرهـة. «هل تأتين إلى هنا، ماكـس؟ يحتاج هؤلاء الأولاد إليـك، وأنـا أيضـاً». ذهلت لسماع ما قاله. فبالرغم من أنه ذكر الفكرة في محادثاتهما السابقة، لم يخطر لها أبداً أنه جدي كثيراً في ذلك، أو أنه سيطلب منهـا فعـلاً الذهاب إلى هناك. جـدول مواعيدها ضاغط كثيراً طوال الشهر القادم. ستذهب في إجازة، مثلما تفعل دوماً، مع الأولاد في شهر يوليو، وسيكون الزفاف في شهر أغسطس، وبانت حياتها مشحونة.

«اللعنـة، بلايـك... أرغب كثيراً بذلك، لكنني لا أرى كيف أستطيع فعـل ذلـك. أنـا منهمكة كثيـراً مع مرضاي في الوقـت الحاضر، وبعضهم مريض جداً».

«أريد أن أرسل لك طائرتي. حتى لو بقيت فقط لمدة أربع وعشرين ساعـة، ستكـون مساعدتك كبيرة. أحتاج إلـى عينيك هنا، بدلاً من عينيّ. لديّ المال لإحداث فرق، لكنني لا أعرف أي شيء على الأرض، وأنت الشخص الوحيد الذي أثق به. قولي لي ماذا أفعل هنا. وإلا، فسأكون غير مفيـد البتـة». لقـد طلب منها شيئـاً مذهلاً، ولا ترى كيـف تستطيع تنفيذه. مـن جهـة أخـرى، لم يطلب منها أبداً أي شيء مثل هذا من قبل. ولاحظت أنـه متـورط عاطفيـاً تماماً في القضيـة. إنه مصرّ على فعل كل شيء ممكن للمساعدة، بكلتا يديه وبكل أمواله. وهذا هو العمل الذي تعتبره هي الأكثر مكافـأة. لا شـك فـي أن الانخـراط فـي كارثة كهذه هو أمـر محطّم للقلب والجسـد، لكـن هـذا هو أكثر ما تحبه، وفرصة لها لتُحدث فرقاً حقيقياً. إنها فخـورة بـه لما يقوم به، ومجـرد الإصغاء إليه وهو يتحدث عن الموضوع جعل الدموع تتلألأ في عينيها. تريد إخبار أولادها عن الأمر، كي يكونوا فخورين بوالدهم.

قالت ببطء: «أتمنى لو أستطيع ذلك، لكنني لا أعرف متى أو كيف». كانت تودّ الذهاب إلى المغرب، لمساعدته وتقديم النصيحة له. إنها معجبة بنواياه الحسنة وعمله الجدي. لاحظت أن هذا مختلف بالنسبة إليه، وأرادت مساعدته. لكنها لا ترى السبيل إلى ذلك في الوقت الحاضر.

«ماذا لو ألغيت مواعيدك ليوم الجمعة؟ أرسل الطائرة إلى هناك يوم

الخميس، ويمكنك السفر ليلاً. يمنحك ذلك ثلاثة أيام هنا في عطلة نهاية الأسبوع. تسافرين ليلة الأحد وتعودين إلى عيادتك يوم الاثنين». كان يحاول تدبير الأمر لساعات، وساد الصمت من جهتها.

قالت بهدوء: «أنا في إجازة في عطلة نهاية هذا الأسبوع». وتتولى تيلما أصلاً الاهتمام بمرضاها. تستطيع طلب يوم إضافي منها. لكن ماكسين أدركت تماماً أن الذهاب إلى المغرب لثلاثة أيام هو أمر يتصف بالجنون، نظراً إلى كل ما لديها من أعمال.

«لا أعرف شخصاً آخر لطلب الخدمة منه. ستتدمر حياة هؤلاء الأولاد إذا لم يفعل أحد الشيء الصحيح لهم الآن. سيختلّ عقل الكثيرين منهم على أي حال». لقد تعرضوا للإصابات والبتر والعمى، والضرر في الدماغ، وفقدوا أطرافهم حين انهارت عليهم منازلهم ومدارسهم. كما تيتّم عدد كبير منهم. شاهد مولوداً حديثاً تم إنقاذه، وهو لا يزال على قيد الحياة، فيما أخرجوه من تحت الركام، ووقف بلايك ينظر إليه ويبكي.

«أعطني ساعتين لأفكر في الأمر»، قالت ماكسين بهدوء فيما رنّ جرس مكتبها الداخلي لإخبارها بأن مريضتها التالية قد وصلت. «عليّ التفكير في الأمر». إنه يوم الثلاثاء. إذا أرادت الذهاب، أمامها يومين لتنظيم أمورها. لكن الكوارث الطبيعية لا تعطيك أبداً أي إنذار أو أي وقت للتخطيط. لقد غادرت قبلاً بناء على إشعار من بضع ساعات. وتريد مساعدته، أو على الأقل إحالة شخص جيد لنصحه. ثمة جمعية ممتازة من الأطباء النفسيين المتخصصين في هذا النوع من الأمور في باريس. لكنها رأت أن الذهاب لمساعدته يثير حماستها أيضاً. ولم تفعل أي شيء مثل هذا منذ فترة. «متى أستطيع الاتصال بك؟».

«في أي وقت. لم أذهب إلى السرير منذ أسبوع. جربي هاتفي الخلوي البريطاني، والبلاك بيري. إنهما يعملان الآن، أو بعض الوقت على الأقل... وماكس... شكراً... أحبك صغيرتي. شكراً على الاستماع والاهتمام. الآن أفهم ما تقومين به. أنت امرأة مذهلة». لديه احترام من نوع مختلف لها بعد كل ما رآه أخيراً. شعر وكأنه نضج بين ليلة وضحاها،

واستطاعت ملاحظة ذلك. عرفت أن هذا حقيقي، وثمة جانب جديد تماماً من بلايك يظهر أخيراً.

قالت بهدوء: «شكراً لك». تلألأت الدموع في عينيها مجدداً. «سأتصل بك بأسرع ما يمكن. لا أعرف إذا كنت أستطيع الذهاب، لكن إذا لم أستطع، سأعثر لك على شخص مهم يفيدك».

توسلها «أريدك أنت، أرجوك، ماكس...».

وعدته «سأحاول». أقفلت الخط، وفتحت الباب لمريضتها. عليها التركيز للاستماع عن كثب إلى ما تقوله ابنة الاثني عشر عاماً. إنها تجرح نفسها، وثمة جروح ممتدة صعوداً ونزولاً على كلتا ذراعيها. تمّ تحويلها إلى ماكسين من قبل مدرستها، وهي واحدة من ضحايا الحادي عشر من سبتمبر. والدها كان أحد رجال الإطفاء الذين ماتوا، وهي جزء من دراسة مستمرة تجريها ماكسين للمدينة منذ حصول الكارثة. امتدت جلسة العلاج أطول من المعتاد، وأسرعت ماكسين بعد ذلك إلى المنزل.

كان كل أولادها جالسين في المطبخ مع زيلدا حين وصلت إلى هناك، وأخبرتهم عن والدهم وما يفعله في المغرب. لمعت عيونهم فيما أخبرتهم ذلك، وذكرت لهم أنه طلب منها الانضمام إليه. تحمسوا لسماع ذلك، وقالوا لها إنهم يتمنون ذلك.

«لا أرى كيف أستطيع فعل ذلك»، قالت وهي تبدو متوترة وشاردة الذهن، ثم خرجت من المطبخ للاتصال بتيلما. لا تستطيع العمل بدلاً من ماكسين يوم الجمعة لأنها تدرّس صفاً في كلية الطب في جامعة نيويورك هذا اليوم، لكنها قالت إن شريكتها تستطيع العمل بدلاً من ماكسين في هذا اليوم، إذا سافرت. وستعمل تيلما في عطلة نهاية الأسبوع على أي حال.

أجرت ماكسين بعض الاتصالات الإضافية، وتحققت من كمبيوترها للاطلاع على مواعيدها يوم الجمعة، واتخذت قرارها عند الساعة الثامنة. لم تتوقف حتى لتناول العشاء. هذا أقل ما يمكنها فعله، ويسهّل عليها بلايك الأمر بإرسال طائرته إليها. هذه هي الحياة. أدركت أن بلايك فهم ذلك

ربما في النهاية. احتاج إلى وقت طويل لفعل ذلك. في السادسة والأربعين من عمره، بدأ يتحول إلى إنسان حقيقي.

انتظرت حتى منتصف الليل للاتصال به. إنه الصباح الباكر في المغرب. جرّبت مرات عدة على هاتفيه الخلويين، أخيراً نجحت في العثور عليه. بدا مرهقاً أكثر مما كان في اليوم السابق. أخبرها أنه بقي مستيقظاً طوال الليل، مرة جديدة. عرفت ماكسين أنها الطبيعة في مثل هذه الظروف، وهذا ما يفعله أي كان. إذا ذهبت، ستفعل ذلك أيضاً، كي لا تخسر وقتاً إضافياً أكثر من الذي خسروه أصلاً. لا وقت لتبديده أو تخصيصه للأكل أو النوم. يعيش بلايك ذلك الآن.

تحدثت مباشرة في الموضوع، «سآتي». بدأ يبكي حين قالت ذلك. إنها دموع الارتياح، والإرهاق، والرعب، والامتنان. لم يعش أبداً مثل هذه التجربة من قبل. «أستطيع الذهاب ليلة الخميس»، تابعت.

«الحمد لله... ماكس. لا أستطيع شكرك كفاية. أنت امرأة مذهلة. أحبك... شكراً لك من كل قلبي». أخبرته عن نوع التقارير التي ستحتاج إليها حين تصل إلى هناك، وما تريد رؤيته. يعود إليه جمعها بالمسؤولين الحكوميين، وإيصالها إلى المستشفيات، ومساعدتها على لقاء أكبر عدد ممكن من الأولاد، حيث هم مجتمعون. تريد الاستفادة قدر الإمكان من كل دقيقة تتواجد فيها هناك، وأراد بلايك ذلك أيضاً. وعدها بالاهتمام بكل شيء من جهته، وشكرها عشرات المرات قبل أن يقفلا الخط.

قالت دافني بهدوء حين أقفلت أمها السماعة: «أنا فخورة بك أمي». كانت تقف عند الباب، تستمع إلى الحديث، وانهمرت الدموع على وجنتيها.

وقفت ماكسين وجاءت لمعانقتها «شكراً حبيبتي، أنا فخورة بوالدك أيضاً. لا يعرف أي شيء عن هذا الموضوع، وهو يبذل كل ما في وسعه». لاحظت دافني بوضوح في إحدى تلك اللحظات النادرة الخاصة أن والديها شخصان طيبان، وأثر ذلك فيها، تماماً مثلما أثر اتصال بلايك في ماكسين.

تحدثنا عن الأمر لبعض الوقت، فيما أعدّت ماكسين لوائح سريعة بما تحتاج إليه للرحلة. أرسلت بريداً إلكترونياً إلى ثيلما تؤكد لها فيه أنها مسافرة وتحتاج إلى شريكتها للعمل مكانها يوم الجمعة.

أدركت ماكسين أنه عليها الاتصال بتشارلز أيضاً. كانا ينويان تمضية عطلة نهاية الأسبوع في ساوثامبتون والاجتماع بمتعهد تقديم الطعام وبائع الأزهار. يستطيع فعل ذلك من دونها، أو يمكنهما تأجيل المسألة لأسبوع. لن يحدث ذلك فرقاً كبيراً، لأن الزفاف بعد شهرين. لكن الوقت متأخر جداً للاتصال به هذه الليلة. استلقت على سريرها، وبقيت مستيقظة لساعات طويلة، تفكّر في كل ما تريد القيام به حين تصل إلى المغرب. فجأة، أصبح هذا مشروعها أيضاً، وامتنّت لبلايك لأنه يتشاركه معها. بدا وكأن المنبّه رنّ بعد خمس دقائق من خلودها إلى النوم. اتصلت بتشارلز مباشرة بعد الفطور. لم يغادر بعد إلى عيادته، وعليها التواجد في عيادتها بعد عشرين دقيقة. بما أن المدرسة انتهت، لا يزال الأولاد نياماً، وكانت زيلي ترتب المطبخ وتستعد للفوضى التي ستحصل لاحقاً.

قال بسعادة: «مرحباً ماكس». وبدا مسروراً لسماعها حين أجاب. «هل كل شيء بخير؟». تعلّم أن الاتصالات منها في أوقات غير اعتيادية لا تعني دوماً أخباراً جيدة. لقد علّمه حادث سام الأخير ذلك. تكون الحياة مختلفة عند وجود الأولاد. «هل سام على ما يرام؟».

«إنه بخير. أردت فقط إبلاغك آخر الأخبار. عليّ السفر في عطلة نهاية الأسبوع». بدت مستعجلة وأكثر فظاظة مما أرادت، لكنها لم تشأ التأخر على عيادتها، وعرفت أنه لا يريد التأخر هو الآخر. إنهما دقيقان جداً في المواعيد. «عليّ إلغاء اللقاءات مع متعهد تقديم الطعام وبائع الأزهار في ساوثامبتون، إلا إذا أردت الذهاب من دوني. وإلا، أستطيع فعل ذلك في الأسبوع المقبل. أنا مسافرة». أدركت أن كلماتها وعباراتها غير مترابطة.

«هل من مشكلة؟». إنها تسافر للمشاركة في محاضرات طوال الوقت، لكن نادراً ما يحصل ذلك في عطلات نهاية الأسبوع، التي تعتبرها نوعاً ما

مخصصة فقط لأولادها. «ما الأمر؟». بدا مرتبكاً.

قالت بفظاظة: «أنا مسافرة إلى المغرب للقاء بلايك».

«أنت ماذا؟ ماذا يعني ذلك؟». كان مذهولاً ولم يحب ما سمعه على الإطلاق. سارعت ماكسين إلى الشرح.

«ليس هكذا. كان هناك حين تعرضوا لزلزال كبير. إنه يحاول تنظيم فرق إنقاذ، وتأمين المؤن للأولاد. يبدو الأمر وكأنه فوضى كبيرة، ولا يعرف ماذا يفعل. إنها تجربته الأولى في مثل هذا النوع من العمل الإنساني. يريد مني الذهاب، لمعاينة بعض الأولاد، واللقاء بمختلف الوكالات الدولية والحكومية المهتمة بالموضوع، وإعطاءه بعض النصائح». جعلت الأمر يبدو وكأنه طلب منها إحضار خسة من السوبرماركت. بدا تشارلز مصدوماً.

«أنت تفعلين هذا لأجله؟ لماذا؟».

«ليس لأجله. إنه أول دليل على تحوله إلى كائن إنساني وشخص ناضج منذ سنة وأربعين عاماً. أنا فخورة به. وأقل ما أستطيع فعله هو إعطاؤه بعض النصائح، ومساعدته».

قال تشارلز بغضب شديد: «هذا سخيف، ماكس، لديهم الصليب الأحمر. لا يحتاجون إليك».

قالت بانفعال: «عمل الصليب الأحمر يختلف عن عملي. أنا لا أخرج الناجين من تحت الأنقاض، أو أقود سيارة إسعاف، أو أعالج المصابين. أنا أنصح الحكومات حول كيفية التعاطي مع الصدمات عند الأولاد. هذا هو بالضبط ما يحتاجون إليه. سأغيب فقط لثلاثة أيام. سيرسل إليّ الطائرة».

«وهل ستمكثين معه؟»، سأل تشارلز وهو يبدو مشككاً. تصرف كما لو أنها قالت له إنها ستقوم برحلة بحرية مع بلايك على متن يخته. لقد فعلت ذلك قبلاً، مع الأولاد، لكنه كان غير مؤذٍ، وتشاركا بصحبة الأولاد، مما برّر كل شيء تقريباً بالنسبة إليها. لكن الأمر مختلف الآن على أي حال،

سواء أتفهم تشارلز ذلك أم لا. هذا عمل، وهذا فقط. لا شيء آخر.

«أظن أنني لن أمكث في أي مكان، إذا كان المشهد مماثلاً لمشاهد الزلازل الأخرى في المناطق التي زرتها قبلاً. سأخيّم في شاحنة، وأنام بالكاد في أيّ مكان أتواجد فيه. لن أرى حتى بلايك على الأرجح حين أصل إلى هناك، أو ليس كثيراً». بدا سخيفاً لها أن يغار تشارلز بهذه الطريقة من أمر بديهي وبريء مثل هذا.

قال بغضب: «لا أظن أنه يجدر بك الذهاب». كان يحتدم غيظاً.

قالت ماكسين ببرود: «ليست هذه المسألة، وأنا آسفة لأنك تشعر بهذه الطريقة، لا شيء يدعو إلى القلق، تشارلز»، قالت وهي تحاول أن تبدو لطيفة ومتفهمة للموضوع. إنه يغار. وهذا جميل. لكنه أحد اختصاصاتها ونوع العمل الذي تمارسه في كل أنحاء العالم. «أحبك. لكنني أرغب بالذهاب والمساعدة. إنها مجرد مصادفة أن يكون الشخص الذي طلب مني السفر هو بلايك. كان يمكن لأي من الوكالات المهتمة أن تتصل بي أيضاً».

«لكنها لم تفعل. هو الذي فعل. ولا أرى سبباً لذهابك. بالله عليك، حين أصيب ابنه، احتجت إلى أسبوع تقريباً للعثور عليه».

قالت وهي تبدو يائسة: «لأنه كان في المغرب، وتعرضوا لزلزال». بدا لها الأمر غير منطقي أكثر فأكثر.

«نعم، وأين كان في الفترات الأخرى من حياة أولاده؟ في الحفلات وعلى اليخوت وكان مشغولاً بمطاردة النساء. أخبرتني بنفسك أنه لا يمكنك العثور عليه أبداً، وليس هذا بسبب الزلازل. الرجل أحمق ماكس. وأنت تجتازين نصف العالم لجعله يبدو طيباً فيما ينقذ مجموعة من الناجين من الزلزال؟ من فضلك، أرجوك، لا أريدك أن تذهبي».

قالت ماكسين عبر أسنانها المطبقة: «أرجوك لا تفعل هذا، أنا لا أهرب مع زوجي السابق في عطلة نهاية أسبوع غير شرعية. أنا ذاهبة لتقديم المشورة بشأن استهلال برنامج لآلاف الأولاد الذين أصبحوا يتامى،

ومصابين، ومعرّضين للصدمة لبقية حياتهم إذا لم ينجز أحد الشيء الصحيح في البداية. قد لا يحدث ذلك فرقاً كبيراً، بحسب كيفية تطبيق البرنامج، ونوع الاعتمادات المتوافرة لديهم، لكنه يحقق شيئاً على الأقل. هذا هو اهتمامي الوحيد، وليس بلايك، أي مساعدة هؤلاء الأولاد قدر المستطاع». أوضحت له الأمر تماماً، لكنه لا يستوعب. أبداً.

قال وهو غاضب أكثر من قبل: «لم أكن أعرف أنني سأتزوج بالأم تيريزا». مما أثار حزن ماكسين وإحباطها. فآخر شيء تريده هو شجار مع تشارلز بسبب ذلك. هذا غير مجدٍ، ويزيد فقط من صعوبة الأمور بالنسبة إليها. لقد أعطت التزاماً لبلايك، وستسافر. هذا ما أرادت فعله، سواء أحب تشارلز ذلك أم لا. فهي ليست ملكاً له، وعليه احترام عملها، وحتى علاقتها مع بلايك، مثلما هي. تشارلز هو الرجل الذي تحبه، وهو مستقبلها. أما بلايك فهو ماضيها ووالد أولادها.

«أنت تتزوج بطبيبة نفسية متخصصة في الانتحار عند المراهقين، مع اختصاص فرعي في الصدمات عند الأولاد والمراهقين. أظن أن هذا واضح تماماً. الزلزال في المغرب من ضمن اختصاصي. السبب الوحيد الذي أزعجك في ذلك هو بلايك. هل يمكننا التصرف كراشدين؟ ما كنت لأحدث جلبة لو أنت فعلت ذلك. لماذا لا تكون منطقياً معي؟».

«لأنني لا أفهم نوع العلاقة التي تربطك به، وأظن أن هذا مقرف. أنتما لم تقطعا الصلة أبداً بينكما، وقد تكونين طبيبة نفسية، دكتورة ويليامز، لكنني أظن أن صلتك بزوجك السابق لا تزال قوية، وهذا ما أظنه».

«شكراً لك على رأيك، تشارلز. سآخذه في الاعتبار في وقت لاحق. والآن، تأخرت على مرضاي، وسأسافر إلى المغرب بعد ثلاثة أيام. لقد التزمت، وأودّ تنفيذ التزامي. وأقدّر لو كنت أكثر نضوجاً حيال ذلك، وتثق بعلاقتي مع بلايك». بدأت ترفع صوتها، وكذلك هو. إنهما يتشاجران بشأن بلايك. هذا جنون.

«لا أهتم لما تفعلينه، ماكسين. لكنني أستطيع أن أقول لك شيئاً واحداً

وهو أنني لن أتحمل هذا النوع من الأمور بعد أن نتزوج. إذا أردت الذهاب إلى أماكن الزلازل والتسونامي والله أعلم ماذا في النصف الآخر من العالم، لا مشكلة أبداً معي. لكن لا تخططي لفعل ذلك مع زوجك السابق وتتركينني أنا هنا. أظن أن هذا عذر له كي يأخذك إلى هناك ويبقى معك. لا أظن أن لهذا علاقة أبداً بالأيتام المغاربة أو أي شيء من هذا القبيل. فالرجل ليس إنسانياً كفاية للاهتمام بأي كان سوى نفسه، وقد أخبرتني ذلك بنفسك. إنه مجرد عذر وأنت تعرفين ذلك».

قالت بهدوء: «تشارلز، أنت مخطئ، لم أعرفه أبداً وهو يفعل شيئاً من هذا قبلاً، لكن عليّ احترام ما يقوم به. وأودّ مساعدته إذا استطعت. أنا لا أساعده هو. أنا أفعل ما أستطيع من أجل أولئك الأولاد. حاول أن تفهم هذا أرجوك». لم يجبها، وكانا غاضبين. أزعجها أنه أحدث جلبة كبيرة بشأن بلايك. سيجعل الأمور صعبة عليها وعلى الأولاد في المستقبل إذا لم يتجاوز ذلك. أملت أن يفعل هذا عما قريب. في غضون ذلك، ستذهب إلى المغرب. إنها امرأة تلتزم بكلمتها. وتأمل أن يهدأ تشارلز. أقفلا الخط، من دون أن تُحلّ المشكلة بينهما.

وقفت ماكسين تحدق إلى الهاتف لبرهة بعد ذلك، وهي غاضبة من المحادثة. وقفزت عند سماع الصوت خلفها. في عزّ شجارها مع تشارلز، لم تسمع دافني وهي تدخل. قالت دافني بصوت جدي «إنه أحمق، لا أصدق أنك ستتزوجين به أمي. وهو يكره أبي». لم توافقها ماكسين الرأي، لكنها تستطيع فهم سبب شعور ابنتها.

«لا يفهم نوع العلاقة التي تربطني به. لا يتحدث أبداً إلى زوجته السابقة. ليس لديهما أولاد». لكن الأمر أكثر من ذلك مع بلايك. فبطريقتهما، لا يزالان يحبان بعضهما، وإنما تحول الحب إلى شيء آخر، إلى نوع من الرابط العائلي الذي لا تريد خسارته. وهي لا تريد كشف أوراقها أمام تشارلز بسبب ذلك. تريده أن يفهم، لكنه لم يفعل.

«هل لا تزالين مسافرة إلى المغرب؟»، سألت دافني بعينين قلقتين. رأت أنه يجدر بأمها الذهاب، لمساعدة والدها وكل أولئك الأولاد.

«نعم، سأفعل. أتمنى فقط أن يهدأ تشارلز».

قالت دافني: «ومن يهتم؟». وهي تسكب حبوب الذرة في وعاء، فيما بدأت زيلي تحضر لها الفطائر المقلية كي تتناول فطورها.

قالت ماكسين بصراحة: «أنا أهتم، أحب تشارلز». وأملت أن يفعل أولادها ذلك أيضاً في يوم من الأيام. ليس مستغرباً أن يكره الأولاد زوج الأم أو زوجة الأب، خصوصاً في هذه الأعمار. ما من شيء غير اعتيادي في ذلك، لكن يصعب التعايش مع الأمر.

تأخرت ماكسين نصف ساعة على عيادتها، واستمرت في التأخر طوال اليوم. لم يكن لديها الوقت للتحدث إلى تشارلز مجدداً. كانت غارقة في العمل، تعاين المرضى، وتلغي المواعيد الممكنة لنهاية الأسبوع. اتصلت بتشارلز ما إن عادت إلى المنزل، وأُحبطت حين وجدت أنه لا يزال غاضباً. طمأنته قدر الإمكان، وسألته إذا كان يريد المجيء لتناول العشاء. أذهلها بقوله إنه سيراها حين تعود. إنه يعاقبها على الرحلة التي ستقوم بها بناءً على طلب بلايك، ولا يريد أن يراها قبل أن تغادر.

قالت بلطافة: «أودّ أن أراك قبل أن أغادر». لكن تشارلز لم يكن مستعداً للاستسلام. لم تشأ المغادرة وهي تعرف أنه لا يزال غاضباً منها، لكنه رفض التراجع. اعتبرت ماكسين تصرّفه طفولياً، لكنها قررت تركه ليهدأ خلال سفرها. ما من خيار آخر. وحين اتصلت به لاحقاً، وجدت أنه أقفل هاتفه. إنه شديد الغضب، وينفّس عن غضبه بتوبيخها.

تناولت عشاء هادئاً مع أولادها تلك الليلة، وبعد يوم مجنون آخر في العيادة نهار الخميس، اتصلت بتشارلز مجدداً في المساء قبل أن تغادر. أجاب هذه المرة على هاتفه.

قالت بأكبر قدر ممكن من الهدوء: «أردت فقط أن أودعك، أنا مغادرة إلى المطار». ستطير من نيوارك حيث يركن بلايك دائماً طائرته.

قال تشارلز بطريقة جافة: «اعتني بنفسك».

قالت وهي تحاول أن تكون إيجابية: «أرسلت إليك عبر البريد

الإلكتروني رقم الهاتف الخلوي والبلاك بيري الخاصين ببلايك، ويمكنك تجربة هاتفي الخلوي. أظن أنه سيعمل في أثناء وجودي هناك».

قال تشارلز بنبرة غاضبة: «لن أتصل بك على هاتفه الخلوي». لا يزال مستاءً لأنها مسافرة. ستكون عطلة نهاية أسبوع بائسة بالنسبة إليه. إنها تفهم السبب، وشعرت بالسوء حيال ذلك، لكنها أسفت لأنه لم يستطع تقبّل المسألة وتفهّمها. إنها متحمسة الآن للرحلة ولما تقوم به. هناك دوماً نوع من الحرفية المهنية في هذه الأوضاع، بالرغم من أنها محزنة جداً. إلا أن المساعدة في كوارث طبيعية كهذه تجعل الشخص يشعر أن لحياته معنى. عرفت أن هذا جيد لبلايك أيضاً، وهذه سابقة بالنسبة إليه، وهذا جزء من سبب سفرها. لا تريد أن تخذله، وتريد تعزيز المنحى الجديد الذي تتخذه حياته. هذا كثير حتى يتفهمه تشارلز. ودافني محقة. إنه يكره بلايك، وهو يغار منه منذ البداية.

طمأنته ماكسين «سأحاول الاتصال بك، وتركت لزيلي أرقامك في حال حصل أي شيء هنا». افترضت أنه سيكون في المدينة لأنها لن تكون معه.

«في الواقع، أفكر في الذهاب إلى فيرمونت»، أجاب تشارلز. الطقس جميل هناك في يونيو. كانت تودّ لو أنه أقام علاقة ودّية مع أولادها بحيث يستطيع رؤيتهم حتى من دونها، خصوصاً وأنه سيصبح زوج أمهم في غضون شهرين، لكنه لم يفعل. وعرفت أنه في غيابها، لا يريد الأولاد أن يروه. هذا مخزٍ. لا تزال أمامهم طريق طويلة قبل أن تهدأ الأمور بينهم. يحتاجون إليها لتكون الجسر بينهم. قال لها قبل أن يقفلا السماعة: «انتبهي، فمواقع الكوارث مثل هذه قد تكون خطيرة. وهذه شمال أفريقيا، وليست أوهايو».

«سأفعل، لا تقلق». ابتسمت. «أحبك تشارلز. سأعود يوم الاثنين». كانت حزينة حين أقفلت السماعة. لا شك في أن سفرها شكّل هوّة بينهما. أملت ألا يحصل المزيد من ذلك، وأسفت لأنها لم تره قبل أن تغادر لأنه رفض ذلك. بدا لها تصرفاً سخيفاً وطفولياً أن يكون عنيداً كثيراً حيال ذلك.

ذهبت لتقبيل أولادها وتوديعهم، وقالت لنفسها في النهاية، إنه مهما تقدموا في العمر أو ادعوا أنهم كبروا، يبقى كل الرجال أطفالاً.

الفصل السابع عشر

أقلعت طائرة بلايك من مطار نيوارك ليلة الخميس، مباشرة بعد الساعة الثامنة مساء. جلست ماكسين بارتياح على أحد المقاعد الفخمة، وكانت تنوي استعمال إحدى غرفتي النوم للاستمتاع بنوم هانئ في الليل. تحتوي الغرفتان على أسرّة كبيرة، مع شراشف جميلة، وبطانيات، ووسادات كبيرة ومريحة. أحضرت لها إحدى المضيفتين وجبة خفيفة، وبعد فترة وجيزة من ذلك، عشاء خفيفاً من السلمون المدخن وعجة البيض التي تم تحضيرها على متن الطائرة. أعطاها الطيار تفاصيل الرحلة التي قد تستغرق سبع ساعات ونصف. سيصلون في تمام السابعة والنصف صباحاً بحسب التوقيت المحلي، وسيكون في انتظارها سائق وسيارة جيب لاصطحابها إلى القرية خارج مراكش حيث أنشأ بلايك وعدد من عمال الإنقاذ الآخرين مخيماً. كما أن الصليب الأحمر الدولي موجود هناك بكل قواه.

شكرت ماكسين الطيار على المعلومات، وتناولت الوجبة الخفيفة، وذهبت إلى السرير في تمام التاسعة. عرفت أنها تحتاج إلى كل الراحة الممكنة قبل أن تصل إلى هناك، ويسهل فعل ذلك في طائرة بلايك الفخمة. كانت مؤثثة بطريقة جميلة بالأقمشة والريش البيج والرمادي. ثمة بطانيات من الكشمير على كل مقعد، وأرائك من الموهير، وسجادات سميكة من الصوف الرمادي في كل أرجاء الطائرة. الغرفة ملونة بالأصفر الباهت، وضعت رأسها على الوسادة، ونامت في غضون لحظات. نامت مثل الطفلة لستّ ساعات، وحين استيقظت، استلقت على السرير، وراحت تفكّر في تشارلز. لا تزال منزعجة لأنه غاضب جداً منها، لكنها عرفت أن السفر إلى المغرب هو القرار الصحيح.

مشّطت شعرها، ونظفت أسنانها، وانتعلت جزمتها السميكة. لم

تستعملها منذ فترة، واحتفظت بها في الجهة الخلفية من خزانتها حيث تحتفظ بالملابس الخاصة بمثل هذه الأوضاع. لقد أحضرت معها ثياباً ترتديها عندما تذهب إلى المناطق الوعرة، وشكّت في أنها ستنام بما ترتديه خلال الأيام القليلة المقبلة. إنها متحمسة فعلاً لما ستقوم به، وأملت أن تتمكن من إحداث فرق، وتساعد بلايك نوعاً ما.

خرجت من غرفة النوم وهي تبدو نضرة ومرتاحة، واستمتعت بالفطور الذي قدمته لها المضيفة. هناك كرواسان، وخبز إفرنجي، ولبن، وسلّة من الفاكهة الطازجة. طالعت قليلاً بعدما تناولت الفطور فيما بدأت الطائرة بالهبوط. وضعت شعار مهنة الطبابة على طيّة سترتها للتعريف عن نفسها كطبيبة في موقع الكارثة. كانت مستعدة لمباشرة العمل حين هبطوا، فيما شعرها مربوط في جديلة مرتبة، وقد ارتدت قميص سافاري تحت كنزة سميكة. أحضرت معها قمصاناً قطنية وسترة سميكة أيضاً. تحقق لها جاك من حالة الطقس عبر الإنترنت قبل أن توضّب أغراضها، كذلك أحضرت معها حافظة ماء ملأتها بماء إفيان قبل أن تغادر الطائرة. كانت قفازات العمل مثبتة بحزامها، والأقنعة الجراحية والقفازات المطاطية في جيوبها. إنها مستعدة للعمل.

مثلما وعدها بلايك، كانت هناك سيارة جيب وسائق في انتظارها حين نزلت من الطائرة، وحملت حقيبة كتف صغيرة فيها ثياب داخلية نظيفة في حال كان هناك مكان لتستحم في موقع الزلزال، وأحضرت معها أدوية في حال مرضت. أحضرت معها الأقنعة الجراحية في حال كانت رائحة جثث الضحايا قوية جداً، أو تعاطت مع أمراض معدية. أحضرت معها مناديل مبللة أيضاً. حاولت التفكير في كل شيء قبل أن تغادر. الأمر أشبه قليلاً بعملية عسكرية حين تذهب إلى مواقع كهذه، حتى لو كانت الفوضى عارمة. لم تضع أي مجوهرات باستثناء ساعة يد. وتركت خاتم خطوبتها من تشارلز في نيويورك. كانت تضج بالنشاط حين ركبت سيارة الجيب التي انتظرتها وانطلقت بها. كانت غير متمكنة من لغتها الفرنسية، لكنها استطاعت التحدث إلى السائق في طريقهما إلى موقع الزلزال. قال لها إن العديد من الأشخاص

قتلوا، هنالك الآلاف من الضحايا، وأصيب الكثيرون. تحدث عن جثث ملقاة في الشوارع، لا تزال تنتظر من يدفنها، ما عنى لماكسين أمراضاً وأوبئة في المستقبل القريب. لا حاجة إلى أن يكون المرء طبيباً ليعرف ذلك، وأدرك سائقها هذا أيضاً.

استغرقت الطريق ثلاث ساعات من مراكش إلى إمليل. احتاجت إلى ساعتين للوصول إلى بلدة اسمها أسني، في جبال الأطلس، وقرابة الساعة للوصول إلى إمليل عبر الطرقات الوعرة. كان الطقس في الطريق إلى إمليل أكثر برودة مما هو في مراكش، وبدا المشهد الريفي بالتالي أكثر اخضراراً. ثمة قرى بيوتها من الطين والقرميد، وقطعان ماعز، وغنم، ودجاج على الطرقات، ونساء وأولاد يحملون حزماً من الحطب على رؤوسهم. ثمة معالم أكواخ مدمرة، حيث تبدو آثار الزلزال من أسني إلى إمليل واضحة، وممرات للمشاة بين القرى التي دُمّرت بمعظمها. هناك شاحنات مكشوفة تنقل الأشخاص من قرية إلى أخرى.

حين اقتربت سيارة الجيب من إمليل، لاحظت ماكسين أكواخاً طينية مسطحة في كل مكان، مع رجال يبحثون في الركام عن ناجين، وكان البعض يقومون بأعمال البحث بأيديهم من دون أي معدّات مساعدة بسبب نقص الأدوات اللازمة لفعل ذلك. نبشوا الأنقاض بحثاً عن أحباب لهم وناجين، وهم يبكون غالباً، فيما شعرت ماكسين بالدمع يخز عينيها. يصعب عدم التعاطف معهم، فيما شعرت وأدركت تماماً أنهم يبحثون عن زوجاتهم وأولادهم وأقاربهم وأهلهم. ذكّرها ذلك بما ستراه حين تلتقي أخيراً ببلايك.

حين وصلا إلى ضواحي إمليل، شاهدت أفراد فريقي الصليب الأحمر الدولي والهلال الأحمر المغربي يساعدون الأشخاص قرب منازل الطين المسواة بالأرض. بدا وكأنه لم يعد هناك أي منشآت على حالها، فيما جال مئات الأشخاص على جانبي الطريق. كانت هناك بضعة بغال، وبعض أنواع الماشية الأخرى التي تعيق غالباً حركة السير على الطريق. كان عبور الأميال الأخيرة إلى إمليل بطيئاً جداً. ثمة رجال إطفاء وجنود يعملون

أيضاً. تم استخدام كل شكل من أشكال عمليات الإنقاذ من قبل الحكومة المغربية والدول الأخرى، وحلّقت المروحيات في السماء. إنه مشهد مألوف في مواقع الكوارث الأخرى التي عملت ماكسين فيها.

افتقرت العديد من القرى إلى الكهرباء والماء في أحسن الأحوال، وكانت الظروف قاسية، خصوصاً في أعالي الجبال، بعد إمليل. كان سائقها يعطيها التفاصيل عن المناطق فيما عبرت السيارة بين القرويين واللاجئين والماشية على الطرقات. قال إن أشخاصاً من إكيس وتاشديرت وستي شمبروش، في الجبال، جاؤوا إلى إمليل للمساعدة. إمليل هي البوابة إلى وسط أعلى جبال الأطلس ووادي التيزان، التي يشرف عليها جبل توبقال، أعلى جبل في شمال أفريقيا، على ارتفاع أربعة آلاف قدم تقريباً. استطاعت ماكسين رؤية الجبال أمامها، مغطاة بالثلج حتى الآن. السكان في المنطقة هم من المسلمين والبربر. إنهم يتحدثون العربية والبربرية، وعرفت ماكسين أن بعضاً منهم فقط يتحدثون الفرنسية. أخبرها بلايك على الهاتف أنه يتواصل مع الأشخاص في القرية باللغة الفرنسية وعبر المترجمين. لم يصادف أحداً حتى الآن، باستثناء عمال الصليب الأحمر، يتحدثون الإنكليزية. لكن بعد سنوات من السفر، باتت لغته الفرنسية جيدة.

شرح السائق أيضاً أنه فوق إمليل توجد قصبه التوبقال، القصر الصيفي لحاكم سابق. إنه على مسافة عشرين دقيقة سيراً على الأقدام من إمليل. ولا وسيلة أخرى للوصول إلى هناك باستثناء البغال. قال إنهم يحضرون الجرحى من القرى على البغال أيضاً.

كان الرجال الذين شاهداهم يرتدون الجلابيات، أي الأثواب الطويلة ذات القلنسوات التي يضعها البرابرة. بدا الجميع مرهقين ومتسخين، بعد السفر على متن البغال، والمشي لساعات، أو انتشال الأشخاص من تحت أنقاض المنازل. فيما اقتربا من إمليل، لاحظت ماكسين أن الأبنية المشيّدة من كتل الباطون تدمرت أيضاً بفعل الزلزال. لم يبقَ أي شيء في مكانه، وبدأت تشاهد خيم الصليب الأحمر التي كانت بمثابة مستشفيات ميدانية وملاجئ لعدد كبير من اللاجئين. أما الأكواخ الطينية النموذجية فتحولت

كلها إلى ركام. اللافت أن الأبنية المشيدة من الإسمنت لم تصمد أفضل من بيوت الطين والصلصال. ثمة أزهار برية على جانبي الطريق، بدا جمالها متناقضاً تماماً مع الدمار الذي رأته ماكسين في كل مكان.

أخبرها السائق أن المقر الأساسي للأمم المتحدة في جنيف أرسل أيضاً فريقاً لتقييم الكوارث ولتقديم النصيحة للصليب الأحمر والعديد من فرق الإنقاذ الدولية التي عرضت المجيء والمساعدة. عملت ماكسين مع الأمم المتحدة في مناسبات عدة، وأدركت أنها إذا عملت مع أي وكالة دولية لإيجاد حلول طويلة الأمد، سيكون ذلك على الأرجح مع هذه المنظمة. أحد أهم المخاوف في الوقت الحاضر هو تفشي الملاريا في القرى المدمرة، خصوصاً وأن هذا شائع في المنطقة، وينتقل بواسطة البعوض، فضلاً عن أن الكوليرا والتيفوئيد هما خطران حقيقيان أيضاً، لجهة انتقال عدوى هذين المرضين بسرعة فائقة. تم دفن الجثث بسرعة وفقاً لتقاليد المنطقة، لكن انتشار المرض بقي خوفاً حقيقياً نتيجة بقاء العديد من الجثث من دون أغطية.

كان الأمر أكثر من مروّع، حتى بالنسبة إلى ماكسين، التي لاحظت مقدار العمل الواجب إنجازه، والوقت القليل الذي لديها لتقديم النصائح لبلايك. لديها فقط يومان ونصف اليوم لفعل كل ما هو ممكن. أسفت ماكسين فجأة لأنها لا تستطيع البقاء لأسابيع بدلاً من أيام، لكن لا مجال لفعل ذلك. لديها واجبات، ومسؤوليات، وأولادها للعودة إليهم في نيويورك، ولا تريد الضغط على تشارلز أكثر مما فعلت أصلاً. لكن ماكسين أدركت أن فرق الإنقاذ والمنظمات الدولية ستعمل هنا لأشهر طويلة. تساءلت ما إذا كان بلايك سيفعل هذا أيضاً.

عندما وصلا إلى إمليل، شاهدا المزيد من الأكواخ التي تدمرت، والشاحنات التي انقلبت، والشقوق في الأرض، والأشخاص الذين ينتحبون فوق جثث موتاهم. وبات الأمر أسوأ فيما اقتربا من القرية حيث قال بلايك إنه ينتظرهما. إنه يعمل في إحدى خيم الصليب الأحمر. وفيما تحرّكت السيارة ببطء نحو خيم الإنقاذ، تعرفت ماكسين إلى رائحة الجثث النتنة

والكريهة التي عرفتها قبلاً في أوضاع مماثلة، والتي لا يمكن أن تنساها أبداً. أخرجت أحد الأقنعة الجراحية من حقيبتها ووضعته على وجهها. كان الوضع سيئاً مثلما خشيت، وأبدت إعجابها ببلايك على وجوده هنا. عرفت أن التجربة كلها بمثابة صدمة له.

أوصلتها سيارة الجيب إلى وسط إمليل، حيث انهارت المنازل، وكان الركام والزجاج المحطم في كل مكان، والجثث ملقاة على الأرض، بعضها مغطى بالقماش، وبعضها الآخر لم تُغطَّ، وكان الناس يتحركون مصدومين. ثمة أولاد يبكون، ويحملون أولاداً أصغر منهم أو أطفالاً، وشاهدت سيارتين للصليب الأحمر حيث يقدّم المتطوعون الطعام والشاي. ثمة خيمة طبية عليها إشارة ضخمة للصليب الأحمر، وخيم أصغر منصوبة في المخيم. أشار السائق إلى إحداها، ثم لحق بها فيما مشت على أرض وعرة. حدق الأولاد إليها بشعرهم المبعثر ووجوههم المتّسخة. كانوا بمعظمهم حفاة الأقدام، ولم يرتدِ بعضهم أي ملابس إذ هربوا في الليل. لحسن الحظ أن الطقس دافئ، فخلعت كنزتها وربطتها حول خصرها. كانت رائحة الجثث والبول والبراز تفوح في كل مكان فيما مشت نحو الخيمة تبحث عن وجه مألوف. ثمة شخص واحد فقط تعرفه هنا، وعثرت عليه في غضون دقائق، يتحدث إلى فتاة صغيرة بالفرنسية. تعلّم بلايك الفرنسية في النوادي الليلية في سان تروبيز، وهو يصطاد النساء، لكن يبدو أنه نجح، برأي ماكسين، وابتسمت لحظة رأته. كانت تقف بقربه خلال ثوانٍ قليلة، وحين نظر إليها، تلألأت الدموع في عينيه. أنهى ما كان يقوله للفتاة الصغيرة، وأرشدها إلى مجموعة من الأولاد الآخرين الذين يهتم بهم متطوع من الصليب الأحمر، ووقف وعانق ماكسين. بالكاد استطاعت سماع ما قاله بسبب ضجة الجرّافات التي أحضرها بلايك من ألمانيا. ولا تزال فرق الإنقاذ تنبش تحت الأنقاض لإخراج الأشخاص.

قال وهو يبدو مثل رجل في حالة يرثى لها: «شكراً على قدومك، الأمر مريع. حتى الآن، يبدو أن هناك أكثر من أربعة آلاف ولد قد أصبحوا يتامى. لسنا واثقين بعد، لكن عددهم سيزداد قبل أن تنتهي الكارثة». مات

أكثر من سبعة آلاف ولد. وضعفهم تقريباً من الكبار. عانت كل العائلات تقريباً من فقدان شخص عزيز أو أكثر، وتكبدت خسارات جسيمة. وقال إن القرية التالية في الجبل هي أسوأ حالاً. تواجد هناك خلال الأيام الخمسة الماضية. ليس هناك من ناجين تقريباً، وتم إحضار من بقي منهم على قيد الحياة إلى هنا. إنهم ينقلون المسنّين والمصابين إصابات فادحة إلى المستشفيات في مراكش.

«يبدو الأمر سيئاً جداً»، أكّدت له. أومأ لها برأسه، وهو يمسك بيدها، واصطحبها في جولة حول المخيم. الأولاد يبكون في كل مكان، وبدا وكأن كل متطوع يمسك بطفل. «ماذا سيحصل لهم؟»، سألت ماكسين. «هل تم تنظيم أي شيء رسمي؟». عرفت أن عليهم الانتظار للتأكد من وفاة الأهل وعدم إمكانية العثور على أحد من أفراد العائلة. سيبقى الأمر فوضوياً حتى ذلك الحين.

«تعمل الحكومة مع الصليب الأحمر الدّولي والهلال الأحمر المغربي على ذلك، لكن الفوضى تعمّ المكان في الوقت الحاضر. الأخبار تصلنا شفوياً، وما زلنا نعتمد على ما يقوله الأشخاص. لست منخرطاً في عمليات الإنقاذ الأخرى، وإنما أركّز على الأولاد». مرة جديدة، صُدمت لبرهة لأنه يمضي دوماً وقتاً قليلاً جداً مع أولاده، لكن فطرته جيدة على الأقل وقلبه في الاتجاه الصحيح.

أمضت الساعتين التاليتين وهي تجول حول المخيم معه، تتحدث إلى الأشخاص قدر استطاعتها باللغة الفرنسية. عرضت خدماتها في الخيمة الطبية، وعرّفت عن نفسها أمام الطبيب الجراح بأنها طبيبة نفسية متخصصة في الصدمات. طُلب منها التحدث إلى عدة نساء ورجل مسنّ. ثمة امرأة كانت حاملاً بتوأمين وخسرتهما معاً حين انهار منزلها، وقتل زوجها ودفن تحت الركام. لقد أنقذ حياتها نوعاً ما وخسر حياته، حسبما شرحت. لديها ثلاثة أولاد آخرين، لكن أحداً لم يستطع العثور عليهم. هناك عشرات الحالات مثل حالتها، وثمة فتاة شابة جميلة خسرت ذراعيها. كانت تبكي أمها بشدة، ووقفت ماكسين قربها ومررت يدها عبر شعرها، فيما استدار

بلايك بعيداً وهو يبكي.

عند غروب الشمس توقفت أخيراً هي وبلايك أمام سيارة الصليب الأحمر، وأخذا كوبين ساخنين من شاي النعناع. وفيما توقفا للإصغاء، سمعا الدعوة إلى الصلاة (الأذان) التي تردد صداها في القرية، بعد انطلاقها من المسجد الرئيسي. إنه صوت لا ينسى. وعدت بالعودة إلى الخيمة الطبية لاحقاً تلك الليلة، لوضع الخطوط العريضة لمشاريع تهدف إلى مساعدتهم في كيفية التعاطي مع ضحايا الصدمات، لكن هذا يعني كل شخص موجود هنا تقريباً، بما في ذلك العمال. لقد شاهدوا بعض المآسي المريعة في البداية. تحدثت ماكسين إلى متطوعين من الصليب الأحمر لدقائق قليلة. يحتاج الجميع إلى رعاية أساسية في هذه المرحلة بحيث لا مجال أبداً لإعداد برامج متكلّفة ومعقّدة. كل ما يمكن فعله هو التحدث إلى الأشخاص فرداً فرداً، ولم تجلس هي وبلايك طوال ساعات. وفيما ارتشفا كوبي الشاي، فكرت ماكسين فجأة في أرابيلا، وسألته عنها، وما إذا كانت لا تزال في حياته. أومأ برأسه وابتسم.

«لديها التزام ولم تستطع المجيء في هذه الرحلة. أنا مسرور لأنها ليست هنا. إنها تخاف كثيراً. يغمى عليها إذا رأت جرحاً بسيطاً. ليس هذا ملائماً لها. إنها في المنزل في لندن». لقد انتقلت للعيش معه بطريقة رسمية قبل أشهر، وهذه سابقة بالنسبة إليه أيضاً. فالنساء يبقين معه عادة لفترة وجيزة، ثم يختفين من حياته. بعد سبعة أشهر، لا تزال أرابيلا موجودة. تأثرت ماكسين.

«هل هي قيّمة على المنزل؟». سألت مبتسمة، وهي تنهي شايها.

قال وهو يبدو خجولاً: «ربما، مهما على ذلك. لست عائلياً مثلك، ماكس. لا أحتاج إلى الزواج». رأى أن هذا أمر شجاع، لكنه سعيد لأجلها إذا كان هذا ما تريده. «أردت إخبارك بالمناسبة. أريد أن أقيم العشاء السابق للزفاف لك أنت وتشارلز في ساوثامبتون. أشعر وكأنني أدين لك بذلك على الأقل».

قالت بلطافة: «أنت لا تدين لي بأي شيء». فيما قناعها الجراحي يتدلى حول عنقها. لا تزال الرائحة كريهة، لكنها لم تستطع شرب الشاي إلا بعد نزعه. أعطت قناعاً لبلايك أيضاً وقفازين جراحيين من اللاتكس. لا تريده أن يمرض، علماً أنه يسهل حصول ذلك في مثل هذا المكان. كان الجنود يدفنون الجثث طوال اليوم، فيما أفراد العائلات ينتحبون. إنه صوت مخيف ومعذب، يخفّ لحسن الحظ بفعل ضجيج الجرافات أحياناً.

«أريد فعل هذا لك. سيكون ممتعاً. هل تقبل الأولاد الفكرة؟».

قالت بصراحة: «لا، لكنهم سيفعلون. تشارلز رجل طيب. لكنه غريب مع الأولاد». أخبرت بلايك عن موعدها الأول معه، وضحك.

اعترف بلايك: «كنت لأهرب مثل المجنون، وهم أولادي».

«أنا متفاجئة لأنه لم يفعل». كانت ماكسين تبتسم أيضاً. لم تخبره كم غضب تشارلز بسبب مجيئها إلى المغرب. لا يحتاج بلايك إلى معرفة ذلك، وقد تتأذى مشاعره، أو يستنتج، مثل دافني، أن تشارلز أحمق. شعرت ماكسين بحاجة إلى حمايتهما معاً. برأيها كلاهما طيبان.

عادت إلى الخيمة الطبية لبعض الوقت بعد ذلك، وحاولت مساعدتهم على إعداد خطة عمل، وتحدثت إلى بعض المسعفين عن أعراض الصدمة القوية، لكن في هذه المرحلة بدا الأمر أشبه بحفر الجبل بواسطة الملعقة، أي غير فعال البتة.

بقيت مستيقظة معظم الليل مع بلايك، مثلما هي حاله منذ أيام، وفي النهاية ناما في سيارة الجيب التي أحضرتها إلى المكان، متكوّرين إلى جانب بعضهما. لم تفكر حتى في ردّ فعل تشارلز لو رأى هذا. الأمر عديم الجدوى هنا. تستطيع تمضية وقتها وهي تطمئنه حين تعود إلى المنزل. ثمة أشياء أخرى أكثر أهمية عليها فعلها الآن.

أمضيا معظم يوم السبت مع الأولاد. تحدثت إلى أكبر عدد منهم، وأمسكت بهم أحياناً، ولا سيما الصغار منهم. بدأ العديد منهم يمرضون، وعرفت أن بعضهم سيموتون. أرسلت عشرة منهم على الأقل إلى الخيمة

الطبيـة مـع متطوعيـن. وحـلّ الظـلام قبـل أن تتوقـف هـي وبلايك عن العمل.

«مـا الـذي أستطيـع فعله؟». بدا بلايك يائساً بقـدر إحساسه. ماكسين معتادة على ذلك أكثر منه، بالرغم من أن المشهد أزعجها أيضاً. ثمة حاجة ماسة إلى أيّ نوع من المساعدة.

«بصراحـة؟ ليـس الكثيـر. أنت تبذل أقصى مـا يمكنك». عرفت أنه يوظف المال والمعدات في جهود الإنقاذ، لكنهم حتى الآن ما زالوا يعثرون على جثث فقط، وليس على ناجين.

ثم صدمها بما قاله لها لاحقاً. «أريد أن أصطحب بعض هؤلاء الأولاد إلـى أميـركا»، قال بهدوء. إنـه ردّ فعل طبيعي. ثمة أشخاص آخرون في ظـروف مماثلـة تفاعلـوا بهذه الطريقة أيضـاً. لكنها عرفت أنه في مثل هذه الأوضـاع، قـد لا يكون أمر الاهتمام والتكفل بالأولاد بسيطاً بقدر ما يعتقد بلايك.

قالت بهدوء: «ترغب جميعاً بذلك، لا يمكنك اصطحابهم جميعاً معك». ستنشـئ لهـم الحكومة دور أيتام، وتدخلهم في النهاية في نظامها، وقد يجد بعضهم طريقه إلى وكالات دولية، وإنما عدد قليل فقط. مثل هؤلاء الأولاد يبقـون عـادة ضمن بلدانهم وثقافاتهم. معظم الأولاد الموجودين حولهم هم مـن المسلميـن. سيتولى مسلمون آخـرون الاهتمام بهم. «أصعب جزء في هـذا العمـل هـو الاضطرار إلى الابتعاد. في مرحلة ما، تكون قد فعلت كل ما في وسعك ضمن إمكانياتك، وعليك العودة إلى المنـزل. لكنهم يبقون». بدا ذلك قاسياً، لكنها عرفت أن هذه هي الحقيقة في معظم الحالات.

قال بحزن: «هذا هو رأيي، لا أستطيع فعل هذا. أشعر وكأنني أدين بشيء للأولاد هنا. لا أستطيع فقط تشييد منـزل جميل والظهور مع مجموعة مـن الأشخاص بين الحيـن والآخر. أشعر أنني أدين لهـم بأكثر من هذا، كإنسـان. لكـن لا يمكنك الاستمرار إلى الأبد»، قال لها. إنه اكتشاف جديد بالنسبة إليه، وقد احتاج إلى عمر كامل للوصول إلى هنا.

«مـاذا عـن مساعدتهـم هنا، بدلاً من محاولة أخذهـم معك؟ قد تعيقك الإجراءات الرسمية إلى الأبد».

نظر إليها بغرابة حينها، فيما خطر له شيء ما، قد يكون أكثر منطقياً فـي المـدى البعيـد. «ماذا لو حوّلـت منـزلي هنا إلـى دار للأيتام؟ أستطيع إعالتهـم، وإيواءهـم، وحتى تعليمهـم. يتّسع المنـزل في مراكش ربما لمئة ولـد إذا أعدنـا هندستـه، وآخر شيء أحتاج إليه هو منـزل جديد. لا أعرف لمـاذا لـم أفكّر في الأمر من قبـل». كان يبتسم ابتسامة عريضة، وتلألأت الدموع في عيني ماكسين.

«هل أنت جاد؟». كانت ماكسين مذهولة، وبدا وكأن خطته ستنفّذ. لم يفعل أي شيء مثل هذا من قبل. إنه مشروع غير أناني البتة، وشيء رائع فعلاً. وهو قادر حتماً على تنفيذه، إذا أراد ذلك. إنها واثقة من أنه يستطيع تحويل القصر إلى دار للأيتام، وتوظيف الأشخاص، وتمويل المشروع، وتغيير حياة مئات الأولاد اليتامى في السنوات المقبلة. سيكون عملاً عظيماً بالنسبة إلى أي واحد من هؤلاء الأولاد، وطريقة أكثر منطقية من محاولة تكفّـل أي منهـم بنفسـه. عند تحويل منـزله، وتجهيـزه كما يجب، وتمويل المشروع، يستطيع مساعدة العديد من الأولاد.

قـال لهـا فيمـا حدقت عيناه إلى عينيها: «نعم، أنا جاد، لقد صدمني ما رأيتـه». لقـد نضج بلايـك. لقد أصبح أخيراً شخصـاً راشداً. لا دليل على بيتر بان، أو النذل.

قالت مع نظرة إعجاب: «إنها فكرة مذهلة».

بـدا متحمسـاً للفكـرة، وشاهدت بريقاً في عينيه لـم تره أبداً من قبل. إنها فخورة جداً به.

«هـل تساعدينني فـي تقييمهـم مـع مضي الوقـت، بصفتهـم ضحايا صدمـات؟ نـوع من نسخة مصغرة عن واحدة من دراساتك. أريد أن أقدّم لهم أي مساعدة ممكنة. نفسية، طبية، تربوية».

قالـت بهـدوء: «طبعاً». إنه مشروع مذهل. كانت متأثرة جداً لتخبره كم

هي معجبة به. وستحتاج إلى وقت وزيارات عدة لتقييم الوضع له كما يجب.

ناما في سيارة الجيب مجدداً تلك الليلة، وقامت معه بجولات طوال اليوم التالي. الأولاد الذين شاهدوهم كانوا في حاجة ماسة إلى المساعدة، بحيث إن فكرة تحويل منزله إلى دار أيتام لبعض منهم هي في غاية الأهمية. وفي الأشهر القادمة، سيكون هناك الكثير من العمل الواجب إنجازه. اتصل بلايك بمهندسه المعماري في ذلك اليوم، وكان يعمل على تحديد اجتماعات مع الوكالات الحكومية لتنفيذ مشروعه.

أمضت ساعتها الأخيرة في المخيم في الخيمة الطبية مجدداً. شعرت أنها أنجزت القليل من العمل خلال وجودها هنا، لكن المرء يشعر دوماً بهذه الطريقة في مثل هذه الأوضاع. اصطحبها بلايك إلى سيارة الجيب في نهاية اليوم. بدا متهكاً. هناك الكثير من الأمور التي تشغل باله.

سألته بنظرة قلق «متى ستعود؟».

«لا أعرف. حين لا يعودون بحاجة إليّ! بضعة أسابيع، شهر. هناك الكثير من الأمور الواجب تنظيمها هنا». سيحتاجون إلى المساعدة لوقت طويل، لكن أسوأ المحن تنتهي أخيراً. ويعود إلى لندن، حيث تنتظره أرابيلا بصبر. إنه مشغول جداً بحيث بالكاد يتسنّى له الوقت للاتصال بها، لكنها بدت رائعة وحنونة كلما اتصل بها. أخبرته كم هو رائع وبطل وأنها معجبة كثيراً به. وكذلك كانت ماكسين. لقد تأثرت كثيراً بجهوده ومشاريعه لتحويل قصره في مراكش إلى دار للأيتام.

«لا تنسي أنك تملكين اليخت لمدة أسبوعين في شهر يوليو»، ذكّرها. شعرا بالغرابة للتحدث عن ذلك هنا. فالعطلة على متن يخت فاخر بدت خارج السياق تماماً. شكرته على ذلك مجدداً. سينضم تشارلز إليهم هذه المرة، وإن على مضض، لكنها أصرّت بالقول إنه واحد من تقاليدهم وسينزعج الأولاد كثيراً إذا لم يفعلوا ذلك. وهو جزء من العائلة الآن. قالت إنها لا تريد تغيير أي شيء لهم الآن. لا يزال الوقت مبكراً جداً، ولا مكان لهم في منزله في فيرمونت. «ولا تنسي عشاء الزفاف. سأجعل سكرتيرتي

تتصل بسكرتيرتك. أريد أن أقيم شيئاً رائعاً لك أنت وتشارلز». تأثرت لأنه فكّر في الأمر، ولا سيما الآن. وهي تتطلع إلى لقاء الشهيرة أرابيلا. كانت ماكسين واثقة من أنها أكثر لطافة مما اعترفت به دافني.

عانقت بلايك قبل أن تغادر، وشكرته على دعوتها للمجيء، وحصول ذلك.

«هل تمزحين؟ شكراً لك على حضورك إلى هنا لثلاثة أيام لمساعدتي».

«أنت تنجز عملاً مذهلاً بلايك»، مدحته. «أنا فخورة جداً بك، وسيكون هذا رأي الأولاد. لا أستطيع الانتظار لإخبارهم بما تقوم به».

«لا تخبريهم الآن. أريد ترتيب كل شيء أولاً، وهناك الكثير من الأمور الواجب إنجازها قبل أن يحصل ذلك». سيكون مقدار العمل هائلاً، بسبب التنسيق بين تشييد الميتم والعثور على الأشخاص الملائمين لإدارته. إنه عمل شاق.

«اعتنِ بنفسك ولا تمرض»، ذكّرته. «كن حذراً». ستبدأ أمراض الملاريا والكوليرا والتيفوئيد بالتفشي قريباً.

«سأفعل. أحبك، ماكس. اعتني بنفسك وقبّلي الأولاد نيابة عنّي».

قالت له: «سأفعل. أحبك أيضاً». وتعانقا للمرة الأخيرة، ثم لوّح لها فيما انطلقت مسرعة في سيارة الجيب.

كان الظلام قد هبط حين وصلت أخيراً إلى الطائرة. كان طاقم الرحلة في انتظارها، مع وجبة محضّرة. لم تستطع أكل أي شيء بعد ما رأته. جلست تحدق إلى السماء لوقت طويل. سطع البدر عند جناح الطائرة، وكانت السماء مليئة بالنجوم. بدا لها كل ما رأته وفعلته طوال ثلاثة أيام غير حقيقي. فكّرت في كل ذلك، وفي بلايك وفي ما يفعله، فيما توجهت الطائرة نحو نيويورك، أخيراً، نامت على مقعدها ولم تستيقظ إلا بعدما هبطوا في نيوارك قرابة الخامسة فجراً. الأيام التي أمضتها للتو في المغرب بدت أشبه بحلم.

الفصل الثامن عشر

وصلت ماكسين إلى شقتها عند الساعة السابعة. كان الأولاد لا يزالون نياماً، ولا تزال زيلدا في غرفتها. استحمّت ماكسين، وارتدت ثياباً للذهاب إلى العيادة. لقد نامت جيداً في الطائرة، وتشعر بالراحة بالرغم من أنّ لديها الكثير من الأمور للتفكير فيها واستيعابها بعد رحلتها. إنه صباح جميل من شهر يونيو، ذهبت سيراً على قدميها إلى العيادة، ووصلت إلى هناك بعد الثامنة بقليل. أمامها ساعة قبل وصول أول مريض عندها، واتصلت بتشارلز لتبلغه بأنها عادت بخير. أجاب بعد الرنة الثانية.

قالت بهدوء: «مرحباً. هذه أنا». على أمل أن يكون قد هدأ.

«ومن تكونين أنت؟»، سأل وهو يبدو فظاً. لقد اتصلت به ثلاث مرات من المغرب، ولم تفلح أبداً في الوصول إليه، فتركت له الرسائل على المجيب الصوتي في المنزل. هذا جيد أيضاً. لا تريد التشاجر معه من مسافات بعيدة. لم يجب في فيرمونت أيضاً، ولم يكن هناك مجيب صوتي لترك رسائل. أملت أن يكون قد هدأ خلال الأيام الأربعة التي تلت سفرها.

«أنا من ستكون السيدة ويست مستقبلاً»، مازحته. «هذا ما أتمناه على الأقل».

«كيف كانت الرحلة؟». بدا أفضل، أو هذا ما اعتقدته. ستفهم أكثر حين تراه، وتقرأ التعبير في عينيه.

«رائعة، مريعة، حزينة، محطّمة للقلب. مثلما تكون هذه الأمور عادة. الأولاد في وضع مريع، وكذلك هم الكبار». لم تخبره عن مشروع بلايك في إنشاء دار للأيتام. فضّلت عدم استعجال الأمور. تحدثت عن أضرار الزلزال بعبارات إجمالية. «كالمعتاد، ينجز الصليب الأحمر عملاً

رائعاً». وكذلك يفعل بلايك، لكنها لم تقل ذلك. تريد توخي الحذر مع تشارلز وعدم إغضابه مجدداً.

«هل أنت مرهقة؟»، سألها بطريقة حنونة. لا شك في أنها كذلك. لقد اجتازت نصف العالم لثلاثة أيام، وهو واثق من أن ظروف المعيشة بائسة في أثناء تواجدها هناك. وبالرغم من أنه غاضب من سبب الرحلة، ومن الشخص الذي دعاها، فقد كان فخوراً بذهابها، بالرغم من أنه لم يقل لها أبداً هذا.

«ليس كثيراً. نمت في الطائرة». تذكر حينها بالقليل من العصبية أنها سافرت في طائرة بلايك الخاصة.

«هل تودين الخروج لتناول العشاء الليلة، أو أنك تعانين من إرهاق السفر؟».

قالت بسرعة: «أودّ ذلك». إنه يعرض عليها السلام بوضوح، وهي تتطلع شوقاً لرؤيته.

«مكاننا المعتاد». وعنى بذلك مطعم **لا غرونوي** حتماً.

«ماذا عن مقهى بولود؟ ليس رسمياً كثيراً، وهو أقرب إلى المنزل». عرفت أنها قد تشعر بالتعب لاحقاً، بعد يوم طويل في العيادة في أعقاب رحلة طويلة. وتريد رؤية أولادها.

قال بسرعة: «سأمرّ لاصطحابك عند الساعة الثامنة. ومن ثم اشتقت إليك، ماكس. أنا مسرور بعودتك. قلقت بشأنك». لقد فكر فيها طوال عطلة نهاية الأسبوع في فيرمونت.

«كنت بخير».

ثم قال مع تنهيدة: «كيف حال بلايك؟».

«إنه يحاول بكدّ أن يحدث فرقاً، وليس هذا سهلاً. لم يتواجد أبداً في مثل هذه الظروف. أنا مسرورة لأنني ذهبت».

قال بسرعة: «سنتحدث عن الأمر الليلة». أقفلا الخط، وألقت نظرة سريعة على الرسائل الموضوعة على مكتبها قبل دخول مريضها الأول. بدا

أنـه لـم يحصل أي شـيء دراماتيكي في عطلة نهاية الأسبوع. أرسلت إليها نيلمـا بالفاكـس تقريراً مختصراً. لـم يواجه أي من مرضى ماكسين مشاكل أو تم إدخاله إلى المستشفى في عطلة نهاية الأسبوع. إنها مسرورة. كانت قلقة بشأنهم أيضاً.

سـارت الأمـور علـى ما يرام بقيـة اليوم، ونجحت فـي العودة إلى المنـزل عنـد الساعـة السادسـة حتى تتمكن من رؤيـة أولادها بعد العمل. ذهبـت زيلـدا إلـى موعد، وحين عادت، كانت ترتـدي طقماً وتنتعل حذاء عالي الكعب، وهذا أمر نادر.

سألتها ماكسين وهي تبتسم لها «أين كنت؟ تبدين وكأنك كنت في موعد مهم». لم يحصل هذا مع زيلدا منذ سنوات.

«أردت رؤية محامٍ لأمر ما. ليس الأمر مهماً».

«هـل كل شـيء بخير؟». بدت ماكسين قلقـة لبرهة، لكن زيلدا قالت إن كل شيء بخير.

أخبرت ماكسين الأولاد عن العمل الذي يقوم به والدهم في المغرب، وكانوا فخورين كثيراً به. قالت إنها فخورة به هي الأخرى. أخبرتهم كل شيء باستثناء قصة دار الأيتام. وعدته بأن يخبرهم بنفسه عن الموضوع، وحافظت على وعدها.

نجحت في ارتداء ثيابها وكانت جاهزة في الوقت المناسب حين وصل تشارلـز مباشـرة قبـل الساعة الثامنة. قـال مرحباً لـلأولاد، الذين تمتموا التحيـات واختفـوا فـي غرفهـم. أصبحوا الآن أقل ودية معـه بعدما عرفوا بمشروع الزواج. أصبح عدوهم بين ليلة وضحاها.

تجاهلتهـم ماكسين، وذهبـا سيراً على الأقدام إلى المطعم في الشارع 76 شرقي. إنها ليلة دافئة، وكانت ترتدي فستاناً من الكتان الأزرق وتنتعل صنـدلاً فضيـاً، وهـذا مختلف تماماً عن ثياب العسكـر، وجزمة القتال التي انتعلتها قبل أربع وعشرين ساعة، في وضع مختلف تماماً مع بلايك. اتصل بهـا لشكرهـا مجدداً بعد ظهر اليوم. قـال إنه إجرى بعض الاتصالات من

أجـل مشاريعـه المستقبلية. إنه ماضٍ قدمـاً بالعزيمة والتركيز والطاقة التي كانت وراء نجاحه على مرّ السنوات.

كانا في منتصف العشاء حين أخبرت ماكسين تشارلز عن عشاء الزفاف الذي سيقيمه لهما بلايك في الليلة التي تسبق الزفاف. توقف تشارلز، وحدق إليها فيما شوكة الطعام في فمه.

«مـاذا قلـت للتو؟». بدأ يسترخي ويتودد إليهـا مجدداً، حين صدمته بهذا الخبر.

«قلـت إنـه يريـد أن يقيـم لنا عشـاء الزفاف، فـي الليلة التـي تسبق الزفاف».

«أظـن أن أهلـي هـم من يفعلون ذلك لـو كانوا على قيد الحياة»، قال تشارلـز بتـذمر فيما وضـع شوكته في طبقه وعدّل جلسته على كرسيه. «هل تريدين أن أفعل أنا ذلك؟». بدا مذهولاً قليلاً من الفكرة كلها.

قالـت ماكسيـن وهي تبتسم لـه: «لا، أظن أنه في الزواج الثاني، تتم الحفلـة كيفمـا اتفق. بلايك هـو مثل العائلة على أي حال. سيتحمس الأولاد لقيامه بذلك».

قال تشارلز بفظاظة وهو يبعد الطبق: «حسناً، أنا لست متحمساً لذلك، هل ستتخلص يوماً من هذا الرجل أم أنه سيستمر معنا إلى الأبد؟ أخبرتني أنك تقيمين علاقة محترمة معه، لكن هذا سخيف. أشعر وكأنني أتزوج به أيضاً».

«حسنـاً، لسـت كذلك. لكنه والـد الأولاد. ثق بي، تشارلز، الأمور أفضل هكذا».

«بالنسبة إلى من؟».

«حسناً. بالنسبة إلى الأولاد». وبالنسبة إليها أيضاً. تكره أن يكون لها زوج سابق لا تتحدث إليه أبداً، أو أن يتشاجرا دوماً من أجل الأولاد.

كان تشارلز يحدق إليها. لم تشاهد أبداً شخصاً غيوراً مثله، ولم تكف عـن التسـاؤل مـا إذا كان السبب بلايـك نفسه أو ما حققـه، أو لأنها كانت متزوجة به. تصعب معرفة ذلك.

«وأفترض أنه إذا قلت لا لعشاء الزفاف، سيظن أولادك أنني معتوه». الجواب عن هذا السؤال هو نعم، لكنها خشيت قول ذلك لتشارلز. «الوضع ليس أبداً لصالحي».

«لا، ليس كذلك. إذا سمحت له بإقامة الحفلة، سيفرح الأولاد كثيراً بتنظيمها معه، وسيقيم حفلة رائعة». فيما قالت ذلك، بدا تشارلز أكثر غضباً على الفور. لم يخطر في بال ماكسين أنه سينزعج إلى هذا الحدّ. بلايك هو عائلتها، وأملت أن يتفهم تشارلز ذلك. «يجدر بي ربما دعوة زوجتي السابقة أيضاً».

قالت ماكسين بلطافة: «لا مشكلة بالنسبة إليّ». فيما طلب تشارلز الفاتورة. لم يبدُ في مزاج لتناول التحلية، ولم تهتم ماكسين. لقد استولى عليها تعب السفر أخيراً، ولا تريد التشاجر مع تشارلز بشأن بلايك، أو أي شيء آخر.

أوصلها إلى منزلها سيراً على الأقدام بصمت تام، وتركها في الخارج. قال إنه سيراها في اليوم التالي، وأوقف سيارة أجرة، وغادر من دون أن يتفوه بكلمة أخرى. لا شك في أن الأوضاع متوترة بينهما، وأملت ألا تصبح الأمور أسوأ في أثناء التحضير للزواج. سيلتقيان بمتعهد تقديم الطعام في ساوثامبتون في عطلة نهاية الأسبوع. أخبرها تشارلز أنه يرى الخيمة وكعكة الزفاف باهظتين جداً، وهذا مزعج لأنها ستدفع كل التكاليف لوحدها. تشارلز دقيق قليلاً في مثل هذه الأمور. لكن ماكسين أرادت كل شيء جميلاً في زفافهما.

فيما صعدت في المصعد، فكّرت في أن تطلب من بلايك عدم إقامة الحفلة، لكنها عرفت أنه سيخيب أمله. وسينزعج الأولاد أيضاً، إذا عرفوا بما حصل. أملت أن يعتاد تشارلز على الفكرة، وحتى يسترخي بشأن بلايك مع الوقت. وإذا كان من شخص قادر على تغيير تشارلز فإنه بلايك. لديه طريقة سهلة في التعاطي مع الجميع، وعجز أي كان عن مقاومة سحره وحس دعابته. إذا استطاع تشارلز مقاومته، تكون هذه سابقة.

بالرغم من غضبه منها في الليلة السابقة، توجب على ماكسين في صباح اليوم التالي أن تطلب من تشارلز الحضور ليلاً لمراجعة لائحة الضيوف، والتحدث عن تفاصيل الزفاف. اتصل متعهد تقديم الطعام لطلب المزيد من المعلومات، وأراد أن يعرف أموراً عدة قبل لقائهما به يوم السبت. جاء تشارلز وهو يتذمّر بعد العشاء، وبقي في مزاج سيئ منذ الليلة الفائتة. إنه غاضب من حفلة الزفاف ويبدو أنه لم يستوعب تماماً رحلتها إلى المغرب. هناك الكثير من آثار بلايك ويليامز في حياته هذه الأيام، وحتى في زفافه. هذا كثير على تشارلز حتى يستوعبه.

جلس تشارلز إلى طاولة المطبخ مع الأولاد فيما كانوا ينهون الحلوى. حضّرت لهم زيلدا فطيرة التفاح مع آيس كريم بالفانيليا، وتناول هو قطعة وقال إنها لذيذة جداً.

بينما كانوا على وشك مغادرة الطاولة، تنحنحت زيلدي. بدا واضحاً أنها ستقول شيئاً ما، لكنهم لا يعرفون أبداً ما هو.

«أنا... آه... أنا آسفة لفعل ذلك الآن. أعرف أن الزفاف بات قريباً و...». نظرت باعتذار إلى ماكسين، التي اقتنعت فجأة بأن زيلدا ستغادر. هذا كل ما نحتاج إليه في الوقت الحاضر. مع الزفاف في شهر أغسطس، وقدوم تشارلز إلى المنزل، تريد أكبر قدر من الاستقرار لهم. ليس الوقت مناسباً لإجراء تغيير مهم، أو ليغادرهم شخص مهم بالنسبة إليهم. واعتمدت ماكسين عليها طوال سنوات. أصبحت زيلدا من العائلة الآن. نظرت إليها ماكسين مذعورة. حدّق الأولاد إليها، وهم لا يعرفون أبداً ماذا يتوقعون. وبدا تشارلز غير مرتبك فيما أنهى فطيرته. فما ستقوله زيلدا لا علاقة له به، أو هذا ما ظنه. فمن توظف ماكسين أو لا توظف يعود إليها. ليست هذه مشكلته، وبدت جيدة له، وطاهية ممتازة. لكن برأيه يمكن دوماً استبدالها، مثل أي شخص آخر. لا تشعر ماكسين وأولادها بهذه الطريقة، على الإطلاق.

قالت زيلدا وهي تحرّك فوطة الأطباق بين يديها: «كنت... كنت أفكر كثيراً... لقد كبرتم أيها الأولاد»، قالت وهي تنظر إلى الأولاد «وأنت

ستتزوجين»، وهي تنظر إلى ماكسين، «وأشعر أنني أحتاج إلى شيء أكثر في حياتي أنا أيضاً. لم أعد صغيرة، ولا أظن أن حياتي ستتغير بعد الآن». ابتسمت بحزن. «أظن أن فارس الأحلام أضاع عنواني... ولذلك قررت... أنني أريد طفلاً... وإذا كان هذا لا يناسبكم، أتفهم وأغادر، لكنني حسمت أمري». لبرهة طويلة، حدقوا جميعاً إليها مذهولين.

سألت ماكسين بصوت مخنوق «هل أنت حامل؟». لم يقل الأولاد أي شيء، ولا تشارلز.

أجابت زيلدا بابتسامة حزينة «لا. أتمنى لو كنت كذلك، سيكون ذلك رائعاً. فكّرت في الأمر، لكن في آخر مرة تحدثنا أنا وأنت ماكس بشأن الموضوع، قلت لك إنني أحببت أولاد الأشخاص الآخرين طوال حياتي، ليس لديّ مشكلة في هذا. فلم أعاني من الدوار وأسمن؟ وبهذه الطريقة، أستطيع الاستمرار في العمل. عليّ ذلك. الأولاد يكلّفون كثيراً»، قالت وابتسمت لهم. «ذهبت لرؤية محام بشأن الحصول على طفل. اجتمعت به أربع مرات. جاءت باحثة اجتماعية لإجراء دراسة ميدانية هنا. لديّ المؤهلات وتمت الموافقة على طلبي». وبالرغم من كل ذلك، لم تتفوه بكلمة أمام ماكسين.

«ومتى تفكرين في فعل ذلك؟». سألتها ماكسين وهي تحبس أنفاسها. ليست مستعدة لاستقبال طفل في المنزل في الوقت الحاضر. أو ربما أبداً. هذا كثير لاستيعابه، مع زوج جديد ينتقل للعيش هنا أيضاً.

«الآن».

«ماذا تقصدين؟»، قطّبت ماكسين حاجبيها أمامها فيما تابعت زيلدا، وبدأ تشارلز ينتبه الآن وكذلك الأولاد. كان يمكن سماع صوت رنّة الإبرة في المطبخ فيما تابعت زيلدا.

«ثمة طفل سيولد حديثاً. أمه عمرها خمسة عشر عاماً وهي متشردة بسبب حملها. تعاطت المخدرات خلال الفصل الأول من الحمل، لكنها توقفت الآن. الوالد في السجن بسبب تجارة المخدرات والسرقة. عمره

تسعة عشر عاماً، وهو غير مهتم أبداً لأمر الطفل أو الفتاة، ولذلك هو مستعد للتوقيع على أوراق التنازل. لقد فعل، وهذا أمر مهم أيضاً. لن يسمح لها أهلها بالاحتفاظ بالطفل، لأنهم لا يملكون المال، وهي فتاة لطيفة. التقيت بها البارحة». أدركت ماكسين أن هذا يبرر الطقم الرسمي والكعب العالي الذي انتعلته زيلدا في اليوم السابق. «إنها مستعدة لإعطائي طفلها. كل ما تريده هو صور فوتوغرافية مرة كل سنة. لا تريد أن تراه، وهذا رائع، ولن تبتزني أو تزعج الطفل. رفض ثلاثة أزواج القبول به، وإذا قبلت به فسيصبح طفلي. إنه صبي»، قالت فيما انهمرت الدموع على وجنتيها مع ابتسامة حطّمت قلب ماكسين. لم تتخيل أنها تريد طفلاً بهذه القوة، مع الكثير من المجازفة، والقبول بطفل شخص آخر قد يكون متضرراً لمدى الحياة. نهضت ووضعت ذراعيها حول زيلي وعانقتها.

«آه زيلي... أعتقد أنك تقومين بشيء رائع فعلاً. لكنك لا تستطيعين أخذ الطفل هكذا. أنت لا تعرفين في ماذا تتورطين. لا يمكنك فعل هذا».

قالت بعناد: «أستطيع وأعرف». ولاحظت ماكسين أنها جدية في ذلك.

«متى سيولد؟»، سأل تشارلز. استوعب الموضوع، وبدا له أشبه بكارثة.

أخذت زيلي نفساً. «سيولد الطفل في عطلة نهاية الأسبوع».

«هل تمزحين؟». كادت ماكسين ترتجف، وبدا الأولاد مذهولين أيضاً. «الآن؟ أي خلال أيام قليلة؟ ماذا ستفعلين؟».

«سأحبه لبقية حياتي. سأسميه جايمس. جيمي». شعرت ماكسين فجأة بالدوار. لا يمكن أن يحصل ذلك لهم. لكنه يحصل فعلاً. «لا أتوقع منكم دعمي في ذلك. وأكره فعل ذلك مع مثل هذا الإنذار القصير. ظننت أنني سأحتاج إلى وقت أطول، مثل سنة أو سنتين. لكنهم اتصلوا بي بشأن هذا الطفل البارحة، وقلت لهم نعم اليوم. لذا، توجب عليّ إخباركم».

قال تشارلز ببرود: «أخبروك عن هذا الطفل البارحة لأنه ما من أحد

آخر يريده، هذه حماقة فعلاً».

قالت زيلي بحزن: «أظن أنها كذلك». وأرادت ماكسين البكاء. بدا لها الأمر مثل خطأ كبير، لكن من هي لتقرر حياة الآخرين؟ ما كانت هي لتفعل ذلك، لكنها أمّ لثلاثة أولاد بصحة جيدة، ومن يعرف ماذا كانت لتفعل لو كانت مكان زيلي؟ هذا شيء فيه الكثير من الحنان فعلاً، ولو فيه القليل من الجنون والكثير من المخاطر. إنها شجاعة لفعل ذلك. قالت زيلدا بهدوء: «إذا أردت أن أغادر الآن، فسأفعل، لا أستطيع فعل أي شيء آخر. لا أستطيع إجبارك على السماح لي بإحضار الطفل إلى هنا. إذا سمحت لي، وأردتني أن أبقى، فسأفعل أيضاً، وسنرى كيف تسير الأمور معنا جميعاً. لكن إذا أردتني أن أرحل، فسأنجز ترتيبات أخرى، وأغادر في غضون الأيام القليلة المقبلة. سأبحث سريعاً عن مكان لأعيش فيه لأن الطفل قد يولد خلال عطلة نهاية الأسبوع».

قال تشارلز: «آه، يا الله». ونهض عن الطاولة وهو ينظر تحديداً إلى ماكسين.

قالت ماكسين بهدوء: «زيلي، سنتدبر الأمر». وفيما قالت ذلك، صرخ الأولاد الثلاثة معاً بفرح، وقفزوا لمعانقة زيلي.

«سيكون معنا طفل!»، صرخ سام بسرور. «إنه صبي!». لفّ ذراعيه حول خصر زيلدا، وبدأت تبكي.

«شكراً»، همست لماكسين.

قالت ماكسين بصوت خافت: «سنرى كيف تسير الأمور». لقد حصلت على جواب أولادها على الفور، لكن عليها مواجهة تشارلز أيضاً. «كل ما نستطيع فعله هو التجربة، والأمل في أن تنجح. إذا لم تنجح، نتحدث في الأمر. ما مقدار الفوضى الذي يمكن أن يحدثها طفل؟». فيما قالت ذلك، وضعت زيلدا ذراعيها حول ماكسين وعانقتها بشدة كبيرة بحيث بالكاد استطاعت ماكسين التنفس.

قالت عبر دموعها: «شكراً، شكراً، هذا كل ما أردته طوال حياتي.

طفل لي أنا»، قالت ذلك وهي تبكي.

«هل أنت أكيدة؟»، سألتها ماكسين بجدية. «لا يزال بإمكانك الانتظار للحصول على طفل من دون أن تخاطري».

«لا أريد الانتظار»، قالت بقوة. «أريده هو».

«قد يكون هذا خطأ».

«لن يكون هكذا». لقد حسمت أمرها، ولاحظت ماكسين أنها لا تستطيع فعل أي شيء لتبديل رأيها. «عليّ الذهاب وإحضار مهد غداً وبعض الأغراض». لقد تخلصت ماكسين من مهد سام قبل أعوام وإلا لكانت أعطتها إياه. من المذهل التفكير أنه قد يصبح هناك طفل بينهم خلال الأيام القليلة المقبلة. فيما نظرت ماكسين حولها، لاحظت أن تشارلز تركهم. وجدته في غرفة الجلوس، يستشيط غضباً، وحين نظر إلى ماكسين، كان الحقد يضطرم في عينيه.

صرخ في وجهها «هل أنت مجنونة؟ هل أنت مجنونة؟ ستحضرين طفل مخدرات إلى منزلنا؟ لأنك تعرفين ماذا يعني ذلك. ما من أحد في عقله السليم يرغب بطفل غير شرعي مع هذه المواصفات، والمرأة المسكينة يائسة جداً بحيث هي مستعدة للقبول بأي شيء. والآن، سيعيش معك!... ومعي!»، أضاف. «كيف تتجرأين على اتخاذ مثل هذا القرار من دون سؤالي أولاً؟». كان يرتجف من شدة الغضب، ولا تستطيع ماكسين لومه تماماً. لم تكن متحمسة هي الأخرى، لكنهم يحبون زيلي. أما تشارلز فلا يحبها. بالكاد يعرفها. ولا يدرك أبداً كم تعني بالنسبة إليهم. بالنسبة إليه، إنها مجرد مربية. إلا أنها العائلة بالنسبة إلى ماكس والأولاد.

«أنا آسفة لأنني لم أسألك، تشارلز. أقسم إن الجواب كان زلّة لسان. كنت متأثرة جداً بما قالته، وشعرت بالأسف عليها. لا أستطيع أن أطلب منها المغادرة فوراً، بعد اثنتي عشرة سنة، وسيحزن أولادي كثيراً. وأنا أيضاً».

قال ببرود: «كان في وسعها إخبارك بما تفعله. هذا مهين! يجدر بك طردها».

قالت ماكسين بحنان: «نحن نحبها، لقد كبر أولادي معها. وهي تحبهم أيضاً. إذا لم ينجح الأمر، يمكننا أن نطلب منها المغادرة. لكن مع كل هذه التغيرات بالنسبة إلى أولادي، وزواجنا، واعتيادهم عليك، تشارلز، لا أريدها أن ترحل». تلألأت الدموع في عيني ماكسين. وكانت عينا تشارلز باردتين وقاسيتين مثل الصخر.

«وماذا يفترض بي أن أفعل الآن؟ العيش مع طفل مخدرات؟ تغيير الحفاضات؟ ليس هذا منصفاً». ليس منصفاً بالنسبة إليها هي الأخرى. لكنها تريد الأفضل للأولاد. إنهم يحتاجون إلى زيلي كثيراً ولا تريد خسارتها الآن، سواء بسبب طفل مخدرات أم لا.

قالت ماكسين: «اطمئن، ربما لن تشعر أنه موجود هنا، غرفة زيلي في الجهة الخلفية للشقة. سيبقى الطفل على الأرجح في غرفتها معظم الوقت خلال الأشهر القليلة الأولى».

«ثم ماذا؟ ينام معنا مثل سام؟». إنها المرة الأولى التي يعطي فيها ملاحظة قاسية بشأن أولادها، ولم يعجبها الأمر، لكنه غاضب. «ثمة دراما لعينة كل يوم معك الآن، أليس كذلك؟ مرة تهربين إلى المغرب معه، ومرة ثانية يقيم لنا حفلة عشاء الزفاف، والآن تشجعين المربية على إحضار طفلها إلى المنزل. وتتوقعين مني أن أتحمل هذا؟ لا بد من أن هذا جنون»، قال ثم حدّق إليها. «لا، أنت المجنونة». وجه إصبعه الغاضب إليها، وأغلق الباب الأمامي بقوة خلفه.

حين عادت ماكسين إلى المطبخ مع نظرة حزينة، سألتها زيلدا وهي تبدو قلقة «هل هذا تشارلز؟». لقد سمع الجميع الباب وهو يغلق بقوة. أومأت ماكسين برأسها من دون أي تعليق إضافي. قالت زيلدا وهي تبدو متأسفة: «لست مضطرة إلى فعل ذلك، ماكس، أستطيع الرحيل».

قالت ماكسين وهي تضع ذراعها حول كتفي زيلدا: «لا، لا يمكنك، نحن نحبك. سنحاول إنجاح الأمر. أتمنى فقط أن تحضري طفلاً جيداً إلى هنا، وبصحة سليمة، هذا كل ما يهم الآن. سيتكيف تشارلز. جميعنا

سنفعل. الأمر جديد عليه قليلاً في الوقت الحاضر»، قالت ذلك، ثم بدأت تضحك. ماذا بعد؟.

الفصل التاسع عشر

ذهب تشارلز وماكسين إلى ساوثامبتون في عطلة نهاية الأسبوع، مثلما كان مقرراً. التقيا بمتعهد تقديم الطعام الخاص بزفافهما، ومشيا على الشاطئ يداً بيد، وبعد انقضاء عطلة نهاية الأسبوع عاد تشارلز هادئاً مجدداً. وعدته ماكسين بأنه إذا كان طفل زيلدا عبئاً عليهم، فستغادر هي والطفل. بدا كل شيء جيداً بينهما مجدداً في عطلة نهاية الأسبوع فيما عادا إلى المنزل. كان يحتاج بشدة إلى بعض الوقت الهادئ معها، وإلى انتباهها الكامل، لأن هذا يعني له الكثير. وبعد التواجد معها طوال عطلة نهاية الأسبوع، عاد مثل الزهرة تحت المطر.

قال لها، فيما عادا بالسيارة إلى المدينة: «تعرفين، حين نمضي مثل هذا الوقت مع بعضنا، يصبح كل شيء منطقياً مجدداً. لكن حين أكون في منزلك المجنون وحياتك الصاخبة، أصاب بالجنون». تألمت مما قاله.

قالت بطريقة منطقية: «ليس المنزل مجنوناً، تشارلز. نحن لا نعيش حياة صاخبة. أنا أم وحيدة مع ثلاثة أولاد وصاحبة مهنة، وفي كل البيوت تحصل أمور مشابهة. إنها تحصل لأي كان». ونظر إليها كما لو أنها مجنونة فعلاً.

«ما هو عدد الأشخاص الذين تعرفينهم والذين تحضر مربياتهم أطفالاً خلال إشعار من ثلاثة أيام؟ اعذريني. لا يبدو هذا طبيعياً بالنسبة إليّ».

قالت وهي تبتسم له: «أعترف، هذا غريب نوعاً ما. لكن الأمور تحصل. إنها مهمة بالنسبة إلينا، خصوصاً في الوقت الحاضر».

قال لها: «لا تكوني سخيفة، سيكونون بخير من دونها».

«أشك في ذلك، وأنا واثقة من أنهم لن يكونوا بخير لو رحلت. أعتمد عليها أكثر مما تعرف. لا أستطيع فعل كل شيء لوحدي».

قال بطريقة واثقة: «لديك أنا الآن» فضحكت ماكسين. «رائع، وكيف حالك في الغسيل، والكيّ، وتحضير العشاء كل ليلة، وإيصال الأولاد، وترتيب مواعيد اللعب، وأخذ الأولاد إلى المدرسة، وتحضير الوجبات الخفيفة، وتوضيب الغداء، والإشراف على الحفلات، والاعتناء بهم حين يكونون مرضى»؟.

فهم الرسالة، لكنه لم يوافق معها ولم يفعل أبداً. «أنا واثق من أنهم يستطيعون التحلي بالمزيد من الاستقلالية إذا سمحت لهم بذلك. ما من سبب يمنعهم من فعل كل ذلك بأنفسهم». كل هذا من رجل لم ينجب أبداً أولاداً، وبالكاد رأى ولداً عن كثب إلى أن تعرّف إليها. لقد تفاداهم طوال حياته. لديه كل الآراء غير الواقعية للأشخاص الذين لم ينجبوا أبداً الأولاد، ولا يستطيعون أن يتذكّروا كيف كانوا أولاداً. «بالإضافة إلى ذلك، تعرفين الحلّ الذي اقترحته لكل ذلك»، ذكّرها. «مدرسة داخلية. وتختفي كل هذه المشاكل، ولا تصبحين امرأة مع طفل مخدرات يعيش في منزلك».

قالت ببساطة: «لا أوافقك الرأي، تشارلز، لن أرسل أولادي أبداً بعيداً إلى أي مدرسة إلى أن يصبحوا في الجامعة». تريد إيضاح ذلك له الآن. «وزيلي لا تتبنى طفل مخدرات. لا تعرف ذلك بالتأكيد. الخطر الكبير لا يعني أن الطفل سيولد مدمناً».

«يمكن أن يكون كذلك»، قال بإصرار، وفهم الرسالة التي أوصلتها بصوت عالٍ وواضح بشأن رأيها السلبي في المدرسة الداخلية لأولادها. لن تتخلى ماكسين عن أولادها ولن ترسلهم بعيداً، لو كان لا يحبها كثيراً، لتخلّى عنها. ولو لم تكن تحبه، لما كانت تحمّلت الأشياء التي قالها. فهمت أن هذا الموضوع شديد الخصوصية بالنسبة إليه. لكنه أحب عطلة نهاية الأسبوع المسالمة الخالية من الأولاد التي أمضاها للتو معها. من جهتها، أحبت ماكسين العطلة، لكنها اشتاقت إلى أولادها. بما أن لا أولاد له، عرفت أنه لن يفهم أبداً هذا الموضوع، وسامحته على ذلك.

كانوا يتناولون طعاماً صينياً جاهزاً مع الأولاد في المطبخ ليلة الأحد حين دخلت زيلي مسرعة.

«آه يا الله... آه يا الله... إنه آتٍ... إنه آتٍ...!». لبرهة، نسوا جميعاً المسألة. بدت زيلدا مثل دجاجة من دون رأس فيما جالت في المطبخ.

سألتها ماكسين «من الآتي؟». لم يكن لديها فعلاً أي فكرة.

«الطفل! الأم في المخاض الآن! عليّ الذهاب إلى مستشفى روزفلت على الفور».

قالت ماكسين: «آه، يا الله». ونهض الجميع، وتحلّقوا حولها بحماسة كما لو أنها ستنجبه بنفسها. جلس تشارلز إلى الطاولة، يأكل بهدوء، وهزّ رأسه.

ارتدت زيلدا ثيابها، وخرجت من الباب بعد خمس دقائق، وتحدث الباقون عن المسألة، ثم ذهبوا إلى غرفهم. جلست ماكسين إلى الطاولة، وحدقت إلى تشارلز.

قالت له بامتنان: «شكراً على روحك الرياضية، أعرف أن هذا ليس ممتعاً لك». كانت آسفة لأن الأمر حصل أساساً، لكنها تحاول جعله أفضل ما يمكن. ما من خيار آخر. أو هناك فقط خيارات لا تريدها، غير هذا الخيار الذي يقضي بالترحيب بطفل زيلي.

«لن يكون الأمر ممتعاً لك أيضاً، حين يصرخ الطفل في المنزل. إذا ولد متأثراً بالمخدرات التي تعاطتها أمه، سيكون الأمر كابوساً لكم جميعاً. أنا مسرور لأنني لن أنتقل إلى هنا قبل شهرين». كانت هي مسرورة أيضاً.

مثلما تبين لاحقاً، ولحزنها الشديد، لم يكن تشارلز مخطئاً. لقد تعاطت الأم البيولوجية مخدرات أكثر مما اعترفت به، وولد الطفل متأثراً بها. أمضى أسبوعاً في المستشفى لإزالة السموم من جسمه، فيما جلست معه زيلدا كل يوم واهتمّت به. وحين عاد إلى المنزل، كان يبكي ليلاً ونهاراً، وجلست زيلي معه في غرفتها. لم يكن يأكل جيداً، وبالكاد ينام، ولم تستطع تهدئته. كل ما فعله هو الصراخ. لقد جاء هذا الطفل الصغير

المسكين إلى العالم بطريقة صعبة جداً، وإنما هو بين ذراعي أم غير أمه في غاية الحنان.

«كيف الحال؟»، سألتها ماكسين صباح أحد الأيام. بدت زيلدا وكأنها اجتازت عشرة أميال من الطرقات الوعرة بعد ليلة أخرى من عدم النوم، كانت تبقى مستيقظة مع الطفل كل ليلة، وتحمله بين ذراعيها معظم الليل.

قالت زيلي وهي تنظر إلى ابنها بطريقة شاكرة: «قال الطبيب إنه قد يحتاج إلى بعض الوقت لتخرج المخدرات من جسمه. أظن أنه أفضل قليلاً». أصبحت متعلقة بجيمي كما لو أنها ولدته بنفسها. جاء المساعدون الاجتماعيون مرات عدة للتحقق منه، ولم يخفَ على أحد كم كانت زيلي حنونة معه. لكنه لم يكن ممتعاً لأي شخص آخر. ارتاحت ماكسين لأنهم سيغادرون في إجازة خلال أسابيع قليلة، وحين يعودون، تأمل أن يكون جيمي قد هدأ. هذا كل ما تتمناه في الوقت الحاضر. زيلي هي أم رائعة، وصبورة وحنونة مثلما كانت مع جاك وسام حين ولدا. إلا أن التعاطي مع الصغير جيمي أصعب بكثير.

في غضون ذلك، كانت مشاريع الزفاف قيد التحضير. لم تعثر ماكسين على فستان بعد، وتحتاج إلى واحد لدافني أيضاً. رفضت دافني المشاركة في أي شيء، وهددت بعدم الذهاب إلى الزفاف إطلاقاً، وهذا تحدٍّ آخر توجب على ماكسين مواجهته. لم تخبر تشارلز بأي شيء. عرفت كم أن الأمر مؤلم. هكذا، ذهبت للتسوق لوحدها، على أمل العثور على فستانين لهما. اشترت قبلاً بذلتين باللون الكاكي للصبيين، وواحدة لتشارلز أيضاً. أنجز ذلك على الأقل.

اتصل بلايك من المغرب، وأخبرها بكل ما أنجزه منذ غادرت. لقد بدأ العمل على تحويل قصره إلى دار أيتام لمئة ولد. اختار الموظفين، وطريقة إدارة دار الأيتام المستقبلية، وسلّم العمل إلى مجموعة من الأشخاص الكفوئين، وفعل كل ما يمكنه حتى الآن. ينوي العودة إلى

هنـاك كل شهـر للتأكد من مضيهم قدمـاً مثلما هو مخطط. سيعود إلى لندن فـي الوقـت الحاضر، وأخبـر ماكسين أن كل شيء جاهز على اليخت لهم. بالـكاد تستطيـع هـي والأولاد الانتظار. إنها أفضـل عطلة لهم كل سنة. لم يكن تشارلز واثقاً كثيراً.

أخبـر بلايـك أرابيلا عن مشاريعه لدار الأيتام الجديدة أيضاً، ورأت أنه أمر رائع.

قـرر مفاجأتهـا حيـن يعود إلى لندن. سيعود قبـل أسبوع من الموعد الذي حدده لها. فعل كل ما في وسعه، وعليه إنجاز عمل في لندن الآن، وإعداد الترتيبات المالية لـ دار الأيتام ولمئة يتيم.

وصـل إلـى مطار هيثرو عنـد منتصف الليل، وكان فـي منزله بعد أربعين دقيقة، وفتح الباب بنفسه. كان المنـزل مظلماً، وقالت أرابيلا إنها تعمل بكد، فافترض أنها نائمة. قالت إنها لا تخرج أبداً تقريباً، والأمر غير ممتع من دونه. كانت تتوق لعودته إلى المنـزل.

بـدا بلايـك مرهقاً بعـد رحلته إلى لندن وكل ما فعلـه خلال الأسابيع الماضيـة. بـدا الاسمرار واضحاً على وجهه وذراعيه. بقيت بشرته بيضاء تحت قميصه القطني. كل ما يريده الآن هو رؤية أرابيلا ولمسها. إنه يتوق بشـدة إليهـا. دخل علـى رؤوس أصابعه إلى غرفـة نومه، في حال كانت نائمة. شاهد جسمها تحت الغطاء، وجلس بقربها، وانحنى لتقبيلها فاكتشف أن هنـاك جسميـن، وليس جسماً واحداً، وكانـا متشابكين ونصف نائمين. فتح عينيه بقوة، وأشعل المصباح ليرى بصورة أفضل. لم يصدق ما رآه، وأراد فـي البدايـة الاعتقـاد بأنه مخطئ. لم يكن هكذا. ثمة رجل وسيم جداً وأسمـر البشـرة فـي السريـر معها، وبدا مذعوراً. شك بلايـك في أنه أحد الرجال الهنود المهمين الذين تعرفهم، أو ربما هو رجل جديد. لا يهم من يكون. إنه في سرير بلايك معها.

«أنا آسف جداً»، قال الرجل بتهذيب، ولفّ نفسه على الفور بالغطاء الذي كان مبعثراً على السرير، وخرج من الغرفة بأسرع ما يمكن. حدّقت

أرابيلا مذعورة إلى بلايك وبدأت تبكي.

قالت: «وصل للتو». كانت هذه كذبة واضحة لأنه بدأ يوضّب حقيبتين كبيرتيـن مـن جلـد التمساح في غرفة ثياب بلايـك، ما يعني أنه موجود هنا منذ فترة. خرج من الغرفة بعد خمس دقائق وهو يرتدي بذلة جميلة. كان رجلاً لافتاً للنظر.

قال لبلايك: «شكراً لك، وأنا آسف». وقال لأرابيلا: «وداعاً». خرج مسرعاً وهو يحمل حقيبتيه. بعد برهة، سمعا الباب الأمامي يغلق بقوة. إنه يقيم معها، في منـزل بلايك، من دون أي خجل.

قـال بلايـك ببـرود: «انهضي من سريري». كانـت ترتعد واقتربت منه.

«أنا آسفة جداً... لم أقصد ذلك... لن أفعل هذا مجدداً...».

قـال بلايـك بوضوح: «انهضي واخرجـي، كان بإمكانك على الأقل الذهاب إلى منـزلك. لم أكن لأعرف على الأقل. هذا تصرّف وقح قليلاً، أليـس كذلـك؟». نهضـت من السرير وكانت تقف أمامـه بكل جمالها. إنها فتـاة رائعـة الجمال مـع أوشام في كل أنحاء جسدهـا. الشيء الوحيد الذي كانـت تضعـه هـو الياقوتة الحمراء بين عينيها. لم يعد بلايك مسروراً. قال بوضوح: «أمامك خمس دقائق، سأرسل إليك أغراضك التي قد تنسينها». توجّـه نحـو الهاتف، واتصل بسيارة أجـرة. اختفت في الحمام، وخرجت مـع سـروال جينـز وقميص قطني خاص بالرجـال. انتعلت صندلاً ذهبي اللون عالي الكعب، وبدت جذابة جداً. لكنه لم يعد يريدها. إنها مثل بضاعة مستهلكة. وكاذبة. كاذبة كبيرة.

وقفـت تنظـر إليه والدموع تنهمـر على وجنتيها، فيما نظر بعيداً. إنه مشهـد مزعـج. لـم تجرؤ أي من النساء اللواتي خـرج معهن على إحضار رجال آخرين إلى سريره. بقي مع أرابيلا أكثر من أي امرأة أخرى. مضت سبعـة أشهـر، والأمـر مؤلم. إنه يثق بها، وبـات مغرماً بها أكثر مما كان مغرماً ببقية النساء. احتاج إلى الكثير من ضبط النفس لعدم نعتها بالصفات

البشعة فيما نزلت مسرعة على السلالم. ذهب إلى المشرب، وسكب لنفسه كوباً. لا يريد رؤيتها مجدداً أبداً. حاولت الاتصال به في وقت لاحق من تلك الليلة، ولأيام عدة بعد ذلك، لكنه لم يجب على اتصالاتها. أرابيلا باتت من التاريخ بالنسبة إليه. لقد اختفت في سحابة دخان مع الياقوتة الحمراء والأوشام.

الفصل العشرون

استمر بحث ماكسين عن فستان الزفاف المذهل حتى بداية شهر يوليو. كانت تتسوق للرحلة حين عثرت على الفستان بالصدفة. إنه ما تريده بالضبط، من تصميم أوسكار دو لا رنتا، مع تنورة كبيرة من الأورغنزا باللون العسلي ووشاح من الساتان بلون الخزامى وصدار من البيج المزين بالخرز الصغير، وقد كان الفستان منسدلاً، مع ذيل صغير خلفه، بحيث لا يبدو متكلفاً كثيراً. عثرت على صندل متناغم لتنتعله، وقررت فوراً حمل باقة من الأوركيدة باللون البيج. وبمحض الصدفة، عثرت في اليوم التالي على فستان جميل من الحرير بلون الخزامى لدافني. أصبحوا جميعاً جاهزين. كانت متحمسة وسعيدة بفستان زفافها وفستان دافني. لكنها قررت الانتظار لتريها إياه بعد عودتهم من الرحلة. لا تزال دافني تهدد بعدم الذهاب إلى الزفاف. أملت ماكسين أن يتمكن بلايك من إقناعها بغير ذلك. يستطيع التأثير فيها أكثر من أي شخص آخر.

حين اتصل بماكسين في اليوم السابق للرحلة، ذكرت الأمر أمام بلايك، ووعدها أن يبذل ما في وسعه مع دافني. إنه يتصل بها لإبلاغها فقط أن اليخت جاهز في موناكو. كان طفل زيلي يصرخ، كالمعتاد، حين اتصل. لا يزال الطفل يواجه وقتاً صعباً، مثل زيلي.

سأل بلايك وهو يبدو محتاراً «ما هذه الضجة؟». فضحكت ماكسين بحزن. ليست الأمور سهلة في المنزل هذه الأيام. بدا مثل جرس إنذار يرن في المنزل طوال اليوم.

«إنه جيمي»، شرحت ماكسين. «طفل زيلي».

«هل أصبح لزيلي طفل؟». بدا متأثراً. «متى حصل ذلك؟».

«قبل ثلاثة أسابيع». أخفضت صوتها حتى لا يسمعها أحد. كرهت

الاعتراف أن تشارلز محق، لكن الصراخ لا يمكن أن يدوم إلى الأبد، حسبما تأمل. إنها ممتنة لأن غرفة زيلي في الجهة الخلفية للشقة. يبدو أن رئتي الصغير مثل لويس أرمسترونغ. «جلبت طفلاً وُلِد متأثراً بالمخدرات التي تعاطتها أمه في أثناء حملها. أبلغتني بمشاريعها قبل أربعة أيام من ولادته. طرحت فكرة المغادرة، لكنني لم أسمح لها بالذهاب. نحن نحبها كثيراً. سنكون جميعاً بائسين من دونها».

قال بلايك وهو لا يزال مذهولاً: «نعم، أعرف، كيف يتعاطى تشارلز مع كل ذلك؟».

«لا يحب الأمر. ما زلنا جميعاً نعتاد على بعضنا». لم تخبره أنه يعتبر المدرسة الداخلية فكرة رائعة. لا يحتاج بلايك إلى معرفة ذلك. «إنه تكيّف كبير».

قال بلايك بصراحة: «لا أظن أنني أحب الأمر أنا أيضاً». ثم أخبرها أن كل شيء ماضٍ قدماً في المغرب. إنه مشروع مميز، وكل شيء على ما يرام.

«متى ستأتي؟»، سألته.

«لا تقلقي. سأكون حاضراً في الزفاف. وكل شيء يسير على ما يرام لحفلة عشاء الزفاف». استأجر نادياً مميزاً لذلك. «سأحضر قبل بضعة أيام».

«هل ستأتي أرابيلا معك؟».

«آه...». تردد، ولاحظت ماكسين أن هذا غريب. «في الواقع، لا».

«هذا مؤسف. كنت أود لقاءها. هل هي مشغولة برسم أحد ما؟».

«لا أعرف. وكي أكون صريحاً، لا أهتم لها. وجدتها في سريري مع رجل هندي وسيم جداً ليلة عدت إلى المنزل. جاء هو للعيش عندي أيضاً. طردتها خارجاً تلك الليلة، ولم أرها منذ ذلك الحين».

«اللعنة، أنا آسفة بلايك». استخف بالمسألة، لكنها عرفت أنه تألم. لقد

دامت علاقته بها أكثر من كل الأخريات. أطول بكثير. لكنه بدا مستوعباً تماماً للأمر.

«نعم، أنا أيضاً. كانت علاقة جيدة على أي حال. هكذا، أصبحت حراً مجدداً، باستثناء مئة يتيم في المغرب». ضحك.

«ستُسرّ دافني. أعني بشأن أرابيلا».

سألها «أنا واثق من ذلك. كيف تتعاطى مع تشارلز؟».

«بالطريقة نفسها تقريباً. أتمنى أن تساعدها رحلة اليخت. سيمنحهما ذلك وقتاً للتعرف أكثر إلى بعضهما. إنه رجل لطيف، وإنما ناضج جداً».

«لا شك في أن طفل زيلي سيُتلف أعصابه». ضحكا على ذلك. «على أي حال، استمتعي بوقتك على اليخت ماكس. اليوم الكبير آتٍ. هل أنت خائفة؟ هل ترتعدين؟». كان فضولياً بشأن ذلك وتمنى لها الخير.

«لا أرتعد. أعرف أنني أفعل الشيء الصحيح. أظن أنه ملائم لي. أتمنى فقط لو أن فترة التكيّف كانت أسهل قليلاً، على الجميع». فمحاولة جمع طرفي نقيض مصدر توتر بالنسبة إليها. لا يحسدها بلايك على ذلك.

قال بلايك بصراحة: «لا أظن أنني أستطيع فعل ذلك مجدداً، أظن أن أرابيلا شفتني».

«أتمنى لا. ستعثر على المرأة المناسبة». لقد تغير كثيراً خلال الشهرين الماضيين. تساءلت ما إذا كان مستعداً للنضوج، بدلاً من متابعة اللهو. لا تعرف أبداً. يمكن أن يحصل ذلك. تمنت ذلك له. من الجيد له أن يستقر، ويخصص المزيد من الوقت لأولاده.

«سأتصل بك على اليخت»، وعدها، ثم أقفلا الخط.

تلك الليلة، تناولت وتشارلز العشاء مع أهلها. اشترى تشارلز كل أنواع الأدوية المضادة لدوار البحر التي استطاع العثور عليها، وكان لا يزال يرتعد من فكرة تمضية العطلة على يخت بلايك. إنه يفعل ذلك من

أجل ماكسين، واعترف لأهلها تلك الليلة أنه لا يتطلع كثيراً إلى ذلك.

«أظن أنك ستستمتع بالرحلة»، قال والدها فيما تحدث الرجلان عن مسائل طبية وعن الغولف. «إنه يخت جميل. وبلايك رجل لطيف فعلاً. هل التقيت به يوماً؟». سأل آرثر كونورز صهره المستقبلي عن صهره القديم.

«لا، لم أفعل»، قال تشارلز مع نظرة متوترة. سئم من سماع أخبار بلايك، من أولاده وماكسين والآن والدها. «لست واثقاً من أنني أريد ذلك. لكن ليس لديّ خيار آخر في هذه المسألة. سيأتي إلى زفافنا، وسيقيم لنا حفلة عشاء قبل الزفاف».

ضحك آرثر «هذه طريقته، إنه مثل ولد كبير في جسم رجل. كان مخطئاً مع ماكسين، ووالداً خسيساً، لكنه رجل محترم. إنه فقط غير مسؤول وجنى الكثير من المال في سن مبكرة جداً، دمره ذلك. لم يعمل ليوم واحد منذ ذلك الحين، وإنما يلهث فقط وراء النساء ويشتري البيوت. اعتدت على تسميته النذل».

«ليس هذا هو الرجل الذي تريد أن تتزوج ابنتك به»، قال تشارلز بصرامة وهو يشعر بعدم الثقة مجدداً. لماذا يحب الجميع بلايك كثيراً؟ ليس هذا عدلاً، نظراً إلى انعدام المسؤولية المعروف بها. ليس جيداً كفاية أن يكون الإنسان ممتعاً ويستمتع بوقته.

وافق آرثر على الفور «لا، ليس كذلك، فكرت في ذلك حين تزوجته. كان رجلاً غريب الأطوار حينها، مع كل أنواع الأفكار المجنونة. لكنه ممتع كثيراً». نظر إلى تشارلز حينها وابتسم. «من الجيد أن تتزوج ماكسين أخيراً بطبيب. أقول إنكما التناغم المثالي». ابتسم تشارلز ابتسامة عريضة على ذلك. «كيف حالك مع الأولاد؟».

«أحتاج إلى بعض الوقت للتكيف خصوصاً وأن لا أولاد لديّ».

«لا بد من أن الأمر جميل لك الآن»، ابتسم آرثر وهو يفكر في أحفاده الذين يحبهم بجنون. «إنهم أولاد رائعون». وافق تشارلز معه

بتهذيب، وبعد بضع دقائق، توجها إلى المائدة لتناول العشاء. كانت أمسية لطيفة جداً، وبدا تشارلز مسترخياً ومرتاحاً حين غادر. أحب والديها، مما جعل ماكسين سعيدة هي أيضاً. ثمة مجال سهل لهما على الأقل. لا يجيد التعامل تماماً مع أولادها بعد، وهو يغار من بلايك. لكنه يحب ماكسين، مثلما يذكّرها غالباً. ويحب والديها. عرفا أن بقية الأمور ستُحلّ في الوقت المناسب، خصوصاً بعدما يتوقف طفل زيلي عن الصراخ. على أن يفعل ذلك بعد عودتهم من رحلة اليخت.

الفصل الحادي والعشرون

سافر تشارلز وماكسين وأولادها الثلاثة مباشرة من نيويورك إلى نيس. وحين غادروا المنزل، كان جيمي لا يزال يصرخ.

كانت رحلة سهلة. انتظرهم في مطار نيس ثلاثة من أفراد طاقم يخت بلايك والقبطان، واصطحبوهم إلى اليخت في سيارتين. لم يعرف تشارلز ماذا يتوقع لكنه تفاجأ قليلاً بالبذلات الموحدة وبحرفية أفراد الطاقم. بدا جلياً أن اليخت ليس عادياً. فبلايك ويليامز ليس رجلاً عادياً. أطلق بلايك على اليخت اسم الأحلام الجميلة، ولم تخبر ماكسين تشارلز، لكن بلايك اشترى اليخت وأثثه لها. كان بالفعل حلماً جميلاً. إنه يخت طوله مئتان وستٌ وأربعون قدماً، مثل اليخوت التي لم يرها تشارلز في حياته. ثمة طاقم من ثمانية عشر شخصاً على متنه، مع حجرات أجمل من حجرات معظم المنازل أو الفنادق. ثمة ثروة من الفنون معلّقة على الجدران الخشبية بداخله. يفرح الأولاد كثيراً حين يكونون على متنه. تجولوا فيه كما لو أنه منزلهم الثاني، وهو في الواقع هكذا نوعاً ما.

فرحوا كثيراً برؤية أفراد الطاقم، الذين فرحوا هم أيضاً برؤيتهم. كان أفراد الطاقم مدربين على تلبية كل حاجة يمكن أن تخطر في البال، وتدليلهم بكل طريقة ممكنة. ما من طلب مرفوض أو صغير أو موضع تجاهل. إنها الفترة الوحيدة في السنة التي تشعر فيها ماكسين أنها مدللة تماماً وتستطيع الاسترخاء كلياً. تولى أفراد الطاقم تسلية الأولاد، وأخرجوا الألعاب في كل محطة توقف. هناك دراجات مائية، ويخوت صغيرة، وقوارب سريعة، وطوافات لجرها خلفهم، ومهبط للمروحية حين يكون بلايك على متنه. وهناك مسرح لتسليتهم ليلاً، ونادٍ كامل التجهيزات ليمارسوا فيه التمارين الرياضية، واختصاصي في التدليك لتدليكهم جميعاً.

جلس تشارلز على متن اليخت وهو يبدو مذهولاً وغير مرتاح، فيما غادر اليخت العملاق المرفأ. قدّمت له مضيفة شراباً، فيما عرضت عليه مضيفة أخرى الخضوع للتدليك. رفض الأمرين، فيما راقب موناكو تتقلص خلفهم فيما هم يبحرون باتجاه إيطاليا. كانت ماكسين مع الأولاد في الأسفل يفرغون الحقائب ويرتدون ثياباً مريحة. لحسن الحظ أن أياً منهم لا يصاب بدوار البحر، وعلى يخت بهذا الحجم، رأى تشارلز أنه لن يعاني من الدوار هو الآخر. كان يراقب الشاطئ بمنظار حين صعدت ماكسين إلى الأعلى للعثور عليه. كانت ترتدي قميصاً قطنياً وردي اللون وسروالاً قصيراً. طُلب من تشارلز قبلاً وبتهذيب عدم انتعال حذاء على المنصة الخشبية. كان يشرب، وابتسم لماكسين فيما جلست بقربه، وقبّلت عنقه.

«هل أنت بخير؟». بدت سعيدة ومسترخية، وأكثر أناقة مما رآها قبلاً.

أومأ برأسه مع ابتسامة بريئة. «أنا آسف لأنني أحدثت جلبة كبيرة بشأن المجيء على اليخت. أفهم الآن لماذا تحبينه. ومن لا يفعل؟ شعرت فقط بالغرابة لأنه يخص بلايك. الأمر أشبه قليلاً بانتعال حذائه. إنه نموذج يصعب عليّ أن أحذو حذوه. كيف لي أن أؤثر فيك بعد كل ما تملكينه؟».

كان صريحاً في قوله ذلك، ومتواضعاً، فأثّر فيها. من الجميل تمضية عطلة معه، حتى لو كان ذلك على يخت بلايك. إنها مع تشارلز، وليست مع بلايك، تماماً حيث أرادت أن تكون، ومع الشخص المناسب.

«لست مضطراً إلى التأثير فيّ بهذه الطريقة. أنت تؤثر فيّ بشخصيتك. لا تنسَ أنني تخليت عن كل هذا».

«لا شك في أن الناس ظنوا أنك مجنونة. هذا هو رأيي».

«لم أكن هكذا. لم نكن ملائمين لبعضنا. لم يكن أبداً موجوداً. كان زوجاً نذلاً، ليس للأمر علاقة بهذا، تشارلز. أنا أحبه، لكنه مخادع. لم يكن الرجل المناسب لي، ليس في النهاية على أي حال».

بدا تشارلز مشككاً «هل أنت واثقة؟ كيف يمكن للإنسان أن يكون

مخادعاً ويجني ما يكفي من المال لامتلاك كل هذا؟». رأيه صائب.

«إنه جيد في الأعمال. وهو يرغب بالمجازفة بأي شيء ليربح. إنه مجازف جيد، لكن هذا لا يجعله زوجاً أو أباً جيداً. لقد جازف معي في النهاية، وخسر. تصوّر أنه يستطيع عدم التواجد أبداً، وفعل ما يشاء، والظهور مرة بين الحين والآخر، من دون أن يخسرني. بعد فترة، لم يعد الوضع مناسباً لي. أردت زوجاً وليس اسماً. كل ما حصلت عليه هو اسمه».

«ليس اسماً سيئاً»، علّق تشارلز فيما أنهى كوبه.

«أفضل اسمك»، همست له فيما اقترب منها وقبّلها.

«أنا رجل محظوظ جداً». كان يبتسم ابتسامة عريضة فيما قال ذلك.

«حتى لو كان لديّ ثلاثة أولاد يسببون لك المشاكل، ومهنة مستنفدة للوقت، وزوج سابق مجنون، ومربية أحضرت طفل مخدرات بناء على إشعار من أربعة أيام؟». سألت وهي تنظر إليه في عينيه. تقلق أحياناً من قدرته على تحمّل حياتها. فهي أكثر غرابة مما هو معتاد عليه. ليست حياة غريبة بقدر حياة بلايك، لكنها أكثر نشاطاً من أي شيء عرفه. إلا أن التواجد معها يشعل حماسته أيضاً، وبالرغم من تذمراته، كان مجنوناً بها. تستطيع الإحساس بذلك الآن.

قال جواباً عن أسئلتها السابقة: «دعيني أفكر في الأمر لبرهة، لا، بالرغم من هذا، أحبك ماكس. أحتاج فقط إلى بعض الوقت لأعتاد على كل هذا. خصوصاً الأولاد. لا أشعر بالارتياح معهم بعد». كانت هذه صراحة منه أيضاً. «لم أظن أبداً أنني سأقع في غرام امرأة مع ثلاثة أولاد. لكنهم سيرحلون خلال سنوات قليلة».

«ليس بسرعة»، ذكّرته. «سام في السادسة فقط. والاثنان الآخران لا يزال عليهما إنهاء الثانوية».

«قد يحذفون صفاً»، مازحها. لا تحب توقه الشديد كي يكبر أولادها

ويغادروا. إنها المشكلة الوحيدة فيه بالنسبة إليها. إنها مسألة مهمة بالنسبة إليها. حتى الآن، عاشت مع أولادها، ولا تنوي تغيير هذا كرمى لأي كان، ولا حتى لتشارلز.

أخبرته حينها عن دار أيتام بلايك المغربي، وحذرته بضرورة عدم إخبار الأولاد. يريد والدهم أن تكون مفاجأة.

«ماذا سيفعل مع مئة يتيم؟». بدا تشارلز مذهولاً. لم يفعل أي شخص مثل هذا الأمر؟ حتى مع مال بلايك، بدا هذا أمراً مجنوناً.

«سيقوم بإيوائهم، وتعليمهم، والاعتناء بهم، ومن ثمّ إرسالهم بعيداً إلى الجامعة في يوم من الأيام. إنه ينشئ مؤسسة للعناية بالأيتام. هذا لطف منه. إنها هدية مذهلة لأولئك الأولاد. يستطيع تحمّل التكاليف، ولن يؤثر الأمر إطلاقاً في ثروته». كان تشارلز واثقاً من ذلك بمجرد النظر إلى اليخت وبعد كل ما قرأه عن بلايك. إنه صاحب أكبر الثروات في العالم. لا يزال تشارلز متفاجئاً لأن ماكسين لم تأخذ شيئاً منه، وكانت مكتفية بحياة إنسانية عادية. لا يستطيع عدد كبير من النساء مقاومة رغبة الإخلاص له حين يغادرن. وشكّ في أن هذا هو السبب الذي جعلها هي وبلايك صديقين جيدين لأنه عرف كم هي إنسانة طيبة. يدرك تشارلز هذا الأمر تماماً.

استلقيا على المصطبة لفترة بعد ذلك، وانضم الأولاد إليهما لتناول الغداء. إنهم ينوون إرساء اليخت خارج بورتوفينو تلك الليلة. فاليخت كبير جداً للدخول إلى المرفأ، ولا يكترث الأولاد أبداً للنزول إلى اليابسة. من هناك، سيذهبون إلى كورسيكا لأيام عدة، ثم ساردينيا وكابري وإيليا في طريق العودة. لقد خططوا لرحلة جميلة، وسيمضون معظمها على اليخت.

تفاجأت ماكسين كثيراً حين لعب تشارلز مع الأولاد خلال الليل. لم تره أبداً مسترخياً هكذا. نزع سام جبيرتيه للتو، وأصبح ضلعاه أفضل حالاً فاستطاع التحرك حول اليخت بسهولة. وأخذه تشارلز على إحدى الدراجات المائية في اليوم التالي. بدا أشبه بولد هو الآخر. ذهب بعدها

للغوص تحت الماء مع أحد أفراد الطاقم الذي يحمل شهادة في الغوص. ذهب للسباحة تحت الماء مع ماكسين بعد الغداء. سبحا إلى شاطئ صغير معاً، واستلقيا على الرمل الأبيض. كان جاك ودافني يراقبانهما بواسطة المنظار، وكشفت دافني عن نظرة اشمئزاز حين قبّلا بعضهما. لا تزال دافني تعامله بقسوة، لكن يصعب تفاديه على اليخت. في النهاية أصبحت مسترخية بعد أن علّمها كيفية التزلج على الماء. إنه جيد في ذلك، وعلّمها بعض الخدع التي تسهّل التزلج عليها.

فرحت ماكسين لرؤية تشارلز يتعاطى بحنان مع أولادها. لقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً، ولم يسهّل الأولاد المهمة عليه، باستثناء سام الذي يتكيف مع الجميع، وشعر بالأسف عليه. رأى أن دافني حقيرة جداً، وتقول الكثير من الأمور المزعجة لتشارلز.

«هذا هو رأيك، أليس كذلك؟»، قال تشارلز وهو يضحك. كانت معنوياته جيدة منذ وصولهم إلى اليخت، وبالرغم من تردده السابق، اعترف لماكسين بأنها أفضل عطلة عاشها، ولم تره أبداً أكثر استرخاء.

اتصل بهم بلايك في اليوم الثاني. أراد التأكد فقط من أن الرحلة على ما يرام، وطلب من ماكسين إبلاغ تحياته إلى تشارلز. أجّلت موعد التدليك، لكن سحابة عبرت أمام عيني تشارلز.

«لماذا لا تسترخي بشأنه؟» اقترحت ماكسين، وأومأ تشارلز برأسه ولم يقل أي شيء. فمهما قالت لطمأنته، لا يزال يغار بشدة من بلايك. إنها تفهم ذلك، لكن الأمر يبدو غير ضروري بالنسبة إليها. إنها مغرمة بتشارلز، وليس ببلايك.

تحدثا عن زفافهما، وتلقت بريداً إلكترونياً من متعهد تقديم الطعام ومصمم الزفاف. كل شيء تحت السيطرة.

سبحا في المياه الجميلة قبالة كورسيكا، واستلقيا على الشواطئ الرملية البيضاء. توجّه اليخت بعدها إلى سردينيا، التي كانت أكثر اجتماعية، وتستقبل يخوتاً كبيرة أيضاً. تناول تشارلز وماكسين العشاء على اليابسة، ثمّ

غادر اليخت في اليوم التالي إلى كابري. يستمتع الأولاد دوماً هناك ركبوا في العربات التي تجرّها الأحصنة، وتسوقوا قليلاً، واشترى لها تشارلز سواراً فيروزياً جميلاً أحبّته. أخبرها مجدداً في طريق العودة إلى اليخت أنه يمضي وقتاً رائعاً في الرحلة. كانا سعيدين ومسترخيين. أعطاهما بلايك هدية رائعة مع اليخت. وبدأ الأولاد أخيراً يستمتعون بصحبة تشارلز، ولا يتذمرون منه كثيراً أمام ماكسين، بالرغم من أن دافني لا تزال تقول إنه متزمت. لكن مقارنة مع والدها، يعتبر الجميع متزمتاً. تشارلز إنسان ناضج في الصميم. لكنه لا يزال ينجح في تمضية وقت جيد، وإخبار بعض النكات. لقد رقص على متن اليخت مع ماكسين في إحدى الليالي على وقع الموسيقى الجميلة التي وضعها أفراد الطاقم.

«ألا يزعجك أن تكوني على متن يخته مع رجل آخر؟»، استفسر تشارلز.

أجابت «على الإطلاق، فهو يأتي إلى اليخت مع نصف نساء العالم. الأمر انتهى بيني وبين بلايك قبل وقت طويل. ما كنت لأتزوج بك لو لم تكن الحال كذلك». رأى تشارلز أن هذا صحيح، لكنه يشعر أن بلايك موجود في كل مكان ينظر إليه ويراقبه. ثمة صور فوتوغرافية له في كل مكان، وبعض الصور لماكسين، والكثير من الصور للأولاد. كانت الصور موضوعة كلها في أطر فضية جميلة.

مرّت الأسابيع بسرعة كبيرة، وحلّت فجأة الليلة الأخيرة. أوقفوا اليخت في سان جان كاب فيرات على أن يذهبوا إلى مونتي كارلو في اليوم التالي للسفر إلى أميركا. إنها ليلة جميلة تحت ضوء القمر، وشاهد الأولاد فيلماً سينمائياً، وجلست هي وتشارلز على كرسيين كبيرين يتحدثان بهدوء.

اعترفت له «أكره العودة إلى المنزل». ضحكت فيما قالت ذلك، ووافقها الرأي. «سيكون الأسبوعان القادمان مجنونين قبل الزفاف»، حذّرته، لكنه لم يكن قلقاً أو منزعجاً البتة.

«تصورت ذلك. سأختبئ في مكان ما إذا وجدت الأمر كثيراً بالنسبة إليّ».

تنوي ماكسين العمل لمدة أسبوعين، وعليها إنجاز الكثير من الواجبات في العيادة ومعاينة العديد من المرضى قبل أن تأخذ إجازة في شهر أغسطس من أجل الزفاف وشهر العسل. ستتولى تيلما العمل نيابة عنها مجدداً، مثلما تفعل دوماً.

حين عادوا إلى أميركا، كان الزفاف مرتقباً بعد أربعة أسابيع. بالكاد تستطيع الانتظار. ستنتقل ماكسين وأولادها إلى منزلها في ساوثامبتون في الأول من أغسطس، على أن يأتي تشارلز أيضاً. ستأتي أيضاً زيلي وطفلها، وأملت ماكسين أن يكون ذلك مريحاً للجميع. ستكون هذه جرعة كبيرة من الحقيقة بالنسبة إلى تشارلز، لكنه قال إنه مستعد لذلك. كانا متحمسين للزفاف، وسيمكث والداها معهم في عطلة نهاية أسبوع الزفاف أيضاً. هكذا، سيجد تشارلز من يتحدث إليه، فيما تنهي ماكسين التفاصيل النهائية. والمرة الوحيدة التي لن يبقى فيها تشارلز معهم هي الليلة التي تسبق الزفاف بعد حفلة العشاء. حجزت له غرفة في الفندق، بحيث لا يراها صباح يوم الزفاف. إنها تتشاءم من ذلك، فيما قال هو إنها سخافة لكنه أراد تدليلها لليلة واحدة.

«قد تكون هذه الليلة الوحيدة التي أحصل فيها على نوم جيد، مع كل الأشخاص الموجودين في منزلك». هذا مختلف تماماً عن المنزل الهادئ في فيرمونت. لكن ماكسين لم تشأ أبداً الذهاب إلى هناك لأنهما لا يستطعان أخذ الأولاد معهما، على عكس المنزل الكبير في الهامبتون، الذي يتسع لهم جميعاً ويبقى هناك مجال للضيوف.

أرسى القبطان اليخت في مرفأ مونتي كارلو في وقت باكر من صباح اليوم التالي، وكان الجميع مستيقظين. تناولوا آخر فطور لهم على متن اليخت، ثم أوصلهم أفراد الطاقم إلى المطار. ومباشرة قبل المغادرة، وقفت ماكسين تنظر إلى اليخت الجميل من المرفأ.

«تحبينه، أليس كذلك؟»، سألها تشارلز فيما أومأت برأسها.

«نعم، أحبه»، قالت ماكسين بهدوء. «أكره دوماً تركه». نظرت إليه حينها. «أمضيت وقتاً رائعاً معك تشارلز». اقتربت منه وقبّلته، وقبّلها هو مجدداً.

«وأنا أيضاً»، قال فيما وضع ذراعه حول خصرها ومشيا معاً بعيداً عن يخت الأحلام الجميلة، وصعدا إلى السيارة. كانت العطلة المثالية بالنسبة إليهما.

الفصل الثاني والعشرون

الأيام العشرة التالية في العيادة كانت هستيرية بالنسبة إلى ماكسين. وحين تغادر في شهر أغسطس، ستغيب لمدة شهر كما قرّرت، لكن معظم مرضاها سيغيبون هم أيضاً. فالعديد منهم يذهبون بعيداً في عطلات الصيف مع أهلهم. لكن عليها معاينة عدد من الحالات الصعبة قبل أن تسلّم الأمانة إلى تيلما، وأرادت أن تبقيها تيلما على اطّلاع بآخر الأخبار.

تناولت المرأتان الغداء مباشرة بعد عودة ماكسين من رحلة اليخت، وسألتها تيلما عن تشارلز. التقت به مرتين، لكنها لم تفهمه كثيراً واستوعبت فقط أنه متحفظ جداً. التقت ببلايك مرة واحدة أيضاً وقالت إن الرجلين يختلفان مثل الليل والنهار.

«أنا واثقة من أنك لا تختارين صنفاً محدداً»، مازحتها تيلما، «وإذا كنت تفعلين، لست واثقة من النوع تحديداً».

«ربما تشارلز. نحن متشابهان أكثر. بلايك كان خطأ مبكراً»، قالت ماكسين بعفوية، ثم أعادت التفكير. «لا، ليس هذا صحيحاً، أو عادلاً. كان الزواج ناجحاً حين كنا شابين. أنا نضجت، لكنه هو لم يفعل، وأصبح كل شيء فاسداً بعد ذلك».

«لا، ليس صحيحاً. حصلت على ثلاثة أولاد رائعين نتيجة الزواج».

لتيلما ولدان وهما رائعان. زوجها صيني، من هونغ كونغ، وولداها ذوا بشرة رائعة بلون الكاراميل مع عيون آسيوية كبيرة. إنهما مزيج من الاثنين. ابنتها عارضة أزياء مراهقة، ولطالما قالت تيلما إن ابنها يحطّم قلوب الجميع في المدرسة. ومثلما فعلت أمه قبلاً، سيذهب إلى جامعة هارفارد في الخريف ويتوجه إلى كلية الطب بعد ذلك. زوجها طبيب أيضاً، طبيب قلب ورئيس قسم في جامعة نيويورك، وكان زواجهما

ناجحاً. تحاول ماكسين دعوتهم هم الأربعة إلى العشاء منذ فترة طويلة، لكنهم لم ينجحوا في تدبير الأمر حتى الآن. فجميعهم مشغولون كثيراً.

قالت تيلما: «يبدو تشارلز جدياً كثيراً بالنسبة إليّ». ووافقت معها ماكسين.

«هذا صحيح، لكن ثمة جانب لطيف فيه أيضاً. إنه جيد جداً مع سام».

«والآخران؟».

«يعمل على ذلك»، ابتسمت ماكسين. «دافني صعبة».

«يا الله، أنقذني من الفتيات المراهقات»، قالت تيلما وحرّكت عينيها. «جينا تكرهني هذ الأسبوع. إنها تكرهني فعلياً منذ عامين. أظن أحياناً أنها ستكرهني دوماً. لا أعرف ما الخطأ الذي أرتكبه معظم الوقت، لكن برأيها هي، ما إن أنهض من السرير، حتى أصبح مزعجة. الشيء الصحيح الوحيد الذي أفعله هو أنني أسمح لها بانتعال أحذيتي كلها». ضحكت ماكسين على الوصف. لديها المشاكل نفسها مع دافني، بالرغم من أنها أصغر بسنتين ولم تصل إلى هذا الغضب بعد. لكنها تتقدم نحو ذلك. سيكون المسار طويلاً.
«كيف حال مربيتك مع طفلها، بالمناسبة؟».

«لا يزال يبكي. تقول زيلي إن طبيب الأطفال يرى أنه بخير، لكنه تكيف صعب. اشتريت لتشارلز صمامتين للأذنين لاستعمالها حين نذهب إلى ساوثامبتون. أنا أضعها أيضاً. إنه الشيء الوحيد الذي يجدي نفعاً. ستعاني زيلي من الصمم نتيجة حمله إذا لم يتوقف الطفل سريعاً عن البكاء». ابتسمت ماكسين بحنان فيما قالت ذلك.

«يبدو هذا ممتعاً»، قالت تيلما وضحكتا كلتاهما. من الجميل أخذ استراحة لبعض الوقت والاسترخاء خلال تناول الغداء. لا تفعل ماكسين ذلك غالباً، وهي مشغولة جداً في عيادتها بحيث تشعر بالذنب حيال ذلك، لكن تيلما صديقة جيدة. إنها واحدة من الأطباء النفسيين القلائل الذين تثق ماكسين بهم.

مثلما كان مخططاً، سلّمت ماكسين مرضاها إلى تيلما في الأول من أغسطس، وغادروا جميعاً إلى ساوثامبتون في قافلة من السيارات. سيارتها، وسيارة تشارلز، وقادت زيلي سيارة كبيرة مستأجرة. ركب الأولاد مع زيلي لأن سيارة ماكسين كانت محتلة بأغراض الزفاف. وقاد تشارلز لوحده سيارته البي أم دبليو شديدة الترتيب. لم يقل ذلك، لكن ماكسين عرفت أنه لا يريد الأولاد فيها. وسعدوا هم بالركوب مع زيلي لأن السيارة هي المكان الوحيد الذي ينام فيه جيمي ويتوقف أخيراً عن البكاء. هذا مصدر ارتياح كبير. وفي أكثر من مرة حين كان يفرغ ما في داخل رئتيه الصغيرتين في الشقة، كانت ماكسين تقترح على زيلي أخذ السيارة والقيام بجولة حول المبنى. فعلت ذلك مرات عدة، ونجح الأمر. أسفت ماكسين لأنها لا تستطيع فعل ذلك طوال الليل. إنه ولد صغير ظريف مع وجه جميل. يصعب التعلّق به لأنه يبكي كثيراً، لكنه بدأ يتحسن ببطء في الأسبوع الماضي. ثمة أمل. وإذا حالفهم الحظ كفاية، سيتوقف عن البكاء حين ينتقل تشارلز إلى المنزل بعد شهر العسل. أجّل إحضار ثيابه إلى المنزل حتى ذلك الحين.

وضع تشارلز أشياءه في غرفة نومها ما إن وصلوا إلى المنزل في ساوثامبتون. أعطته خزانة، وملأت خزانتها بالأغراض التي أحضرتها من المدينة. وضعت فستان زفافها، وعلّقته بعناية في خزانة في إحدى غرف الضيوف، مع فستان دافني الذي لم تجرّبه بعد. لقد رفضت ذلك حتى الآن، وادّعت أنها ستفوّت الزفاف وتبقى في غرفتها. أصبحت تستلطف تشارلز أكثر بعد رحلة اليخت، ولكن ليس بما يكفي لرؤيتهما يتزوجان. لا تزال تقول لأمها إنها ترتكب خطأ وإنه رجل ممل جداً وصارم جداً.

قالت ماكسين بهدوء: «ليس مملاً، دافني، إنه مسؤول وصلب».

«لا، ليس كذلك»، أصرّت ابنتها. «إنه مضجر وتعرفين ذلك». لكن ماكسين لا تضجر أبداً معه. إنه مهتم دوماً بعملها، ويتحدثان عن الطب في معظم الأوقات. هي وتيلما لا تفعلان ذلك أبداً. لكن هذا أكثر ما تستمتع به هي وتشارلز.

في الأسبوع الأول، توجب على ماكسين الاعتناء بألف تفصيل، والاجتماع بمتعهد تقديم الطعام ومصمم الزفاف. تحدثت إلى متجر الأزهار كل يوم تقريباً. سيضعون أزهاراً بيضاء في كل مكان، ويحضرون أسياجاً من الشجيرات والأشجار المشذبة فنياً مع القليل من أزهار الأوركيدة بينها. سيكون المظهر بسيطاً وأنيقاً، ورسمياً نوعاً ما. هذا ما تريده ماكسين بالضبط. لم يكن تشارلز مهتماً لتفاصيل الزفاف وعهد بها إلى ماكسين.

في الليل، كانت تخرج هي وتشارلز لتناول العشاء أو يصطحبان الأولاد لمشاهدة فيلم السينما. وفي النهار، كان الأولاد يلعبون مع أصدقائهم على الشاطئ. كان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن وصل بلايك في الأسبوع الثاني من تواجدهم هناك. تحوّل تشارلز إلى كتلة جليدية لحظة وصل بلايك.

مرّ بلايك بالمنزل لرؤيتها والأولاد، وعرّفته إلى تشارلز. لم تشاهد قبلاً تشارلز متصلباً أو منزعجاً هكذا. كان يتخذ موقفاً عدوانياً كلما تكلم بلايك، بالرغم من أن بلايك كان مرتاحاً جداً، وجذّاباً مثل أي وقت مضى. دعاه بلايك للعب تنس في النادي، لكن تشارلز رفض ذلك ببرود مما أثار حزن ماكسين. ثرثر بلايك معه بروح مرحة ولم يكن عدائياً البتة. لكن تشارلز لم يستطع التواجد بقربه في أي مكان، وأثار شجاراً مع ماكسين تلك الليلة من دون أي سبب. استأجر بلايك منزلاً مجاوراً، لمدة أسبوع، مباشرة على الشاطئ، مع حوض سباحة، مما جعل تشارلز يحتدم غيظاً. شعر أنه يتجاوز خصوصيتهم، وقال ذلك لماكسين.

قالت ماكسين: «لا أعرف لمَ أنت غاضب كثيراً، كان لطيفاً جداً معك». رأت أن تشارلز يتصرف بطريقة غير منطقية. في النهاية، هو الفائز والعريس.

«تتصرفين كما لو أنك لا تزالين متزوجة به»، اشتكى لها.

«لا». بدت مصدومة بما قاله. «هذا شيء سخيف».

«كنت تعانقينه. ولم يستطع إبعاد يديه عنك». كان تشارلز غاضباً

وكذلك هي. فاتهاماته غير عادلة. هي وبلايك يتعاطفان مع بعضهما، لكن ما من شيء أكثر من ذلك، ولم يكن هناك شيء منذ أعوام.

كانت شديدة الغضب «من المقرف قول ذلك، إنه يعاملني مثل أخت لـه. وهـو يبذل جهداً كبيراً للتحـدث إليك، فيما لفظتَ بالكاد كلمتين أمامه. سيقيم لنا حفلة عشاء الزفاف، وبالكاد كنت مهذباً معه، وبذلت جهداً. اللعنة، أمضينا أسبوعين على يخته».

«لـم تكـن هذه فكرتي!»، صرخ تشارلز في وجهها. «أجبرتني على ذلك. وتعرفين رأيي في عشاء حفلة الزفاف. لم أرد ذلك أيضاً».

«أمضيت وقتاً رائعاً على اليخت»، ذكّرته.

«نعـم، فعلـت»، اعترف لها. «لكنني أتساءل إذا خطر في بالك ماذا يعني لك النوم مع خطيبة في السرير الذي كانت تنام فيه مع زوجها. حياتك غريبة قليلاً عليّ، ماكسين».

«آه لا تكن متزمتاً هكذا. إنه مجرد سرير. لا ينام فيه معنا».

«قـد يفعـل ذلك!»، قال تشارلز وخرج من الغرفة. وضّب أغراضه تلـك الليلـة وغـادر في الصباح إلـى فيرمونت. قال إنـه سيعود في الوقت المناسب للزفاف. إنها بداية رائعة. لم يجب حتى على هاتفه الخلوي طوال يوميـن، ممـا جرح مشاعر ماكسين، ولم يعتذر أبداً منها على تصرفه حين تحدثـا أخيـراً. بـدا صارماً وبـارداً. لم تحب ماكسيـن اتهاماته، ولم يحب تشارلز تواجد بلايك في الجوار، ودخوله إلى المنزل وخروجه منه. قال تشارلـز إن بلايـك يتصرف كما لـو أن المنزل لا يزال منزله، وغضبت من ذلك وقالت إن هذا ليس صحيحاً.

«إذاً، أين العريس؟»، سأل بلايك وهو ينظر حوله حين مرّ بالمنزل في اليوم التالي.

«ذهب إلى فيرمونت»، قالت عبر أسنانها المطبقة.

«آه. هـل أشـمّ رائحـة مشاكل مـا قبل الزفـاف»، مازحها فتذمرت منه.

«لا، ما تشمه هو غضبي منه لأنه يتصرف مثل الأحمق»، لا تكذب أبداً على بلايك. يمكنها أن تكون صريحة معه، حتى لو توجب عليها حفظ مـاء الوجـه أمـام أولادهـا. أخبرتهم أن تشارلز يحتـاج إلى بعض الراحة والهدوء قبل الزفاف، وحرّكت دافني عينيها بمكر. فرحت لأنه غادر.

«مما أنت غاضبة ماكس؟ يبدو رجلاً لطيفاً».

«لا أعـرف كيـف تستطيع قول ذلك. بالكاد قال لك كلمتين البارحة. رأيـت أنـه قاسٍ جداً، وأخبرته ذلك بالفعل. فأقل ما يمكنه فعله هو التحدث إليك. وصرخ في وجهك حين دعوته للعب التنس».

«ربمـا يتزعج من وجـود زوجك السابق. لا يفكر جميع الأشخاص بانفتاح مثلنا»، قال وهو يضحك، «أو بجنون».

«هـذا ما يقولـه». ابتسمت لبلايك. «يظن أننـا جميعاً مثل المجانين. وطفـل زيلـي يوتّر أعصابه». أرادت أن تقـول: «وكذلك يفعل أولادنا»، لكنهـا تـرددت فـي إخبـاره هذا. لا تريـد أن يقلق بلايـك بشأنه. لا تزال مقتنعـة بأنـه هـو والأولاد سيعتادون على بعضهـم، وربما يحبون بعضهم مع الوقت.

«عليّ الاعتراف أن طفل زيلي مزعج قليلاً». ابتسم لها. «هل تعتقدين أنها ستعثر على زرّ الصوت في ذلك الطفل؟ لا بد من أن أمه تعاطت الكثير من المخدرات».

«لا تدعها تسمعك وأنت تقول هذا. سيتحسن. يحتاج إلى الوقت».

«لا أستطيـع لـوم تشارلـز على ذلك»، قال بلايـك بصراحة. «ماذا عنك؟ ألم تخافي بعد؟». كان يمازحها، ودفعته بعيداً عنها مثل ولدين يلعبان في علبة رمل.

«آه، اسكت. لقد تركني للتو. لست خائفة».

«يجدر بك ذلك!»، قالت لها دافني فيما مرّت قربهما.

«توقفي عن ذلك!». قالت لها ماكسين ثم هزّت رأسها. «فتاة مزعجة. هل أخبرتهم عن مشاريعك لدار الأيتام؟»، سألت بلايك.

«كنت أنوي فعل ذلك الليلة. أتمنى أن يعتبروا الفكرة جميلة ولا ينزعجوا. يبدو أنّ لديهم الكثير من الآراء الخاصة بهم هذه الأيام. أخبرني جاك للتو أن سروالي قصير جداً، وشعري طويل جداً، وشكلي غير مرتب. قد يكون محقاً، لكن من المزعج سماع ذلك». كانت تبتسم له فيما دخل سام ونظر إليه.

قال بنبرة موافقة: «تبدو لي جيداً، أبي».

«شكراً سام». عانقه بلايك وابتسم سام ابتسامة عريضة.

«هل تريدين الخروج لتناول البيتزا معنا هذه الليلة؟»، سأل ماكسين.

«طبعاً. أحب ذلك». ليس لديها شيء آخر لتفعله. تحب طريقة مجيء الجميع إلى منزل ساوثامبتون وتجولهم فيه، وأحبت وجود بلايك أيضاً. من المؤسف أن تشارلز لم يستطع الاسترخاء والاستمتاع. لكنه قال حين غادر إن هذا مصدر إرباك كبير بالنسبة إليه. أطلق عليه اسم السيرك ثلاثي الحلقات، ولم يكن الأمر إطراء حين قال ذلك. ثمة أوقات ترغب فيها بقتله، مثل الآن، قبل الزفاف. فكل تفاصيل وحماسة ما قبل الزفاف تبرز أسوأ ما فيهما. لم تكن صبورة مثل المعتاد، ورأت أنه لا يتحلى بروح رياضية إذ هرب إلى فيرمونت لحظة وصول بلايك. ولم يفعل بلايك أي شيء سوى التصرف بلطافة معه. بدا واضحاً لماكسين أن تشارلز يعاني من عقدة منه. أملت أن يتجاوز المشكلة سريعاً.

مرّ بلايك لاصطحابها هي والأولاد لتناول العشاء تلك الليلة، مثلما كان مخططاً، وأخبرهم عن دار الأيتام في المغرب فيما كانوا يتناولون الطعام. بدوا مذهولين قليلاً لدقيقة، ثم أدركوا كم ينظم شيئاً رائعاً. أخبروه جميعاً أنهم فخورون به. وكانت ماكسين فخورة بهم لتقديرهم ما يقوم به والدهم.

«هل نستطيع الذهاب للزيارة، أبي؟»، سأل سام باهتمام.

«طبعاً. يمكننا الذهاب جميعاً إلى مراكش في يوم من الأيام. لم ينته

البناء بعد، لكن حين ينتهي، سآخذكم أنتم الثلاثة معي». رأى أنه يجدر بهم رؤيته. إنه مختلف كثيراً عن عالمهم الصغير السعيد والآمن، وشعر أن هذا سيفيدهم.

أخبرهم بلايك كم كانت أمهم مذهلة حين ذهبت إلى المغرب لمساعدته. شرح لهم ما فعلاه، وما شاهداه، وأصغى الأولاد باهتمام. ثم سألته دافني عما حصل لأرابيلا.

«طردتها»، قال ببساطة. ليسوا بحاجة إلى معرفة البقية.

«هكذا؟»، سأل جاك، وأومأ بلايك برأسه، وشبك أصابعه.

«هكذا، قلت لها اخرجي أيتها الشريرة! وخرجت. مثل ألعاب الخفة. اختفت». بدا غامضاً حيال ذلك، وضحكوا جميعاً، بما في ذلك بلايك. لاحظت ماكسين أن شعوره بات أفضل. لقد تعافى بسرعة. يفعل ذلك دوماً. مشاعره تجاه النساء في حياته لا تتعمق أبداً، بالرغم من إدراك ماكسين بأن مشاعره تجاه أرابيلا كانت أعمق من مشاعره تجاه الأخريات. إلا أنها كانت نهاية مزعجة، نظراً إلى المشهد الذي وصفه في سريره. عرفت أنه لن يخبر الأولاد بذلك، ولا يجدر به فعل ذلك. وافقت على كيفية تعاطيه معهم.

قالت دافني باقتناع: «أنا مسرورة».

قال والدها: «أراهن أنك هكذا، كنت أشبه بوحش صغير معها في أسبن».

«لا، لم أكن هكذا». دافعت دافني عن نفسها بشراسة.

«بلى كنت هكذا»، قال سام وجاك وبلايك هذا مع بعضهم، فضحك جميع من كان حول الطاولة، بما في ذلك دافني.

«ربما، لكنني لم أحبها».

قال بلايك: «لا أعرف لماذا، كانت لطيفة معك».

«إنها مخادعة. تماماً كما يتصرف تشارلز بلطافة معنا. لا يكون ذلك نابعاً من قلبه». بدت ماكسين مصدومة من تعليقها.

«كيف يمكنك قول مثل هذا الشيء، دافني؟ ليس مخادعاً، إنه متحفظ»، احتجت.

«إنه مراوغ. يكرهنا. يريد أن يكون لوحده معك».

تدخل بلايك «حسناً، هذا منطقي، إنه مغرم بأمك. لا يريدكم دوماً بقربهما أيها الأولاد».

قالت دافني بكآبة: «لا يريدنا أبداً، يمكنك قول ذلك».

لم تكفّ ماكسين عن التفكير في مسألة مديحه للمدرسة الداخلية. لدى الأولاد قدرات مذهلة، ولم تعلّق أكثر. «لم تكن أرابيلا تريدنا أيضاً. لا أعرف لماذا لا تتزوج أنت وأمي مجدداً. أنتما أفضل من أي شخص آخر تخرجان معه. تخرجان مع أشخاص مقرفين، أنتما الاثنان».

«شكراً، دافني»، أجاب بلايك نيابة عنهما مبتسماً ابتسامة عريضة. «حدث أن خرجت مع بعض النساء اللطيفات».

«لا، لم تفعل. جميعهن ساقطات»، قالت دافني وضحكوا جميعاً مجدداً. «وتخرج أمي مع هؤلاء الرجال المملين والمتزمتين».

قال بلايك مبتسماً: «هذا رد فعل بسببي أنا، لا تظن أنني ناضج كفاية، ولذلك تخرج مع رجال ناضجين كفاية، لا يشبهونني أبداً. أليس هذا صحيحاً، ماكس؟». بدت محرجة مما قاله، ولم تعلّق. «بالإضافة إلى ذلك، تحب أنا وأمك حياتنا بهذه الطريقة. نحن صديقان جيدان الآن. لا نتشاجر. نستطيع الخروج معكم جميعاً. لديّ ساقطاتي ولديها رجالها المتزمتون. هل من شيء أفضل من ذلك؟».

أجابت دافني «تزوجا أنتما الاثنان مجدداً».

قالت أمها بهدوء: «لن يحدث هذا، سأتزوج بتشارلز الأسبوع المقبل».

«وسأقيم أنا حفلة العشاء»، أضاف بلايك لتغيير الموضوع. أصبح الحديث ثقيلاً قليلاً عليهم، بالرغم من أن ماكسين رأت أنه من الطبيعي أن يرغب الأولاد بعودة والديهما إلى بعضهما، وأن الزواج بشخص آخر

سيبدد هذا الأمل إلى الأبد. «ستكون حفلة العشاء ممتعة كثيراً»، تابع بلايك، لتغطية الصمت الغريب الذي ساد بعد تعليقات دافني وجواب ماكسين. «أحضّر مفاجأة لتلك الليلة».

«هل ستقفز من الكيك؟» سأل سام بسرور، وأشرق وجه الجميع فوراً فيما انفجروا في الضحك.

«سيحب تشارلز فعلاً ذلك»، قالت ماكسين وهي تمسك معدتها فيما ضحكت.

«إنها فعلاً فكرة. لم تخطر في بالي»، قال بلايك مبتسماً ابتسامة عريضة، ثم اقترح الذهاب إلى منزله المستأجر والسباحة بعد العشاء. بدت فكرة رائعة لهم جميعاً. أخذوا أثواب السباحة من منزل ماكسين، وذهبوا للسباحة في منزله. أمضوا وقتاً رائعاً، وقرر الأولاد تمضية الليل معه. دعا ماكسين للبقاء عنده أيضاً.

قالت بصراحة: «أودّ ذلك، لكن إذا اكتشف تشارلز، فسيقتلني. أفضّل العودة إلى المنزل». هكذا، قادت المسافة القصيرة المؤدية إلى منزلها، وتركت الأولاد مع بلايك. كانت أمسية جميلة، وجاء إعلانه عن دار الأيتام جيداً. تتطلع ماكسين إلى اللقاء بهؤلاء الأيتام، والتحقق من تأثيرات الصدمة التي عانوها.

انتقل بلايك جيئة وذهاباً إلى منزلها لبقية الأسبوع. أدركت ماكسين أنه من الأسهل عدم تواجد تشارلز هنا. بالكاد اتصل بها طوال الأسبوع من فيرمونت، ولم تتصل هي به. تصوّرت أنه من الأفضل له أن يهدأ، وسيظهر مجدداً عاجلاً أم آجلاً. الزفاف بعد أيام قليلة.

يوم حفلة عشاء الزفاف، عاد تشارلز. دخل المنزل كما لو أنه غادره للتو إلى المتجر لشراء الخبز. قبّل ماكسين، ودخل إلى غرفتهما، ووضع أغراضه. وحين رأى بلايك في المنزل بعد الظهر، تصرف بطريقة مهذبة، مما أثار استغراب ماكسين وارتياحها. بدا تشارلز أكثر استرخاء مما كان عليه حين غادر. ومثلما قالت دافني بتهذيب لوالدها همساً، بدا

تشارلز وكأنه أخرج عصا المكنسة من بطنه. نظر إليها بلايك مذهولاً وقال لهـا إنــه مــن الأفضل عدم قول ذلك لأمها. ضحك بلايك على ذلك فيما عاد إلى النادي للتحقق من تفاصيل حفلة العشاء تلك الليلة. ما قالته دافني صحيح. يبـدو تشارلـز أفضـل بكثير. كل ما أمله بلايك هو أن تكون ماكسين سعيدة مع تشارلز. تمنى لها الخير.

الفصل الثالث والعشرون

اشترت ماكسين فستاناً جديداً لحفلة العشاء أيضاً، وحين رآها تشارلز فيه، صفّر إعجاباً. إنه فستان سهرة ذهبي باهت من دون كمين يلف جسمها مثل السارنغ. بدت مثل غرايس كيلي في شبابها. وانتعلت صندلاً ذهبياً عالي الكعب مناسباً له. قرر بلايك جعل حفلة العشاء بملابس رسمية.

بدا تشارلز مرتباً جداً بسترته السوداء أحادية الأزرار. وحين وصلا إلـى الحفلـة، كان بلايك يرتدي سترة بيضـاء ثنائية الأزرار، مع سروال توكسيدو أسود، وربطة عنق سوداء على شكل فراشة، وينتعل حذاءً جلدياً لماعاً. لاحظت ماكسين فوراً أن بلايك لم يكن يلبس جوربين. إنها تعرفه جيداً، ولم يفاجئها ذلك. فالعديد من الرجال في ساوثامبتون يفعلون ذلك. إنـه نـوع من الموضة، بالرغم مـن أن تشارلز علّق على الموضوع، وقد لبس جوربين مناسبين لبذلته. بدا بلايك وسيماً جداً بشعره الأسود وبشرته التـي لفحتهـا الشمـس، وكذلـك كان تشارلز. كانا رجليـن وسيمين. ومع شعرها الأشقر الطويل وفستانها الذهبي الباهت، بدت ماكسين فاتنة.

دعا بلايك مئة شخص من لائحة مدعوي ماكسين، وعشرة أشخاص تقريباً من معارفه. ثمة فرقة موسيقية من عشرة عازفين تعزف كل أنواع الموسيقى، من موتاون، إلى موسيقى الفرق الكبيرة، إلى موسيقى السوينغ. وكانت معنويات الجميع جيدة. تدفق الشراب الخفيف مثل الماء، ولاحظت ماكسيـن أن دافنـي أخذت كوباً، فأشـارت إليها قائلة: «كوب واحد فقط»، وأومأت دافني علامة الموافقة. لكن ماكسين ستراقبها على أي حال.

كانـت رؤيـة كل أصدقائها متعة بالنسبة إليها، وكذلك تعريف تشارلز إلـى الأشخاص الذيـن لا يعرفهم. كان والداها حاضريـن، وارتدت أمها فستـان سهـرة باللون الأزرق الباهت مـع سترة، فيما ارتدى والدها سترة

بيضاء مثل سترة بلايك. إنهم مجموعة مرتبة.

توقف والد ماكسين للتحدث إلى تشارلز لدقائق قليلة قبل العشاء، وسأله كيف كانت رحلة اليخت. لم يره منذ ذلك الحين. «إنه يخت عملاق، أليس كذلك؟»، قال بفرح، ووافق معه تشارلز وقال له إنه أمضى وقتاً جيداً. من الصعب عدم فعل ذلك.

افتتح تشارلز الحفلة بالرقص مع ماكسين، وبدوا سعيدين ومسترخيين، ومرتاحين بين ذراعي بعضهما. كانا ثنائياً جذاباً جداً. وكانت حفلة جميلة. زيّن بلايك النادي بألف وردة بيضاء ومصابيح ورقية مطلية باللون الذهبي.

ألقى خطاباً وجيزاً قبل العشاء، وأخبر بعض القصص المضحكة عن ماكسين جعلت الجميع في حالة هستيرية، بما في ذلك ماكسين. بدا تشارلز منزعجاً قليلاً، لكنه استوعبها. لم يحب فكرة أن بلايك يعرفها أكثر منه، ولديه تاريخ معها. تمنى لهما بلايك بعد ذلك الخير سوية، وقال إنه يأمل أن ينجح تشارلز في إسعادها أكثر مما فعل هو. كانت لحظة مؤثرة، وتلألأت الدموع في عيني ماكسين. بعد ذلك، وقف تشارلز وشرب نخب مضيفهم الكريم جداً، ووعده بإسعاد ماكسين إلى الأبد. تأثر الجميع.

طلب بلايك من ماكسين أن ترقص معه بعد ذلك، بين أطباق العشاء، وتحركا على حلبة الرقص مثل فريد أستير وجينجر روجيرز. لطالما رقصا جيداً مع بعضهما.

قالت له: «كان لطفاً منك قول ذلك، لكنك جعلتني سعيدة. لطالما كنت سعيدة معك، بلايك. لكنني لم أحصل على ما يكفي منك، ولم أعرف أبداً أين كنت. لقد تخليت عني بعدما جنيت كل ذلك المال».

قال بهدوء: «لم أتخلَّ عنك ماكس، لم أتخلَّ عنك بعد. لم أكن ناضجاً كفاية لاستيعابك في تلك المرحلة. أظن أنني عرفت ذلك، وخفت كثيراً. كنت أكثر ذكاء مني، وأكثر حكمة مني في العديد من الأمور. تنتبهين دوماً إلى الأمور المهمة، مثل أولادنا».

قالت بعفوية: «وأنت أيضاً، أردنا فقط أشياء مختلفة. أردتُ أنا العمل وأردت أنت اللهو».

«أظن أن هناك قصيدة فرنسية عن هذا الموضوع. وانظري إلى أين وصلت. بحسب دافني، أنا محاط بالساقطات». كانا يضحكان على العبارة، حين تدخل تشارلز، وأخذ ماكسين بعيداً بين ذراعيه.

قال بطريقة مشككة: «لماذا كنتما تضحكان؟ تبدوان وكأنكما تمضيان وقتاً رائعاً».

«عن شيء قالته له دافني، بشأن ساقطاته».

قال بعدم موافقة ظاهرة: «إنه تعليق فظ لتقوله لوالدها».

قالت ماكسين وهي تضحك مجدداً: «لكن هذا صحيح». انتهت الرقصة، وعادا إلى طاولتهما. شعرت أن تشارلز لم يكن يرغب فعلاً بالرقص معها، وإنما أراد فقط إبعادها عن بلايك.

رتب بلايك كراسي العشاء بطريقة مثالية. كان كل الأشخاص المفضلين لديها على طاولتها مع تشارلز، وكان أصدقاء بلايك على طاولته. لم يحضر معه صديقة للسهرة، ولذلك أجلس والدة ماكسين إلى يمينه، وهذا ملائم. انتبه تشارلز إلى ذلك أيضاً. كان يلاحظ كل شيء ويراقبهما هما الاثنين طوال الليل. لم يبعد عينيه أبداً عن ماكسين أو بلايك. بدا مثل رجل قلق. الوقت الوحيد الذي شعر به بالاسترخاء كان خلال رقص ماكسين مع جاك أو سام.

استمر الجميع في الرقص حتى منتصف الليل، بعد العشاء، وحين دقت الساعة منتصف الليل، لمعت الألعاب النارية في السماء. لقد نظّم بلايك لهما استعراضاً من الألعاب النارية، وصفقت ماكسين بيديها مثل طفلة. إنها تحب الألعاب النارية، وعرف بلايك ذلك. كانت سهرة مثالية. غادر آخر الضيوف قرابة الواحدة بعد منتصف الليل. سينام تشارلز في الفندق هذه الليلة، وأصرت هي على ذلك. في النهاية، قرر والداها النوم هناك أيضاً بدلاً من النوم عندها. رقصت رقصة أخيرة مع بلايك وشكرته على

استعراض الألعاب النارية. أحبت ذلك. وسألته إذا كان يمانع إيصال الأولاد وزيلي إلى المنزل. ستأخذ تشارلز إلى الفندق حيث سينام كي لا يريا بعضهما حتى ساعة الزفاف. وعدها بلايك باصطحابهم إلى المنزل خلال نصف ساعة.

حين انتهت الرقصة، عادت إلى تشارلز وغادرا.

كان الزفاف ظهر اليوم التالي. لكن الجميع قالوا إن حفلة العشاء كانت ممتازة. تحدثت هي وتشارلز عنها في طريقهما إلى الفندق، وتذمّر من الأمر. بدا له الأمر تقليداً سخيفاً. كان يفضّل البقاء في المنزل، لكن ماكسين أصرّت. قبّلها تشارلز، مما ذكّرها بسبب زواجها به. إنها تحبه، بالرغم من قول دافني عنه إنه «متزمت». سيسافران إلى باريس في الليلة التالية، وسيقومان برحلة في وادي لوار. بدا وكأنه شهر العسل المثالي بالنسبة إليها.

قال بعجلة: «سأشتاق إليك الليلة». وقبّلته مجدداً.

«سأشتاق إليك أنا أيضاً»، همست له وهي تضحك. تناولت مقداراً وفيراً من الشراب الخفيف في الحفلة، لكنها لم تكن في حالة يرثى لها، وهي واثقة من أنها رصينة. «حين أراك في المرة التالية، وبعد عشر دقائق من ذلك، أصبح السيدة ويست»، قالت وهي تبتسم له. كانت أمسية جميلة.

قال: «لا أستطيع الانتظار». وقبّلها للمرة الأخيرة، ثم خرج على مضض من السيارة، ولوّح لها، ودخل الفندق، وقادت السيارة بعيداً.

حين وصلت إلى المنزل، دخلت إلى غرفة الجلوس، وسكبت لنفسها كوباً آخر من الشراب الخفيف. بعد دقائق قليلة، سمعت سيارة بلايك تتوقف وفيها زيلي والأولاد. تركت زيلي جيمي في المنزل مع حاضنة، غادرت ما إن وصلوا، وألحت زيلدا على كل الأولاد بالصعود إلى الأعلى للنوم. كانوا مرهقين، واختفوا بعد أن تمنوا لوالديهما اللذين جلسا على الأريكة يتحدثان ليلة سعيدة.

كانت معنويات بلايك جيدة، وبدت ماكسين بحالة مقبولة نوعاً ما

بالنسبة إليه، أكثر مما كانت في الحفلة. تصرفت برصانة هناك، لكنها تفعل ذلك على نحو أقل الآن، بعد كوبين إضافيين من الشراب الخفيف. سكب لنفسه كوباً أيضاً. كانا يستمتعان بالتحدث عن السهرة. شرب بلايك الكثير من الشراب هذه الليلة، لكنه لا يزال رصيناً. وبدا مثل نجم سينمائي في سترته البيضاء. كان كلاهما هكذا، وشربا نخب بعضهما.

«كانت حفلة رائعة»، قالت له وهي تمشي في غرفة الجلوس بفستانها الذهبي، ورمت بنفسها بين ذراعيه. «أنت تقيم حفلات رائعة. كانت ممتعة فعلاً، أليس كذلك؟».

«أظن أنه من الأفضل لك أن تجلسي قبل أن تقعي، أيتها الشقية»، مازحها.

«لست في حالة يرثى لها»، أصرّت، وكان هذا دليلاً واضحاً على أنها في حالة يرثى لها. لطالما أحب ماكسين حين تبدو على هذه الحال. إنها مرحة جداً وجذابة جداً، ونادراً ما تكون على هذه الحال، لكنها ليلة خاصة. «هل تظن أنني سأكون سعيدة مع تشارلز؟»، سألته بتعبير جدي. فجأة، توجب عليها العمل أكثر من المعتاد للتركيز عليه.

قال بلايك بصراحة: «أتمنى ذلك، ماكس». كان في وسعه قول شيء آخر، لكنه لم يفعل.

قالت وهي تحرّك عينيها قليلاً: «إنه ناضج، أليس كذلك؟ مثل والدي؟»، فيما نظرت إلى بلايك، لكنها لا تزال تبدو أجمل من أي وقت مضى، وتوجب عليه تذكير نفسه بضرورة عدم استغلال الوضع. لن يكون ذلك عادلاً. لن يفعل أي شيء يؤذيها، وخصوصاً الليلة. لقد فاته القطار، وهو يعرف ذلك. انتقل من الشراب الخفيف إلى الشراب الروسي، وسكب لها ما تبقى من الشراب الخفيف في منزلها.

أجاب بلايك: «نعم، إنه مثل والدك، كلاهما طبيبان». بدأ يشعر بالقليل من الدوار هو الآخر، ولم يبالِ. فإذا كان سيصبح بحالة يرثى لها يوماً ما، فالليلة مناسبة.

قالت له مع حازوقة عالية: «أنا طبيبة أيضاً، طبيبة نفسية. متخصصة في الصدمات. ألم ألتقِ بك مؤخراً في المغرب؟». ضحكت بقوة على سؤالها، وضحك هو أيضاً.

«تبدين مختلفة في جزمة العمل. أظن أنني أحبك أكثر في الكعب العالي». أمسكت بساقها، ونظرت إلى صندلها الذهبي، وأومأت له علامة الموافقة.

«وأنا أيضاً. فالجزمة تسبب لي القروح».

«انتعلي الكعب العالي في المرة التالية»، نصحها وهو يشرب الشراب الروسي.

«سأفعل. أعدك. تعرف؟»، قالت له وهي تشرب الشراب الخفيف، «لدينا أولاد رائعون فعلاً. أحبهم كثيراً».

«وأنا أيضاً».

قالت وهي تقطب حاجبيها: «لا أظن أن تشارلز يحبهم».

قال بلايك: «وهم لا يحبونه أيضاً». وضحكا بقوة على ذلك. ثم نظرت إليه ماكسين كما لو أنها تفعل ذلك من مسافة بعيدة.

«لماذا تطلّقنا على أي حال؟ هل تذكر؟ أنا لا أذكر. هل فعلتَ شيئاً سيئاً لي؟». أصبحت في حالة يرثى لها تماماً حينها، وكذلك بلايك.

ابتسم بحزن «نسيت أن أعود إلى المنزل».

قالت وهي تبتسم له ببراءة: «آه. هذا إذاً. الآن أذكر. هذا مؤسف جداً. أنت تعجبني فعلاً... لا بل أحبك». وأصدرت حازوقة مجدداً.

قال بلايك بلطافة: «أنا أحبك أيضاً». ثم استعاد وعيه قليلاً. «يجدر بك ربما الذهاب إلى السرير، ماكس. ستعاني من وجع كبير في الرأس غداً في زفافك». الشراب الخفيف يزعج دوماً في اليوم التالي.

سألته وهي تبدو مذهولة قليلاً «هل تطلب مني الذهاب إلى السرير معك؟».

«لا، لا أفعل. وإذا فعلت، سينزعج تشارلز كثيراً غداً، وستشعرين

أنت بالذنب. لكنني أظن أنه يجدر بك الذهاب إلى السرير». أنهت ما تبقى من كوب الشراب الخفيف فيما قالت ذلك، ولاحظ حينها أنها أصبحت في حالة يرثى لها فعلاً. الكوب الأخير أحدث كل الفرق، وبدأ يشعر أنه هو الآخر في حالة يرثى لها. الشراب الروسي أثر فيه بعد ليلة طويلة من الشرب، أو ربما رؤيتها بهذه الطريقة في فستانها الذهبي. إنها فاتنة. لطالما كانت كذلك بالنسبة إليه. تذكّر فجأة، وتساءل كيف نسي هذا.

قالت له: «لماذا يجدر بي الذهاب إلى السرير باكراً جداً؟».

«لأنه يا سندريلا»، قال بهدوء وهو يحملها بين ذراعيه ويرفعها عن الأريكة، «ستتحولين إلى يقطينة إذا لم تفعلي. وستتزوجين الأمير غداً». بدأ يتوجّه إلى غرفة نومها.

«لا، لن أفعل. سأتزوج بتشارلز. أذكر هذا. وليس بالأمير. بل الأمير هو أنت. لماذا أتزوج به؟». بدت فجأة منزعجة، وضحك بلايك فيما تعثر وكاد يوقعها أرضاً، ثم ثبّت نفسه. كانت خفيفة مثل الريشة.

«أظن أنك تتزوجين به لأنك تحبينه»، قال فيما أدخلها إلى غرفتها، ووضعها برفق على السرير، ثم وقف ينظر إليها، ويترنح قليلاً. كانا في حالة يرثى لها.

قالت ماكسين بسرور: «آه، هذا جميل، أحبه. ويجدر بي فعلاً الزواج به، إنه طبيب». ثم نظرت إلى بلايك. «أظن أنك في حالة تحول دون عودتك إلى المنزل، وأنا في حالة يرثى لها لأوصلك». إنه تقييم دقيق تماماً للوضع. «من الأفضل لك أن تبقى هنا». فيما قالت ذلك، كانت الغرفة تدور حوله.

«سأستلقي فقط لدقيقة حتى أستعيد توازني، إذا كنت لا تنزعجين. ثم أعود إلى المنزل. لا تمانعين، أليس كذلك؟»، سألها فيما استلقى بقربها بسترته وحذائه.

قالت: «لا أمانع أبداً». والتفتت نحوه، ووضعت رأسها على كتفه. لا تزال ترتدي الفستان الذهبي وتنتعل الحذاء الذهبي. «أحلام سعيدة»،

همست له فيما أغمضت عينيها وخلدت إلى النوم.

قال بلايك: «هذا اسم يختنا». وأغمض عينيه وخلد إلى النوم.

الفصل الرابع والعشرون

رنّ الهاتف لفترة طويلة في منزل ماكسين في صباح اليوم التالي. إنها العاشرة صباحاً، ورن الهاتف مراراً وتكراراً من دون أن يجيب أحد. لا يزال الجميع نياماً. سمعه سام أخيراً، ونهض من السرير للرّد على المتّصل. لم يكن هناك أي صوت في المنزل.

«مرحباً؟»، قال سام، وهو لا يزال يرتدي ثياب نومه، فيما تثاءب. تأخروا جميعاً في النوم، وكان متعباً. لا يعرف أين هم الآخرون، لكنه يعرف فقط أن دافني شربت الكثير من الشراب الخفيف في الليلة الفائتة وأنه وعدها بعدم إخبار أحد حين تقيأت بعد عودتهم إلى المنزل.

«مرحباً سام». إنه تشارلز. بدا مستيقظاً تماماً. «هل أستطيع التحدث إلى أمك من فضلك؟ أريد فقط أن أقول لها مرحباً. لا بد من أنها مشغولة كثيراً قبل الزفاف». أخبرته أنه سيأتي شخص ما للاهتمام بشعرها وزينتها. وهو واثق من أن المنزل أشبه بحديقة حيوانات. «هل يمكنك مناداتها؟ أحتاج فقط إلى دقيقة». وضع سام السماعة، ودخل بقدميه الحافيتين إلى غرفتها. نظر عبر الباب المفتوح، وشاهد والديه نائمين في ثيابهما. كان والده يشخر. لم يشأ إيقاظهما، فعاد إلى الهاتف ورفع السماعة.

قال بوضوح: «لا يزالان نائمين».

«هما؟». عرف تشارلز أنه ليس سام لأنه يتحدث إليه عبر الهاتف. ومن ينام معها في هذه الساعة يوم زفافهما؟ بدا الأمر غير منطقي بالنسبة إليه.

شرح سام «والدي هنا أيضاً. إنه يشخر، سأقول لها إنك اتصلت حين تستيقظ من النوم». أغلق الهاتف في وجه سام، وعاد الصبي ليصعد إلى غرفته. بما أن أحداً لم يستيقظ بعد، لم يرَ سبباً لاستعداده الآن. شغّل

التلفاز، وللمرة الأولى، لم يسمع صراخ ابن زيلي. بدا وكأن الجميع قد ماتوا.

وصل مصفف الشعر واختصاصي التبرج في تمام العاشرة والنصف. أدخلتهما زيلدا، وأدركت أن الوقت قد حان، فذهبت إلى غرفة ماكسين لإيقاظها. تفاجأت زيلدا لرؤية بلايك ينام بقربها. لكنها فهمت ما حصل. لا يزالان يرتديان ثيابهما. لا بد من أنهما كانا في حالة يرثى لها كثيراً في الليلة الماضية. وخزت ماكس برفق على كتفها، وبعد عشر محاولات تقريباً، تحركت أخيراً، ونظرت إلى زيلدا وهي تتثاءب. أغمضت عينيها فوراً، وأمسكت برأسها. كان بلايك نائماً قربها، ويشخر مثل حيوان أليف.

«آه يا الله»، قالت ماكسين وهي تغمض عينيها من الضوء. «يا الله... لا بد من أنني أعاني من ورم في الدماغ وأكاد أموت».

قالت زيلدا بهدوء محاولة عدم الضحك عليها: «أظن أنه الشراب الخفيف».

قالت ماكسين: «توقفي عن الصراخ!» وأغمضت عينيها.

أكدت لها زيلدا «أنت في حال سيئة، وصل مصفف الشعر واختصاصي التبرج. ماذا أقول لهما؟».

قالت وهي تحاول الجلوس: «لا أحتاج إلى مصفف شعر، أحتاج إلى جراح دماغ... يا الله»، قالت وهي تنظر إلى بلايك. «ماذا يفعل هنا؟». ثم تذكرت. ونظرت إلى زيلدا بذهول.

«أظن أنكما بخير. ما زلتما ترتديان ثيابكما».

وخزته ماكسين حينها وهزته ليستيقظ. تحرك قليلاً، وتأوه مثلما فعلت هي.

«إنه وباء أورام الدماغ ربما»، اقترحت زيلدا، فيما فتح بلايك عينيه، ونظر إليهما مبتسماً ابتسامة عريضة.

«تم خطفي. مرحبا زيلي. لماذا لا يبكي طفلك؟».

«أظن أنه مرهق. ماذا أحضر لكما؟».

قالت ماكسين: «طيب، لا... اللعنة... لا تفكري في ذلك. إذا رآنا تشارلز، سيقتلني».

قالت زيلدا بصرامة: «لا حاجة إلى أن يعرف، ليس هذا من شأنه. لم تصبحي زوجته بعد».

«ولن أكون أبداً إذا عرف بذلك»، تأوهت ماكسين. بدأ بلايك يظن أنها ليست فكرة سيئة. وقف حينها، وحرّك ساقيه، ورتب ربطة عنقه، وتوجه مباشرة نحو الباب.

قال كما لو أن هذا مفهوم ثوري: «سأذهب إلى المنزل».

«اشرب الكثير من القهوة حين تصل»، اقترحت زيلدا. لا يزالان يبدوان في حالة يرثى لها بالنسبة إليها، ويعانيان من أسوأ صداع رأته في حياتها. «كم شربتما أنتما الاثنان؟»، سألت زيلدا ماكسين فيما سمعا الباب الرئيسي للمنزل يغلق وراء بلايك.

«الكثير. الشراب الخفيف يقتلني دوماً»، قالت ماكسين فيما نهضت عن السرير، ودخل سام إلى الغرفة للعثور عليها.

«أين بابا؟»، سأل وهو ينظر إلى أمه. بدت أسوأ كثيراً من دافني، التي كانت تعاني من تأثيرات الشرب أيضاً.

«ذهب إلى المنزل». مشت ماكسين في الغرفة على أطراف أصابعها فيما اشتعلت الألعاب النارية في رأسها. أصوات الليلة الماضية تتكرر، ولكن ليس بطريقة جميلة.

«اتصل تشارلز بك»، أعلن سام، فيما توقفت أمه، وبدت كما لو أنها أصيبت للتو بطلق ناري.

سألت بصوت خشن «ماذا قلت له؟».

«قلت له إنك نائمة». أغمضت عينيها ارتياحاً. لم تجرؤ على سؤاله إذا ذكر والده. «قال إنه يتصل بك فقط ليقول لك مرحباً وسيراك في الزفاف، أو شيئاً من هذا القبيل».

«لا أستطيع الاتصال به. أنا مريضة جداً. سيعرف أنني كنت في حالة

يرثى لها الليلة الماضية، وسيقلق حينها».

قالت زيلدا: «سترينه في الزفاف، أنت في حال مزرية. علينا مساعدتك. استحمّي، وسأحضّر لك بعض القهوة».

«جيد... نعم... هذه فكرة جيدة». دخلت الحمّام، وشعرت أن السكاكين تغرز في جلدها.

فيما كانت تستحم، صعدت زيلدا إلى الأعلى لإيقاظ الأولاد. بدت دافني في حال سيئة تماماً مثل أمها، ووبختها زيلدا ووعدتها بعدم إخبار أحد. نهض جاك من السرير، ونزل إلى الأسفل لتناول الفطور. بدا بخير.

سكبت زيلدا كوبين من القهوة لماكسين، وخفقت لها البيض بالرغم من احتجاجاتها. أعطتها حبتين من الأسبيرين مع القهوة، وباشر مصفف الشعر عمله في المطبخ. سبّب لها وضع مساحيق التجميل على وجهها الألم والانزعاج، أما تصفيف شعرها فكانت نتائجه أسوأ حالاً. لكنها مضطرة إلى ذلك. لا تستطيع عدم تصفيف شعرها ووضع مساحيق التجميل يوم زفافها.

في غضون نصف ساعة، انتهت ماكسين من تصفيف شعرها ووضع مساحيق التجميل، وبدت أفضل من أي وقت مضى. شعرت أنها في حال مريعة، لكن ذلك لم يظهر إلى العلن. لقد أنجزت اختصاصية التجميل عملاً جيداً، وكان وجه ماكسين يتألق إشراقاً. رفع مصفف الشعر شعرها إلى الأعلى في جديلة فرنسية بسيطة، وزينها ببعض اللآلئ. بالكاد استطاعت ماكسين التحرك فيما نهضت، وكانت تشعر بوخز كبير في عينيها كلما رأت ضوء الشمس.

«أقسم لك زيلي إنني أشعر أنني سأموت»، قالت وهي تغمض عينيها لدقيقة، فيما نزلت دافني إلى الطابق السفلي، شاحبة، لكن شعرها كان ممشطاً بطريقة مرتبة، ووضعت الملمع على شفتيها، لأن هذا كل ما تسمح به أمها. كانت ماكسين مريضة جداً لتلاحظ أن دافني في حالة يرثى لها،

ولم يتفوه سام بأي كلمة، وكذلك لم تفعل زيلي.

في الثانية عشرة إلا عشرين دقيقة، كان كل الأولاد، بما في ذلك دافني، يرتدون ثيابهم. أقنعت زيلدا دافني بارتداء ثوب الخزامى بعدما هددتها بأنها ستخبر الجميع بأنها كانت في حالة يرثى لها إذا لم تفعل ذلك. نجحت الخطة. ثم ذهبت زيلدا لإحضار فستان ماكسين وحذائها، فيما وقفت ماكسين نفسها مثل الحصان المكسور في المطبخ، وأغمضت عينيها.

انتعلت ماكسين الحذاء، وساعدتها زيلدا على ارتداء الفستان. أغلقت السحاب وربطت الوشاح، وشهق الأولاد حين رأوها. تبدو مثل أميرة حقيقية.

قالت دافني: «تبدين رائعة فعلاً، أمي». وكانت تقصد ذلك فعلاً.

«شكراً. أشعر بالغرابة. أظن أنني مصابة بالأنفلونزا».

قال سام وهو يضحك: «كنتما في حالة يرثى لها أنت والبابا». فيما وجهت إليه أمه نظرة غاضبة.

«لا تقل هذا لأي كان. وخصوصاً لتشارلز».

«أعدك بذلك». لم يذكر لها حتى أنه أخبر تشارلز أن والده كان يشخر.

كانت السيارات تنتظرهم في الخارج، وعادت زيلدا بعد دقيقة في فستان من الحرير الأحمر، وقد انتعلت حذاء من الجلد الأسود اللماع، وكانت تحمل طفلها. بدأ يتململ، لكنه لم يبدأ بالبكاء بعد. أدركت ماكسين أنه إذا بكى، فسينشطر رأسها إلى نصفين، وتوسلته بصمت كي لا يفعل ذلك. سيلتقون بوالديها وبلايك في دار العبادة.

ثمة سيارة في انتظار زيلي والأولاد، وأخرى لها. أسندت رأسها إلى المقعد، وأغلقت عينيها في طريقها إلى دار العبادة. إنه أسوأ صداع عانت منه في حياتها. اقتنعت تماماً أن الله يؤنبها لأن بلايك أمضى الليل عندها. لم يكن يفترض حصول ذلك. لكن على الأقل لم يحصل أي شيء.

وصلت الليموزين التي كانت تقلّها إلى دار العبادة عند الساعة الثانية

عشرة إلا خمس دقائق. وكانت السيارة التي تقلّ الأولاد خلفها. مشت ماكسين بأكبر ثبات ممكن باتجاه رجل الدين وكان والداها في انتظارها هناك. يفترض ببلايك المجيء واصطحاب الأولاد قبل الاحتفال، ووصل بالفعل مباشرة بعدها. بدا أسوأ منها. كانا ثنائياً متناغماً. ابتسمت له بألم، وضحك لها وقبّلها على جبينها.

«تبدين فاتنة، ماكس. لكنك في حال سيئة».

«نعم وأنت أيضاً». كانت سعيدة برؤيته.

«أنا آسف بشأن الليلة الماضية»، همس لها. «لم يكن يجدر بي السماح لك بشرب كل الشراب الخفيف».

«لا تقلق. فعلت ذلك بنفسي. أظن أنني أردت أن أكون على هذه الحال». كان والداها يصغيان باهتمام إلى الحديث، فيما دخل تشارلز وقد بدا غاضباً. نظر إليهم جميعاً بعينين كبيرتين ثم نظر إلى ماكسين بثوب الزفاف. لا يفترض به رؤيتها. وفيما حدّق إليها، جاء منسّق الزهور وسلّمها الباقة، وحاول تثبيت زهرة أوركيدة صغيرة على صدر تشارلز. لكنه أبعده بقوة.

«كنت معه الليلة الماضية، أليس كذلك؟»، صرخ في وجه ماكسين وهو يشير إلى بلايك. عند سماع ذلك، أمسكت برأسها.

«آه، يا الله، لا تصرخ!».

نظر تشارلز إلى بلايك، وأدرك كم هي في حالة يرثى لها. لم يشاهدها أبداً بهذه الحال.

«أنا شربت الكثير من الشراب، وهو نام»، شرحت له. «لم يحصل أي شيء».

«لا أصدق أي كلمة من ذلك!»، قال وهو يحدق إليها. «أنتم جميعاً مجانين. وأنتما تتصرفان كما لو أنكما ما زلتما متزوجين. أولادكما مزعجون. أطفال مخدرات، يخوت، ساقطات. أنتم مقرفون جميعاً. لن أتزوجك ماكسين. لا يمكنك إجباري على الارتباط بهذه العائلة. أنا واثق

من أنك كنت على علاقة به طوال الوقت». فيما قال ذلك، انفجرت ماكسين في البكاء وقبل أن تتمكن من إجابته، تقدم بلايك بخطوة إلى الأمام، وأمسك تشارلز بياقة سترته كاكية اللون ورفعه عن الأرض.

«هذه زوجتي التي تتحدث إليها، يا ابن الساقطة. وهؤلاء أولادي الذين قلت إنهم مزعجون. ودعني أقول لك شيئاً أيها الأحمق. لن تتزوج بك على الإطلاق. لست جيداً كفاية لتلميع حذائها، ولذلك ابتعد فوراً عن ناظريّ». رمى تشارلز خارج الباب حينها، استدار تشارلز، وغادر مسرعاً، فيما حدقت ماكسين إلى بلايك.

«اللعنة، ماذا سأفعل الآن؟».

«هل كنت تريدين الزواج به؟»، سألها بلايك بنظرة قلقة، وهزّت رأسها كما لو أنها كانت مجبرة على فعل ذلك.

«لا، لم أكن أريد ذلك. عرفت ذلك الليلة الماضية».

«لم يفت الأوان أبداً». قال بلايك فيما صرخ الأولاد فرحاً. إنها المرة الأولى التي يرون فيها والدهم يفعل شيئاً ما، وأحبوا الطريقة التي جعل فيها تشارلز يهرب بعيداً. لقد آن الأوان لذلك برأيهم.

«حسناً، كانت هذه بداية مثيرة للنهار»، قال آرثر كونورز وهو ينظر إلى صهره السابق. «ماذا سنفعل الآن برأيكم؟». لم يكن أسفاً، وإنما فقط قلق.

«يتوجب على شخص ما إخبار الآخرين بأن الزفاف قد أُلغي»، قالت ماكسين وهي تجلس ببطء على الكرسي. صرخ الأولاد فرحاً مجدداً، وابتسمت زيلدا. لم يبك الطفل على الإطلاق، كان نائماً. ربما لم يكن يحب تشارلز.

قال بلايك وهو ينظر إليها: «من المؤسف تبديد فستان رائع مثل هذا، وقد بدت الأزهار رائعة حين نظرت إلى دار العبادة. ما رأيك لو استعملناها بطريقة جيدة؟». ثم نظر إليها بجدية، وأخفض صوته فيما تحدث إليها، كي لا يسمعه أحد آخر. «أعدك ماكسين بأن أعود إلى المنزل هذه المرة. لست

غبياً كما كنت في السابق. لقد سئمت من الساقطات ماكس».

قالت بهدوء وهي تنظر إليه مباشرة في عينيه: «جيد». عرفت أنه يقول لها الحقيقة، وسيعود هذه المرة إلى المنزل. لا يزال نذلاً، لكنها تحب ذلك فيه، وقد نضج. نضج كلاهما. لم تعد تتوقع منه أي شيء سوى أن يكون بلايك. واكتشفت أنها تحب من تكون معه. اكتشفا أفضل ما في بعضهما.

«ماكس؟»، هزّ رأسه فيما سألها. أصبحت الساعة الثانية عشرة والنصف حينها، وكان مدعوو الزفاف ينتظرون في دار العبادة منذ نصف ساعة فيما الموسيقى تعزف.

«نعم»، لفظت الكلمة وقبلها. هذا ما أرادا فعله في الليلة الماضية. احتاجا إلى تشارلز ليعيدهما إلى بعضهما مجدداً. كان تشارلز كل ما يجدر بها أن ترغب به، لكن ما تريده، وكل ما تريده، هو بلايك.

قال بلايك: «فلنذهب!». وقد نسي حالته التي يرثى لها، وشعرت بالتحسن هي الأخرى. «جاك، خذ جدتك إلى الصف الأمامي لدار العبادة. وسام، خذ زيلي. دافني، ستأتين معي». - نظر إلى حميه وتبادلا ابتسامة- «هل أنت موافق بالمناسبة؟». لم يعد الأمر مهماً بالنسبة إليهما، لكنه لم يشأ أن يشعر بأنه منبوذ.

قال أرثر وهو يبتسم ابتسامة عريضة لبلايك: «كانت ستموت من الضجر مع الرجل الآخر، وأنا أيضاً». فيما ضحكت ماكسين.

«أعطيانا خمس دقائق، ثم ادخلا إلى دار العبادة». رجل الدين ينتظر منذ أكثر من نصف ساعة ويتساءل عما حصل.

خرجوا جميعاً مسرعين من الباب، وراقبهم المدعوون. تعرفوا جميعاً إلى بلايك، واحتاروا قليلاً حين رأوه هو ودافني يقفان جنباً إلى جنب، ثم انضم إليهما سام وجاك بعد دقيقة. إنه بلا شك زفاف عصري جداً إذ يعمل الزوج السابق على تسليم العروس. تأثر الضيوف وكانوا مذهولين قليلاً. جلست زيلي والجدة على المقعد، ووقف بلايك وأولاده

في المقدمة، منتظرين دخول ماكسين ووالدها. وفجأة، تغيرت الموسيقى، وبدأت ماكسين تمشي نحو بلايك فيما عيناها تنظران فقط إليه، وابتسم والدها ابتسامة عريضة. لم تبعد عينيها أبداً عن بلايك فيما نظرا إلى بعضهما وكل السنوات التي تشاركاها مع بعضهما، الأوقات الجيدة والسيئة، اجتمعت كلها في هذه اللحظة السعيدة.

كان رجل الدين يراقبهما وقد فهم ما حصل. انحنى بلايك للتحدث إليه، وهمس له بأنهما لم يحصلا على إذن بالزواج.

همس له «ستجري الزفاف اليوم، أحضر الإذن يوم الاثنين، ونفعل الشيء مجدداً سرّاً. كيف يبدو ذلك لك؟».

قال بلايك باحترام: «رائع. شكراً». ثم عاد للنظر إلى عروسه مجدداً. صافح أرثر الذي ربّت له على ذراعه وهمس له «أهلاً بك من جديد». خصص بلايك كل انتباهه لماكسين، ووقف بقربها فيما راقبهما الأولاد. لاحظوا أن عيني أمهم تدمعان، وكذلك عيني والدهم.

التفت رجل الدين إلى الجميع حينها ونظر إليهم باحترام. «أعزائي»، بدأ بالقول، «نجتمع هنا اليوم لتزويج هذا الرجل وهذه المرأة، وحسبما أفهم، أو حسبما أرى، أنهما كانا متزوجين قبلاً»__ ألقى حينها نظرة سريعة على الأولاد- «مع نتائج جميلة جداً. وما أريد أن أقوله لكم إنه حين أبارك زواجاً، يدوم الزواج إلى الأبد. لذا، لن تعودوا مجدداً إلى هنا لجولة أخرى». نظر تحديداً إلى ماكسين وبلايك اللذين كانا يبتسمان لبعضهما. «حسناً، فلنبدأ».

«نجتمع هنا اليوم لتزويج هذا الرجل وهذه المرأة...». كل ما استطاعت ماكسين رؤيته هو بلايك، وكل ما استطاع هو رؤيته كانت هي، ولم يسمعا إلا بعضهما وأنين تأثيرات حالتهما التي يرثى لها في آذانهما إلى أن قال كلاهما «نعم»، وقبلا بعضهما، وخرجا من دار العبادة. وهذه المرة، لم يفرح الأولاد ورجل الدين فقط، وإنما جميع الحاضرين في دار العبادة.

لـم يكـن هـذا هو الزفاف الذي يتوقعه أو يتخيلـه أي منهم، ولا حتى ماكسين وبلايك، لكن هذا هو الزفاف الذي كان يجب أن يحصل، الزفاف الـذي كان قدرهمـا. إنـه زواج شخصين أحبا دومـاً بعضهما، وفي النهاية نضـج كل منهمـا بطريقتـه. إنـه الاتحاد المثالي بين نـذل رائع ومحبوب، وعروس سعيدة جداً.

غمز لهما والدها فيما مشيا بقربه في ممر دار العبادة. غمز له بلايك مجدداً، وضحكت ماكسين بصوت عالٍ.

تمت